صورة رائد نهضوي

من حماه

(أوراق الشيخ محمد سعيد زهور عدي وسيرته)

١٨٨٧ - ١٩٨٠

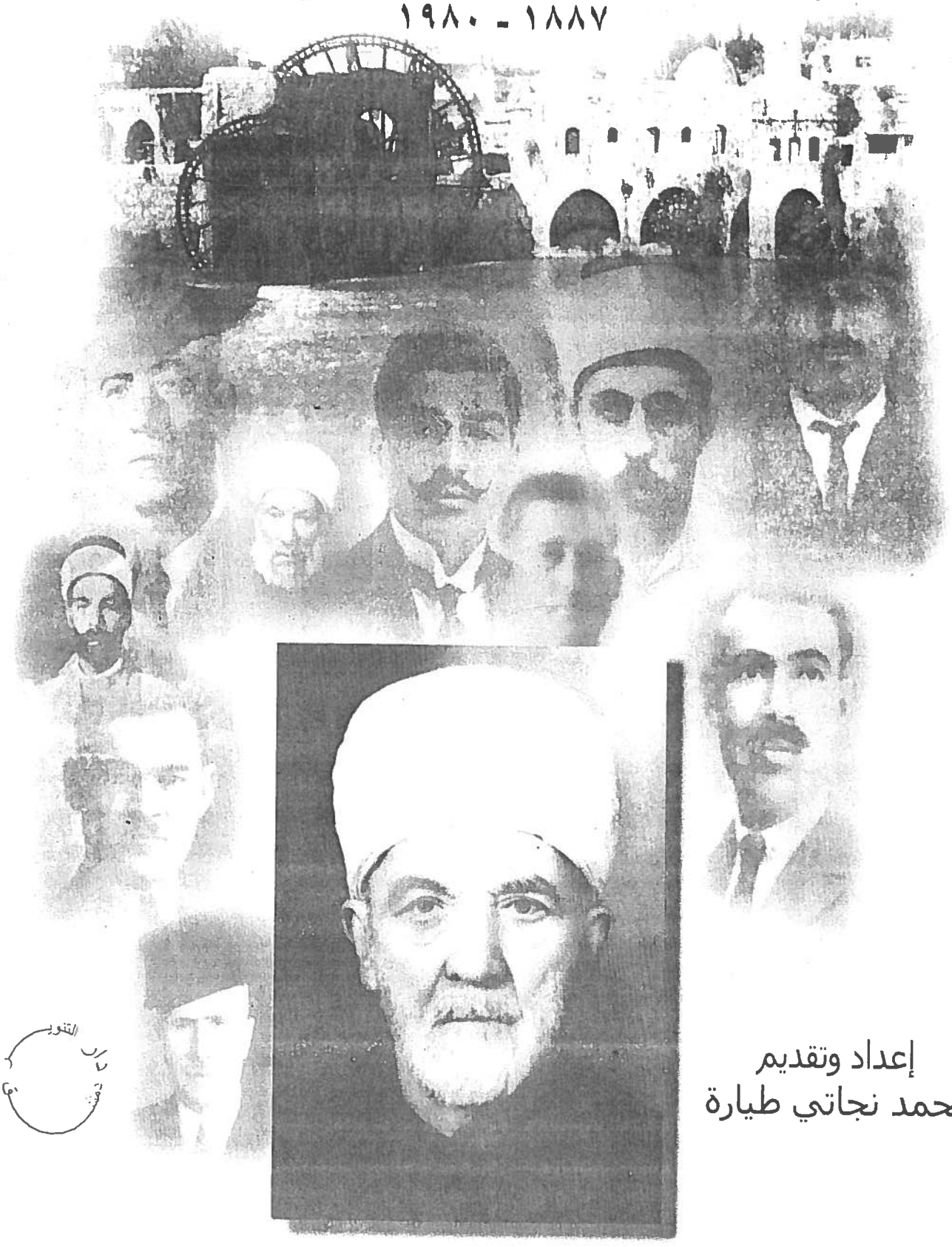

إعداد وتقديم
محمد نجاتي طيارة

دار التنوير

صورة رائد نهضوي
من حماه

❖ صورة رائد نهضوي من حماه .
❖ محمد نجاتي طياره .
❖ الطبعة الأولى / ٢٠٠٠ .
❖ تصميم الغلاف : المهندسة سمية طياره .
❖ مطبعة الخطيب - حمص - هـ ٤٢٢٠٨٢ .
❖ الناشر : دار التنوير - صحنايا - دمشق (ص.ب : ٢٥٨٢)
تليفاكس /٦٧١١٥٩٩ /

صورة رائد نهضوي من حماه : أوراق الشيخ محمد سعيد زهور عدي وسيرته / إعداد وتقديم : محمد نجاتي طياره
٠ - دمشق : دار التنوير ، ٢٠٠٠ . - ٢٤٥ ص ؛ ٢٤ سم
١- ٨١١,٠٠٩ ط ي ١ ص ٢ - ٩٢٣,٧ : عدي ، محمد سعيد
٣ - العنوان ٤ - طياره
مكتبة الأسد

الإيداع القانوني : ع ١٨٥٢ / ١٠ / ٢٠٠٠

موافقة وزارة الإعلام رقم ٤٩٠٥٤ تاريخ ٩ / ١٠ / ٢٠٠٠

صورة رائد نهضوي من حماه

« أوراق الشيخ محمد سعيد زهور عدي وسيرته »

إعداد وتقديم

محمد نجاتي طيارة

الإهداء

إلى حماه . .

. . عائلتي الثانية

نجاتي

المحتويات

المقدمة ٩

الباب الأول : إشارات ١٣

الفصل الأول : حماه و(سورية) في أواخر العهد العثماني. ١٥

الفصل الثاني : سيرة حياة وسيرورة وعي . ٣١

الباب الثاني : نصوص ٤١

الفصل الأول : في قضايا النهضة . ٤٣

- البعثات العلمية إلى ديار الغرب .
- كيف ترقّت اليابان .
- مبلغ قابلية العرب للعلم والمدنية .
- ماذا يجب أن نستفيد من أوروبا .

الفصل الثاني : في قضايا السياسة والمجتمع . ٥٣

- إلى أبناء وطننا العزيز.
- إرادة الأمة وصوتها في القرن العشرين .
- البلد الواحد لماذا لا يجوز أن يتجزأ.
- ذكرى الاستقلال .
- فوائد الاستقلال .
- الجنود حراس الاستقلال .
- مهمة المؤتمر السوري العام .
- تسامح العرب أيام مجدهم .
- الأبحاث الهامة والصحف .

- ذكرى المولد الشريف .
- هناءً يا سعد .
- ذكرى الشهداء .
- اللغة العربية وأبناء مارون .
- إلى ملوك العرب .
- القومية والطائفية .
- حقائق لا أوهام .
- الحجاز وإيران .
- ليس في سوريا شعوب بل شعب واحد عربي .
- إقصاء القريب وإسكان البعيد .
- الملك ابن سعود وصحف الإنكليز .
- إسكان الأرمن بسورية .

الفصل الثالث : في قضايا التربية . ٩٩

- صناعة التعليم .
- الأخلاق والمعلمون .
- دار العلوم الشرعية ومراقبة الأوقاف .
- إلى وزارة المعارف .
- ماذا تعملون يا رجال المعارف .
- التربية الاستقلالية والحياة الاتكالية .

الفصل الرابع : في قضايا اللغة والأدب : ١١٧

- المجامع العلمية .
- حول الاصطلاحات اللغوية .
- طبقة النقاد ودرجتهم في الأدب .
- الخنساء (بحث تحليلي عن حياتها وشعرها) .

- نتاج العرب العلمي والأدبي بالأندلس .
- نقد الشعر . ١٣٩
- القول الوافي في العروض والقوافي . ١٧٣
الفصل الخامس : قصائد ٢٣٤
- إلى روح النبي الكريم .
- فتاة الروملّي .
- في سبيل النهضة العربية .
- تحية البلاد العربية .
- عتاب في نسيب .

المقدمة

بدأت فكرة هذا الكتاب، انطلاقاً من اهتمامات شخصية وعائلية، وهي إن بدت محدودة وضيقة، لتعلقها بفكرة استعادة الأب أو الجد، فقد استمدت بعض المشروعية من الاهتمام بالتراث والأصول عموماً، بخاصة عندما يكون لأحد أفراد هذه الأصول دور ما، تعدى حدود الحياة اليومية والمجتمع المحلي، وشارك إلى هذا الحد أو ذاك في حياة الوطن والأمة، في مرحلة انتقالية وعاصفة من مراحل تاريخها القريب، كما حدث بالنسبة للشيخ (محمد سعيد زهور عدي) الذي سيقدمه هذا لكتاب.

لم تكن الفكرة في البداية، تتعدى حدود جمع المذكرات والنصوص، والبحث عنها بين أوراق الأقارب والأصدقاء، أو في المكتبات الوطنية المتوفرة. كان الوفاء، وشيء من التقدير، ورغبة في التأصيل، وقيم من هذا القبيل وأمثالها تدفع للبحث. لكن مطالعة النصوص نفسها خلال عملية البحث والتحقيق، فتحت الآفاق شيئاً فشيئاً أمام مسائل أخرى أكبر. ذلك أنها تبددت عن أطروحات ومفاهيم وسيرورة وعي تقاطعت مع سياق آخر، هو سياق المراجعة الشاملة التي يطرحها الفكر العربي على نفسه، وبصدد وعيه منذ عصر النهضة. بخاصة عند العثور على نصوص لـ (الشيخ) لم تكن معروفة لنا، نظراً لضياعها وعدم توثيقها سابقاً، ضمن ما مر عليها وعلى غيرها من عاديات الزمن وبلاويه.

من هنا، تبدو لنا هذه الاستعادة مشروعة، بل ضرورية في سياق المراجعة الشاملة التي نعيشها. فمن الواضح، أن نهاية القرن العشرين لم تحمل معها نهاية للمعسكرات الدولية والإقليمية المعروفة فحسب، بل حملت معها أيضاً نهاية العديد من الإيديولوجيات والمشاريع. وبالنسبة لنا نحن العرب على الأقل، كان ذلك القرن قرن صعود الفكرة العربية في المشروع

القومي النهضوي وانكسارها، كما هو معروف. حيث شهدت بداياته انـــهيار الامبراطورية العثمانية، وانبعاث المشروع العربي ومشاريع الدول ــ الأمـم، في سياق الدمج الرأسمالي الغربي للعالم. وما أشبه اليوم بالبارحة، إذ تشـــهد بدايات هذا القرن الجديد تصدع النظام الدولي القديم، وتقادم النظام العربـــي والدولة القطرية، مع ما يرافق ذلك من انبعاث توازنات ومشاريع جديدة، فـي سياق العولمة التي تجتاح الأمم والشعوب، فلا تبقي ساكناً ولا تذر!

هكذا تبدو لنا حاجات المراجعة وإعادة التأسيس ضرورية أيضـــاً، مـــن أجل استرداد مشروع النهضة العربية، الذي ما زالـــت أســـئلته مطروحـــة، وبحاجة إلى تفحص وحوار من جديد. بدءاً من التساؤل حول أسباب تأخرنـــا وتقدم الآخرين، إلى التساؤل حول كيفيات التقدم ونماذجه، مروراً بما ســـار عليه الأولون، ومقارنة بما سار عليه الآخرون. بكل ذلك وغيره، فمـــا هـــو المدخل الصحيح؟ وكيف يمكن مواجهة المســـتقبل، بخاصـــة بعـــد تراجـــع المشاريع الكبرى، الليبراليـــة والقوميـــة والاشـــتراكية والإســـلامية، مـــع إيديولوجياتها التي أهملت الفرد ــ المواطن والمجتمع المدني، وإثـــر تراكـــم التحديات المركبة داخلياً وخارجياً ؟

لقد حاول الفكر العربي هذه المراجعة، واستعاد كبار ممثلي فكر عصـــر النهضة، كما درس حلقاتها في القاهرة ودمشق وبـــيروت وحلـــب وتونـــس وغيرها من المراكز الإدارية الكبرى للعالم العربي في العهد العثماني. لكنـــه توقف عند تلك الحلقات الأساسية وأفكـــار مرجعياتـــها مـــن أهـــل النخبـــة وأصحاب الثقافة العالمة. ولم يلتفت، إلا فيما ندر، إلـــى حلقاتـــها الأخـــرى الأصغر والمتاخمة أو الهامشية بخاصة في خطابها الشفاهي، ومن ثـــم إلـــى وعي الأغلبية المفترض فيها أن تشكل الحامل الاجتماعي لأفكـــار النهضـــة ومشروعها؛ الذي يجمع كثير من الدارسين على فقدانه أوضعفه، وبالتـــأكيد على عزلته عن مجتمع النخبة !

وأزعم أن(الشيخ) الذي أقدمه في هذا الكتاب، يمثل بشكل ما إحدى تعيينات تلك الحلقات، كما أزعم أنه كان نموذجاً معيناً من نخبة، أطلّت على التخوم، فشكّل جسراً بينها وبين الناس، كما سيظهر من سيرته وسجالاته. تلك سمته الأولى، أما سماته التي دفعتني لتظهير صورته المغيّبة كرائد نهضوي، فأبرزها وضوح خطاب العروبة لديه، والذي تجلّى في نصوصه المبكرة، كمشروع نهضوي للأمة، تكاملت فيه رسائل التحديث والعلم مع رسائل إحياء التراث وحماية اللغة العربية وتجديدها، بما يشمله ذلك من تأصيل للشعر ـ ديوان العرب، وتطوير لذائقته الجمالية. في حين أن باقي السمات، ربما رأيت أنها تكمن في وضعيته المشخصة اجتماعياً وأصوات حواره الذاتي؛ التي مثلت حالة متقف حاول العبور من التقليد إلى الحداثة، ومن وعي سلفي عثماني إلى وعي عروبي، فعاش شقاء ذلك العبور وفصامه في واقع ماضوي، وما زال ! كل ذلك يطرح من المسائل ما يحتاج لمزيد من البحث والدراسة.

من هنا، جاء هذا الكتاب أخيراً، خطوة على هذا الطريق، إن بدأت بالاستعادة، فلن تستكمل إلا بمراجعة ذلك الوعي وما يوازيه مستقبلاً. لذا فقد حرصت على أن أعرض في الباب الثاني منه، النصوص الموثّقة التي تمكّنت من جمعها، كي تفصح عن تحديدات الوعي المشار إليه. وقد ارتأيت في هذا المجال ترتيب النصوص، حسب توزعها على محاور (النهضة، السياسة والمجتمع، التربية، الأدب واللغة، القصائد) مع المحافظة على التسلسل الزمني ضمن كل محور. وفي ظني أن هذا الترتيب المصطنع من قبلي، لا يمنع إمكانية التعامل الحر و الموضوعي مع النصوص، إن لم يُسهّله. علماً بأنني لم أتدخل هنا إلا من زاوية ما تفترضه منهجية التحقيق، سواء في العرض الواضح للنصوص، أم في توثيقها، وقد ميّزت ذلك التدخل في الهوامش بحرف (ب). ولا يفوتني، في هذا المجال، أن أقدم شكري لكل

من ساعدني في مرحلة البحث الميداني، بخاصة من قبل أفراد العائلة الكريمة، ولجميع العاملين بصمت وإخلاص في المركزين الثقافيين بحمص وحماه وفي دار الكتب الوطنية بحلب، على الرغم من الظروف المحبطة التي يعملون فيها، وأيضاً لموظفات قسم الميكروفيلم في مكتبة الأسد بدمشق اللواتي تحمّلن بصبر وأناة عناء إلحاحي ومتابعتي..

أما في الباب الأول من هذا الكتاب، فقد رأيت أنه لا بد لي من إضاءة فضاء المجتمع والعصر اللذين نشأ فيهما (الشيخ) وتفاعل معهما، وذلك في مدينة حماه خصوصاً وسورية عموماً في أواخر العهد العثماني، وبالضبط لما اصطلح على تسميته بمرحلة اليقظة القومية، كمرحلة من مراحل المشروع القومي النهضوي.. ثم تابعت سيرة حياته، مركزاً على المفاصل الأساسية، التي تفصح عن ارتباط بالشأن العام من جهة، كما تفصح من جهة أخرى عن سيرورة وعي، تشكّلت عبرها، وفي النهاية، صورته كمثقف نهضوي وعروبي بامتياز. في هذا المجال أيضاً، فإنني أشكر كل من ساهم حواره معي في إغناء مسائل هذا الباب أو تدقيقها، سواء أكان بين أفراد العائلة الكريمة أو بين الأصدقاء والأساتذة، الذين أخص بالذكر منهم د. طيب تيزيني، ومحمد جمال باروت الذي استفدت من مساعدته الميدانية، ومن حوار سابق معه حول الفترة التاريخية المدروسة. موضحاً،إنني أتحمل وحدي مسؤولية وجهات النظر والأخطاء الممكنة، وراجياً أن يكون لي أحد أجري المجتهد.

أخيراً، لا بد لي من تسجيل شكر خاص لمساعدة د. سحبان زهور عدي الصديق والقريب الحميم؛ الذي لولا اهتمامه ودعمه، ما كان لهذا الكتاب أن يرى النور.

نجاتي

حمص، أيار ٢٠٠٠

الباب الأول : إشـــارات

الفصل الأول

حماه و(سورية) في أواخر العهد العثماني

المجتمع والتاريخ :

حماه مدينة من أقدم مدن بلاد الشام، يعود تاريخ ظهور أوائل تجمعاتها السكانية إلى حوالي الألف الخامس قبل الميلاد[1] وحملت اسم مدينة (أبي الفداء) تيمناً بملكها المؤرخ الشهير(ت ٧٣٢هـ)، الذي يقبع ضريحه في جامع (الحيّات).

وهي تقع في وسط سورية، كما ترتفع عن سطح البحر ٢٧٠ متراً. ويلتفّ نهر العاصي حولها من الجنوب الشرقي، ثم يتهادى داخلها غرباً وشمالاً حتى يغادرها، في الوادي المعروف باسمه، فتلتم حوله حدائقها وبساتينها ونواعيرها الشهيرة. حيث تنشأ بينه وبين المكان علاقة، طالما ساهمت في تشكيل وجدان أبناء المدينة وذاكرتهم عبر التاريخ.

وإذا كانت سورية قد ظهرت كولاية لأول مرة في نظام الولايات العثمانية الجديد عام ١٨٦٤، فإن حماه لم تشكل أحد ألويتها حتى عام ١٨٧١[2]؛ الذي صدر فيه نظام إدارة الولايات العمومية في سياق حركة الإصلاح العثمانية. قسمت ولاية سورية بموجبه إلى أربعة ألوية (سناجق) هي: دمشق أو الشام، حماه، حوران، الكرك أو معان.

حسب ذلك التقسيم، شمل لواء حماه المنطقة الشمالية من الولاية، وحدث فيه أكثر من تغييرإداري حتى عام ١٩١٤، وكان يضم أربعة أقضية هي : حماه (التي بلغ عدد سكانها عام ١٨٨٢ حوالي الثلاثين ألف نسمة)[3]، وحمص، والسلمية، والحميدية (مصياف)، وحمل حاكم اللواء لقب المتصرف من الصف الثاني.

أما سورية فبلغ عدد سكانها حوالي الثلاثة ملايين نسمة قبيل الحرب العالمية الأولى[٤]، وشملت ما سيطلق عليه في الدراسات التاريخية اللاحقة اسم سورية الكبرى، كما شكّل العرب معظم سكانها، إلى جانب أقليات صغيرة، تكلمت السريانية أو لغة الجوار التركي على الحدود الشرقية.

وعلى الرغم من وجود ما لا يقلّ عن عشرين طائفة، تفرّعت غالبيتها العظمى عن الديانتين الإسلامية والمسيحية، فقد كان توفر أغلبية إسلامية واضحة دوماً، في سورية الداخلية، عاملاً حاسماً في منع تفاقم بعض المشكلات السياسية والاجتماعية التي غذّتها الاختلافات الدينية، وعملت الرعاية الأجنبية ونظم الامتيازات الطائفية على تأجيجها، بخاصة في جبل لبنان.

من جهة أخرى، كانت العوامل الطبيعية والاقتصادية سبباً في ضعف التجانس السكاني، حيث شكّل البدو غالبية سكان بادية الداخل القريب من الجزيرة العربية، في حين استقر الفلاحون في الجبال والسهول بطبيعة الحال. فقامت بين الجانبين صلات قوية، لم تمنع غزوات البدو المستمرة على المناطق الفلاحية، بخاصة في فترات الشح والجفاف.

ولما كانت سورية بلداً زراعياً في الأساس، تعتمد في ثلاثة أرباع صادراتها على منتجاتها الخام، فقد اشتغل ٦٢% من سكانها بالزراعة[٥]؛ التي تنوعت حسب تنوع المناخ واختلافات أساليب الزراعة والملكية. لكن ثقل الضرائب، وفساد أنظمة ملكية الأراضي، مع بقاء الأساليب الزراعية البدائية، أدّت جميعها إلى تدهور الاقتصاد الزراعي، في ظل منافسة الاقتصاديات الأجنبية التي اجتاحت الإمبراطورية في تلك الفترة.

وبينما تأخر دخول الصناعة الحديثة إلى سورية، بقي ١٠ــ ١٥ % من سكانها يشتغلون بالحرف اليدوية [٦]، التي كانت تتم في المنازل، أو في ورش الحوانيت الصغيرة. وشكّلت صناعة النسيج أهم صناعاتها التقليدية،

بينما تفرّد الحرير وحده باعتماده على نظام المصنع. وكان من الطبيعي أن تتدهور الصناعة السورية هي الأخرى، في الفترة نفسها، طالما خضعت لضغوط المنافسة الأجنبية، ولم تتوفر لها الحماية الجمركية اللازمة.

أما التجارة، فقد كانت دوماً العماد الثاني لاقتصاد سورية، بسب موقعها الاستراتيجي على طرق التجارة الدولية، ومنها طريق الحرير الشهير. لكنها اعتمدت على الحيوانات؛ التي بقيت وسيلة المواصلات الوحيدة حتى أواخر القرن التاسع عشر، حيث شاع استخدام المركبات ذات العجلات، ثم بدأ شق الطرق ومد السكك الحديدية من قبل شركات فرنسية لمعظمها (دمشق ـ مزيريب ١٨٩٠، بيروت ـ دمشق ١٨٩١، رياق ـ حماه ١٩٠٣، حماه ـ حلب ١٩٠٦، طرابلس ـ حمص ١٩١١) وألمانية لاثنتين منها (خط حلب ـ بغداد وخط دمشق ـ الحجاز ١٩٠٧) بخلاف السيارات؛ التي لم تستخدم إلا مع نشوب الحرب، حيث شقت الطرقات من أجل متطلباتها العسكرية، أو تم إصلاح القديم منها. في حين لم تكن وسائل الاتصالات البريدية أو البرقية كثيرة هي الأخرى ولا صالحة[٧]. وإذا كانت دمشق قد أنيرت شوارعها الرئيسة بالكهرباء منذ عام ١٩٠٣، فإن ذلك لم يبدأ في حماه إلا مع عام ١٩٣٢[٨]، في حين أنها لم تستثمر شبكة مياه الشفة حتى عام ١٩٤٩[٩].

وبعد أن كانت حماه من أغنى مدن بلاد الشام بالمدارس في عهد الدولتين النورية والصلاحية، ثم إلى حد أقل في عهد المماليك، فقد تراجع التعليم وتدهور في العهد العثماني ذي الطبيعية العسكرية، وغلب على السكان طابع الجهل والأمية والتأخر في مجمل ميادين الثقافة والعلم، وانتشرت النزعات الصوفية بين رجال الدين، كما لجأ أغلب المشايخ إلى سلاح التكفير تجاه المجددين وحتى المتسائلين، وكانت المدارس قليلة وأساليب التعليم بدائية، عدا ما أنشأته البعثات التبشيرية المتنافسة[١٠]، ففي عام ١٨٨٥ بلغ عدد المدارس الابتدائية في لواء حماه بكامله (٢٢) مدرسة،

ضمّت (١٢٥٠) تلميذاً، ومدرسة رشدية واحدة ضمّت (٤٠) تلميذاً[١١]. وحتى أواخر القرن التاسع عشر، لم تعرف المدينة سوى بعض الكتاتيب وأربعة مدارس ابتدائية، إلى جانب المكتب الرشدي الملكي، ومكتبة صغيرة في جامع الشيخ ابراهيم الكيلاني[١٢]، فكان من نتائج ذلك تفشي الأميّة وقلة المتعلمين، لدرجة أنه " عُيّن في حماه في ذلك العهد مفتٍ أمي "[١٣].

ولم ينهض التعليم إلا مؤخراً مع النهوض العام لحركة الإصلاح العثمانية؛ التي كانت قد انطلقت إثر إعلان دستور١٨٧٦، ووضع أسس التعليم الابتدائي الرسمي على يد الإصلاحي العثماني الكبير(مدحت باشا)[١٤]. ففي عهد المتصرف المتنور ناظم بك، شُكّلت أول لجنة محلية للتعليم في حماه، أطلق عليها اسم (شعبة المعارف). من ثم عملت هذه اللجنة على متابعة مراحل التعليم بعد المدرسة الابتدائية، بتحويل المكتب الرشدي إلى المكتب الإعدادي (الاستعدادي) الملكي[١٥].

لكن التطور الكبير للتعليم والثقافة عموماً في حماه، كان على يد رواد حركة الإصلاح والنهضة، الذين ضمّتهم الحلقة الفكرية المنعقدة في الجامع النوري حول الشيخ محمد سعيد النعسان مفتي حماه لاحقاً (ت ١٩٦٧ ويقال إنه عاش حوالي ١١٥عاماً) وهذه الحلقة كانت على صلة قوية بحلقة دمشق النهضوية؛ التي أشرف عليها الشيخ طاهر الجزائري (١٨٥٢ــ ١٩٢٠)[١٦]. وقد قامت حلقة حماه بإنشاء جمعية أعمال البّر الإسلامية وافتتاح المدارس الأهلية والإشراف عليها، بدءاً بمدرستي (دار الشفاء) للذكور و(مكتب الإناث) ثم شمس المعارف وبرهان الترقي وترقي الوطن، إلى المدرسة العلمية وعنوان النجاح وأبي الفداء وغيرها. كما شهد التعليم قفزة كبيرة مع المدرسة التي ستستقر، وتتحول إلى مؤسسة تربوية متكاملة، حملت اسم مدرسة دار العلم والتربية؛ التي أصبحت لها لجنة متميزة من رجال الفكر والنهضة، سُميت بهيئة الأمناء.

أما عالم الصحافة والنشر، فقد تأخرت عنه حماه بالمقارنة مع المراكز الإدارية الكبرى لبلاد الشام، ولم تصلها من صحف ذلك الزمان إلا ما كانت تتناقله أيادي بعض المتعلمين القلائل من الموظفين وأصحاب النفوذ، في مرحلة كانت الحريات الصحفية قد تراجعت فيها، وخضعت لتقييدات شتى من قبل الإدارة العثمانية، بعد فترة قصيرة من إطلاقها، إثر إعلان دستور(١٨٧٦) وإصلاحات مدحت باشا. لكن ثورة رجال تركيا الفتاة، التي أدّت إلى إعلان دستور (١٩٠٨)، أعادت إطلاق تلك الحريات من جديد، وساهمت في ازدهارها، لدرجة أن نظارة المعارف في الآستانة، منحت في ذلك التاريخ امتيازات لـ (٣٧٠) مطبوعة ما بين يومية وأسبوعية وشهرية، صدر منها في مدينة حماه وحدها ست صحف هي[١٧]:

١. لسان الشرق : صدرت في ١٩ /١٠/ ١٩٠٩ للشيخ أحمد الصابوني.
٢. انخلي يا هلالة : صدرت في ١٩١٠/٧/٢٠ للشيخ عبد الرحمن المصري.
٣. المكنسة : صدرت في ١/٩/ ١٩١٠ لشمس الدين العلواني.
٤. السيف : صدرت في ٢/١/ ١٩١٠ لمحمد سالم الأمير ومجد البارودي.
٥. نهر العاصي : صدرت في ٧/٨/ ١٩١١ لصاحبها محمد جابر ومديرها عبد الرحمن المصري، ثم أصبح الشهيد محمد علي الأرمنازي مديرها في عام ١٩١٣، وكانت أرقى صحف حماه الأسبوعية، قبل أن تغلق، لتعاود الصدور عام ١٩١٨.

٦. حماه : صدرت في ١٣/٧/ ١٩١٧ لعبد الرحمن المصري.

ومجلتان صدرتا عام ١٩١٠ هما: الإخاء لجبران مسوح، والإنسانية للشيخ الشاعر حسن الرزق.

لكن هذا النشاط الصحفي المتسم بشروط ذلك الزمان، سرعان ما تراجع، بعد انقلاب الاتحاديين على دستورهم ذاته، وانطلاق استبدادهم التتريكي الجديد..

في النشاط الاقتصادي، اعتمدت حماه على الزراعة وتجارة مواردها من الحبوب والفواكه، كما أعطاها موقعها الخاص على سيف البادية السورية ميزة الوسيط الأول مع البدو الرحل ومنتجات رعيهم، لكن ذلك كان خاضعاً دوماً لرحمة السماء والمطر. لذا لم يلحظ نمو لثروة التجار في حماه. بينما ظهر بموازاتهم بعض الحرفيين، الذين تطور القليل منهم إلى ما يقارب الورش الصغيرة، فنشّطوا صناعات البياضات والمنسوجات التقليدية . أما حرف الحدادة والنجارة والحياكة والدباغة وغيرها فقد بقيت ضعيفة، في حين افتقدت المدينة إلى العناية بطرقها ونظافتها وتفقد شؤون الباعة. ولما كان الحر يشتد فيها صيفاً، فقد كانت أمراض العيون تشتد أحياناً بصورة مدهشة، نظراً لكثرة الغبار وفقدان العناية الصحية [١٨].

وعلى الرغم من تسلل بعض مظاهر الحداثة، فقد عاش سكان حماه كغيرهم من سكان مدن بلاد الشام، حياة الأسر الكبيرة الممتدة؛ التي قامت على هرمية أبوية وتغييب لدور المرأة[١٩]. واستقر بين أحياء المدينة تنظيم مجتمعي ضمني، استقل إلى حد كبير عن مجتمع السلطة السياسي؛ الذي بقي غريباً مع ممثليه من رجال الإدارة والأمن. فكفل ذلك التنظيم الضمني والمحدود تضامناً تقليدياً، لعب فيه شيخ الحارة وإمام الجامع مع الوجهاء والقبضايات مختلف الوظائف الإدارية والقضائية وحتى التنفيذية، سواء فيما يختص بشؤون الحي، أو بعلاقاته مع الأحياء الأخرى.، لكن ذلك التنظيم؛

الذي شكّل نوعاً ما من مجتمع أهلي متكافل، وامتدّت تعبيراته حتى الرموز والبيارق والأعلام المميّزة لكل حي، أدّى في كثير من الأحيان إلى إعادة إنتاج التذرّر والانقسام، بحكم تقليديته وطبيعته العشائرية . بحيث تظاهر ذلك، في أحيان عديدة، بأشكال من الصراعات والمعارك (الكُوَن)[٢٠]، لم تكن السلطات المحلية بعيدة عن إشعال نيرانها، والاستفادة منها مع حاشية ضيقة من المتنفذين والوجهاء.

كان من الطبيعي في ظل ذلك النظام السائد، أن يستولي المستفيدون من تلك الحاشية على مجمل خيرات الإنتاج الاقتصادي ووسائله، بخاصة ملكية الأراضي الزراعية. حيث بلغت ملكية عائلات إقطاعية محدودة ما نسبته ٨٠% من قرى ريف حماه ؛ البالغ عددها ١٢١ قرية [٢١]. وما تبقى بيد بعض الفلاحين وأبناء الطبقة المتوسطة.

كما امتد نفوذ العائلات الإقطاعية إلى المجال الديني أيضاً، فتوارثت الأسرة الكيلانية منصب نقابة الأشراف من جيل إلى آخر. لكن تولي منصب الإفتاء كان يتم تقليدياً عن طريق الانتخاب في حماه، بعكس غيرها من المدن، وقد لوحظ أن مخالفة ذلك التقليد أدّت إلى تنشيط احتجاجات ومعارضة، بتأثير من أفكار حركة اليقظة العربية [٢٢].

إصلاحات التنظيمات

بقيت مدينة حماه كغيرها من حواضر بلاد الشام متسمة بطابع قروسطي، على الرغم من تميّز تمتعت به المراكز الإدارية الكبرى لبلاد الشام كحلب ودمشق؛ التي تربّع فيها الباشوات والبكوات والأتراك وأعداد من الموظفين ورجال الحاميات[٢٣]، بخاصة الأولى كمركز للتجارة الدولية والثانية كمركز لتنظيم الحج.

فقد أعاق النظام الإقطاعي العثماني تطور المدن العربية، وحدّ من منافسة تجارها المحليين للأجانب، عندما استجابت إصلاحات (التنظيمات الخيرية) لمتطلبات السوق الرأسمالية العالمية وآليات امتدادها، فمنحت مختلف الامتيازات للشركات الأوروبية عابرة القارات، ولوكلائها من رجال الأقليات المشرقية. وأضيف ذلك إلى النهب التقليدي الذي مارسته العاصمة الإمبراطورية على الأطراف والهوامش، ليسهم في مزيد من الانحطاط الاقتصادي الذي تراكم في المشرق العربي، إثر انعزاله وتحول طرق التجارة العالمية عنه، بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح.

لقد مثّلت (التنظيمات) الاستجابة الشاملة التي تكيّفت بواسطتها الأوضاع العثمانية مع تحديات الرأسمالية الأوروبية المتعاظمة، وضغوطها المتعددة الأشكال. كان آخر تلك الضغوط تراكم ديون الإمبراطورية التي أوصلتها إلى إعلان الإفلاس عام ١٨٨١، وتشكيل ما يشبه هيئة احتلال؛ أخذت اسم (مجلس إدارة الدين العثماني) لكن أقدمها بدأ مع تأثير المعاهدات الجمركية القسرية، ونتائج الحرب مع مصر وحرب القرم..

وإذ ضمنت قوانين التنظيمات من خط كلخانة شريف ١٨٣٩ إلى خط همايون ١٨٥٦ حرية رأس المال الأجنبي، ومنحته جميع الامتيازات التي سهّلت عملية دمج السوق العثمانية ضمن السوق الرأسمالية العالمية الجديدة ومتطلباتها في إعادة تقسيم العمل الدولي من جهة، فقد دشّنت هذه القوانين من جهة أخرى عهد الإصلاحات البرجوازية العثمانية، ودفعت إلى تحديث النظم الإدارية والقانونية والمالية والعسكرية والتربوية.

وكانت هذه العملية قد لاحت بوادرها متثاقلة، منذ بدايات القرن الثامن عشر، بتأثير حركة التثاقف مع أوروبا، فتمثّلت بإصلاح الجيش وافتتاح المدارس وإدخال المطبعة ونشاط الترجمة، وشهدت فوراناً فكرياً غذّته الثورة الفرنسية ودفعته الثورة اليونانية، كما برزت في إطاره نخبة متأوربة

من الضباط والدبلوماسيين والمترجمين[٢٤]. لكنها أصبحت أخيراً بمثابة "عملية تمدين قسرية، برجزت السلطنة من فوق، وأرغمتها بأسلوب الجر والإجبار.. والإكراه..والإلزام"[٢٥] فأخذت (التنظيمات) الشكل الدستوري لانخراط السلطنة في السوق الرأسمالية؛ التي كانت الرأسمالية الأوروبية قد أوجدتها، منذ مطلع القرن التاسع عشر. لدرجة أن المؤرخ (لوتسكي)، لم ير في السلطان العثماني الذي وقّع مراسيم (التنظيمات) أكثر من مصلح رغم أنفه [٢٦].

ونظراً لظروف ولادة عملية التحديث تلك، فقد حملت حركة الإصلاح العثمانية خصائص تلك الولادة التابعة، حيث أنها كثيراً ما أدت إلى تقلب السلاطين في مسائل الإصلاح وصراعاتهم مع رجالها، وانتهت أخيراً إلى انفجار تناقضاتها الداخلية. ذلك عندما تحول الحلف القائم بين أطرافها المختلفة ضد الاستبداد الحميدي إلى صراع مفتوح بعد الخلاص منه، وفي ظروف احتدام الضغوط الخارجية، كان من المحتم تراجع دعاة اللامركزية والمساواة بين الأمم العثمانية، أمام صعود دعاة المركزية والتعصب الطوراني؛ الذين تكتّلوا في صفوف الاتحاديين وتحت قيادة الأتاتوركية أخيراً!

وعلى الرغم من ذلك المخاض الشاق، فقد شكّلت حركة الإصلاح العثماني، بمجملها، إيديولوجيا البرجوازية الوطنية، التي قادت تحولات نهاية الامبراطورية العثمانية، وفتحت الأبواب أمام يقظة جميع أممها، بما فيها الأمة العربية.

مرحلة اليقظة العربية

دخل العالم العربي هذه المرحلة في أواخر القرن التاسع عشر، بعد طول تخثر عاشه منذ أواخر العهد المملوكي، وبعد أن غفا في إطار وحدة

الامبراطورية العثمانية، حيث جمعت المظلة الدينية بين العرب والترك كمسلمين منذ القرن السادس عشر، على الرغم من أنها لم تحجب إحساس العرب الجنيني بالفروق والتمايز عن الأتراك، الذي قام على عوامل اللغة والثقافة والعرق[٢٧]. وفي الواقع، كان هذا العالم العربي قد بدأ بالتململ، واهتزت وحدته مع تباشير عمليات المثاقفة التي رافقت بدايات المد الرأسمالي الأوروبي. ثم بدأ اليقظة مع صدمة نابليون، ومضاعفات إصلاحات محمد علي في مصر وابنه ابراهيم باشا في بلاد الشام، اللتين نشأت إثرهما شبكات اتصال ثقافي واسعة، عبر نشاط المبشرين ووفود المبعوثين والمستقدمين، بالإضافة لانتشار الصحافة والكتب وحركة الترجمة.

مع نشاط هذه الشبكة وقنواتها المتعددة، كان لا بد لعملية المثاقفة مع الغرب من أن تؤدي إلى انتشار مفهوم الأمة الأوروبية الحديث، الذي تبلور حول مثال (الدولة ــ الأمة) الناتج عن الصراعات الأوروبية وتوازناتها، والمفروض على هيكلية النظام الدولي وعلاقاته منذ أوائل عصر النهضة الأوروبية.

وبالفعل، فقد سارت حركة القوميات في العالم العثماني عموماً على هدي ذلك المثال، بعد تراجع مثال الدولة ــ متعددة القوميات، في الإمبراطوريتين النمساوية ــ المجرية والعثمانية. وكان من الطبيعي لحركة اليقظة العربية أن تبدأ بالنشاط الإحيائي للغة والتراث العربيين، على غرار ما نهجته قبلها حركات اليقظة القومية لأمم البلقان. لكنها على العكس من تلك الحركات، لم تكتسب وعيها بالاستقلال والانفصال، إلا في سياق المواجهة مع سياسة التتريك. بعد أن تأخرت طويلاً من جهة أولى، بتأثير المقاومة الواضحة لفكرة الجامعة الإسلامية، التي كان لتيار الأفغاني ــ عبده أكبر الدور في صعودها. ومن جهة ثانية، بتأثير فكرة الجامعة العثمانية؛ التي حاولت

إصلاح الامبراطورية، وإعادة بنائها على أساس اللامركزية وتعدد القوميات.

مثّلت مرحلة (اليقظة) تلك مرحلة التكون الجنيني في الحركة القومية العربية، فانطلقت من التراكم الطويل الذي ساهمت فيه أفكار الإصلاح والنهضة، لتأخذ في البداية شكلاً جمعياتياً ثقافياً[٢٨]، تركّز ظهوره في منطقة المشرق العربي؛ التي تميّزت باجتماعها المركب والفسيفسائي، في حين انشغلت باقي البلدان العربية بنضالاتها الوطنية الخاصة ضد كل من أشكال الاستعمار الطامعة بها. وحيث تماهت العروبة مع الإسلام في المغرب العربي، فإن المضمون القومي في المشرق كان متسماً بقدر واضح من طابع علماني فوق ديني للأمة، مفصحاً بذلك عن أسباب انتشاره أساساً في صفوف النخبة الجديدة؛ التي برز روادها الأوائل بين الأقليات المسيحية، وانطلق من أحد أنشطة جمعياتها أول صوت للقومية العربية، عبر قصيدة الشيخ ابراهيم اليازجي التي اشتهرت بمطلعها " تنبهوا واستفيقوا أيها العرب، فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب " وتحولت إلى ما يشبه النشيد القومي العربي[٢٩].

لقد استهدف نشاط الجمعيات في هذه المرحلة إحياء التراث الثقافي القومي العربي، ونشر اللغة العربية، وافتتاح المدارس وتطوير التعليم، وإدخال أفكار الإصلاح والتنوير في مجمل جوانب الحياة والمجتمع. وإذا كان تاريخ تلك الجمعيات قد حدّد التاريخ الواقعي لحركة اليقظة العربية، فإن أسماءها بحد ذاتها شكّلت مفاتيح دالة على بنية الجهاز المفاهيمي لوعي تلك المرحلة، ذلك الوعي الجنيني الواعد بالحركة القومية القادمة؛ الذي أشارت إليه عناوين : اليقظة، النهضة، الإحياء، العلوم، الآداب، الشرق وغيرها. أما مضاعفات ذلك الوعي وانتشاره المتركز بين أوساط المثقفين من الموظفين والضباط والتجار والملاك، فلم تكن إلا إشارة إلى دور ومهام

تلك النخبة وصعودها في سياق مرحلة تاريخية عاصفة، بدأت مع عمليات الدمج والاستتباع؛ التي كانت تجتاح الرجل المريض[٣٠].

في رحم هذا النشاط الإحيائي، بدأت أولى بوادر النشاط السياسي، لكن تعبيراته بقيت محدودة وسرية في ظل الاستبداد الحميدي، ولم تبرز إلى العلن حتى ثورة ١٩٠٨؛ التي عملت على استعادة الدستور ومتابعة الإصلاح الليبرالي المتوقف. فأتيحت الفرص لنشاط اجتماعي وسياسي واسعين بين المثقفين والزعماء العرب، ظهرت خلاله هيئات وجمعيات عديدة [٣١]، عملت على استثمار رابطتي الإسلام والعثمنة. وطالبت جميعها بإصلاحات واسعة، تمحورت حول تطبيق سياسات لامركزية ضمن الولايات العربية، وفي إطار دولة ثنائية القومية. لكن اختيار رجال (الاتحاد والترقي) القومية التركية كسياسة مواجهة ضد المشاريع الاستعمارية الغربية، وبديلاً عن جامعة إسلامية أو عثمانية طال التردد بينهما، مما دفع النخبة العربية إلى خيار الفكرة العروبية أخيراً، بخاصة بعد إعدامات الشهداء الشهيرة، التي ذهب ضحيتها نخبة من الشبان العرب من مختلف الطوائف، كان مؤملاً فيهم أن يلعبوا دوراً ناشطاً وصاحياً في تطوير الحركة القومية العربية.

في المحصلة، وجد الغرب في المواجهة العربية ـ التركية فرصة أخرى، تابع من خلالها مشروعه لاقتسام تركة الرجل المريض، واستكمل شروط دمجه للعالم العربي، إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى، فتقاسمت أنظمة الانتداب الفرنسي والبريطاني المشرق العربي، وفتحت الآفاق مشرعة أمام نظم وإيديولوجيات قطرية، ومشروع صهيوني قادم.

على صخرة الوقائع الجديدة والعنيدة، تكسّر حلم العروبة الوليد، كاشفاً هشاشة إيديولوجيا تحرر قومي، سرعان ما أحالت مرجعيتها إلى مقدسات الماضي التليد، ورأت في الوعود بديلاً عن المصالح الدولية. لكنها لم تعبّر،

في الواقع، إلا عن مسيرة صعود النخبة العربيـــة الجديـدة إلـى عـروش عبوديتها القطرية المحتلة[٣٢].

عبر هذا الأتون المحتدم، كان من الطبيعي أن يطغـــى الـهم السياســي المباشر على خطاب حركة اليقظة العربية، وأن يؤدي بحث الأمة عن ذاتـها وتعبيرها المستقل والموحد، إلى دفع فكرة العروبة في خضـم الإيديولوجيـا القومية وبطلها الميثيولوجي المنقذ، سواء تجلى في المستبد العـادل أو فـي الحزب الطليعي!. الأمر الذي لم يسمح لكثير من هموم الاجتماع والاقتصـاد والتربية بالظهور، فضلاً عن تراجـع الـهمّ النـهضوي، وغيـاب ثقافـة الديمقراطية وحقوق الإنسان والمجتمع المدني. وسيبقى هذا الطابع طاغياً بعد حركة الاستقلالات، طالما بقي الصراع مفتوحاً مع الغرب، وبخاصـة مـع بروز العدو القومي الجديد ــ إسرائيل.

هوامش الفصل الأول :

١- متري حاجي أثناسيو، سورية الوسطى، موسوعة بطريركية أنطاكية التاريخية ط١، المكتبة البولصية، بيروت ــ جونية ١٩٩٧، المجلد٣ القسم١ ص١٢٥.

٢- عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١، ص ٧٠.

٣- شاهين مكاريوس، نقلاًعن المصدر السابق ص٢٦٨.

٤- خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق، دار المعارف، القاهرة ١٩٧١ ص ٢١٢.

٥- المصدر السابق ص ٢١٤.

٦- نفس المصدر والصفحة.

٧- نفس المصدر ص ٢١٥.

٨- نشرة صادرة عن الحاسب الالكتروني، مديرية الدراسات والإنشاء، الشركة العامة لكهرباء حماه، حزيران ٢٠٠٠.

٩- عدنان البوشي، مشروع مياه الشرب، مجلة العمران، عدد خاص عن حماه، وزارة الإسكان، دمشق، ١٩٦٦، ص ١٩٤.

١٠- شوقي الكيلاني، تطور التعليم في حماه، مجلة العمران، مصدر سبق ذكره ص ١٦٦.

١١- عبد العزيز محمد عوض، مصدر سبق ذكره ص٢٦٠.

١٢- أحمد الصابوني، تاريخ حماه، المطبعة الأهلية، حماه ١٩٥٦ص ١٨٢.

١٣- عبد الرحمن خليل، من مقدمته للمصدر السابق ص١٣.

١٤- محمد كرد علي، المذكرات ج٢، دمشق ١٩٤٨ص٦٠٦.

١٥- عدنان قيطاز، دور المؤسسات الحموية في حركة النهضة خلال الربع الأول من القرن العشرين، مجلة البحث التاريخي العدد ٣، الجمعية التاريخية السورية، حمص ١٩٨٤ ص٤٧.

١٦- محمد سعيد الزعيم، ثورة حماه لسنة ١٩٢٥، مطبعة الضاد، حلب١٩٦٢، ص١٤. ويذكر عبد الرزاق الكيلاني، أن الشيخ طاهر الجزائري قد أقام في

حماه معظم السنوات الأربع؛ التي قضاها متوارياً عن أنظار السلطات التركية بعد عام ١٩٠٧. انظر مقدمته لكتاب أحمد قدري الكيلاني : الملك العالم أبو الفداء والملوك الأيوبيون في مملكة حماه، ط٢،المكتبة العربية، حماه،٢٠٠٠ ص٢٠و٢١.

١٧- قارن : أديب خضور، الصحافة السورية، دار البعث، دمشق ١٩٧٣ص ١٠٣ وجوزيف الياس، تطور الصحافة السورية في مائة عام ١٨٦٥ـ ١٩٦٥ط١ ج١، دار النضال بيروت ١٩٨٢ ص٢٦٥، و عدنان قيطاز، مصدر سبق ذكره ص ٤٣.

١٨- أحمد الصابوني، مصدر سبق ذكره، ص ١١٦.

١٩- حزامي زهور عدي، حماه هل هي مدينة بلا نساء؟ مجلة العمران، مصدر سبق ذكره ص ص ٢٠٠ـ٢١١.

٢٠- ربما كانت هذه التسمية ترجع إلى اعتبار جماعة الحي أنفسهم (كوناً) آخراً مختلفاً عن (أكوان) الأحياء الأخرى.

٢١- محمد كرد علي، نقلاً عن محمد مراد، العرب في السلطنة العثمانية، مجلة الاجتهاد، العدد ٤٤السنة ١١بيروت، خريف ١٩٩٩ ص.

٢٢- عدنان قيطاز، مصدر سبق ذكره ص ٤١.

٢٣- عبد الله حنا، حركات العامة الدمشقية في القرنين ١٨و١٩(نموذج لحياة العامة في ظل الإقطاعية الشرقية) ط١، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٨٥ص٢٣.

٢٤- ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ط٣، دار النهار، بيروت ١٩٧٧ص ٤٩.

٢٥- محمد جمال باروت، حركة التنوير العربية في القرن التاسع عشر(حلقة حلب) وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٤ص ٩.

٢٦- لوتسكي، نقلاً عن محمد جمال باروت، المصدر السبق ص١٠.

٢٧- البرت حوراني، مصدر سبق ذكره ص٣٠٠.

٢٨- انظر: محمد نجاتي طيارة، بدايات الحركة القومية العربية (المرحلة الجمعياتية) موسوعة الأحزاب والحركات والجماعات القومية العربية، تحرير محمد جمال باروت وفيصل دراج، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، دمشق، قيد الطبع لعام ٢٠٠٠.

٢٩- جورج انطونيوس، يقظة العرب، ت ناصر الدين ناصر وإحسان عباس، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٦ص ٦١.

٣٠- برهان غليون، بيان من أجل الديمقراطية، مؤسسة الأبحاث العربية، ط٤، بيروت ١٩٨٦ص٦١.

٣١- انظر حول ذلك النشاط السياسي : محمد نجاتي طيارة، مصدر سبق ذكره، وفي هذا الإطار كان الشهيد محمد علي الأرمنازي ممثلاً لحزب اللامركزية في حماه، كذلك كان انتساب الشهيد سعيد العاص إلى حزب العهد.

٣٢- برهان غليون، مصدر سبق ذكره ص ٦٠.

الفصل الثاني :

سيرة حياة وسيرورة وعي

في عام ١٨٨٧ على الأرجح، وُلد محمد سعيد زهور عدي في حماه، لأسرة كان معيلها من فئة الحرفيين والتجار الصغار، الذين كان نشاطهم الاقتصادي عصب حياة المدن والبلدات الصغرى من بلاد الشام. وقد تفرّعت أسرته عن واحدة من أكبر عائلات المدينة، التي يُظن أنها ترجع في أصولها البعيدة إلى سلالة قبيلة عدي الحجازية العريقة .

ولما كان ترتيب المولود الجديد سابعاً وأخيراً بين إخوته، إذ توفي والده قبيل ولادته، فقد سمي باسمه تيمناً، وحرصت والدته وأخوه الكبير على تعليمه ورعايته، استجابة لنزوع الوالد الراحل؛ الذي كان يقدّر العلماء والمتعلمين، ولا يبارح مجالسهم، في حين اشتهر دكانه ببيع الحاجيات الخاصة بالبدو، ولم يتمكن من تحقيق أمنيته في متابعة تعليم أيّ من أولاده، الذين اشتغلوا جميعاً بالحرف الشائعة محلياً. من هنا، اهتم أخوه الأكبر عبد القادر بالإشراف على تعليمه ونفقات دراسته، التي كانت مكلفة، وتتمتع بكثير من الميّزات في ذلك الحين.

تدرج الطفل في مراحل دراسته، من الكتّاب الذي تعلم فيه مبادئ القراءة والكتابة والحساب والدين على يد (الشيخ عبد القادر اللبابيدي)، إلى المدرسة الابتدائية التي تلقى فيها على مدار سنوات ست، أسس العلوم الدينية الفقهية واللغتين العربية والتركية مع الحساب ومبادئ الجغرافيا، وشيئاً من العلوم العصرية على يد شيوخ صارمين ومتمكّنين[1]، ثم تابع في مدرسة المكتب الإعدادي الملكي؛ التي أضافت إلى دراسته اللغتين الفارسية والفرنسية، مع توسع في دراسة الرياضيات وعلوم الطبيعة، إلى جانب الاجتماعيات

والمنطق والأخلاق وفقه الدين واللغة، ليتخرج أخيراً بتفوق وهو لما يناهز السابعة عشرة [٢] على الرغم من مشكلاته مع ضعف البصر؛ التي كانت تفاقمها مطالعاته الكثيفة في ظروف الإضاءة البدائية المعهودة.

لكن دراسته المعمّقة ستستمر مع التحاقه بدروس الحلقة الفكرية الأدبية، التي كانت تنعقد في جامع النوري بحماه، ويشرف عليها مفتي حماه المتنور (الشيخ محمد سعيد النعسان)، مع مجموعة من زملائه، كان من أبرزهم الشيوخ: توفيق الشيرازي الصباغ (١٨٧٥ ــ١٩٧٢)، وسعيد الجابي وخالد الزعيم ومصطفى الحداد وعبد القادر اللبابيدي. وسرعان ما يصبح عضواً دائماً فيها، مما سيمكنه من التبحر في التراث، بما يشمله من التاريخ وعلوم اللغة العربية وآدابها وعلوم الدين الإسلامي وفقهه، كما سيسمح له ذلك بالاطلاع على أفكار التيار الإصلاحي ودعاة اليقظة العربية، نظراً للصلات القوية التي كانت قائمة بين أعضاء تلك الحلقة الحموية، وبين أعضاء حلقة دمشق النهضوية، كما أسلفنا.

يمكن تلمّس الاتجاهات الفكرية التي كانت سائدة بين شباب تلك الحلقة، من خلال سيرة حياتهم اللاحقة، حيث سيظهر من بينهم معظم زعماء المدينة وقادة حركتها الوطنية. على رأسهم الشهيد محمدعلي الأرمنازي، والشيخ أحمد الصابوني، والصحفي أحمد سامي السراج، والشاعر حسن الرزق، والطبيب الشهيد صالح قنباز، والطبيب توفيق الشيشكلي، وغيرهم. .

يبدأ الشاب، في هذه الفترة، ممارسة مهنة التعليم؛ التي لن يغادرها إلا لماماً، فيعمل معلماً في حماه، وعندما يحين موعد استدعائه للخدمة العسكرية ذات الصيت السيء في الجيش العثماني، يجد الفرصة للتخلص منها كمتابع لدراسة الدين، في الذهاب إلى الآستانة والالتحاق بتكية (الشيخ أبي الهدى الوفائي الصيادي ١٨٢٩ ــ ١٩٠٩) المقرّب من السلطان، وصاحب النفوذ الواسع. وبحجة العمل على نسخ بعض مخطوطات صاحب التكية، يقيم فيها

حوالي الشهرين[٣]. ولا شك بأنه سيتأثر بأفكار الجامعة الإسلامية خلال هذه المرحلة، بخاصة مع تعزز علاقته بالشيخ (توفيق الشيرازي الصباغ)؛ الذي سيصبح والد زوجته الأولى ثم الثانية[٤]. الأمر الذي سينعكس على خياراته الفكرية اللاحقة مستقبلاً. لكنه سرعان ما يقفل عائداً، بعد أن يفلح بإقناع (الشيخ أبي الهدى)، كي يعمل ككاتب على مصاريف التكية الهدائية التي كان يبنيها في حماه.

يبدأ الشاب نتاجه الفكري والأدبي بنشر بعض المقالات والقصائد في صحف حماه، التي باشرت الصدور إثر إعلان دستور ١٩٠٨، وإطلاق الحريات العامة. وكان خطابه في هذه المرحلة ذا طابع سياسي ديني عموماً حيث استنجد بقيم الرسول ودعا إلى استعادة أمجاد دعوته، للرد على تردي أوضاع الدولة العثمانية؛ التي أغرى ضعفها الغرب بالاجتراء عليها في ليبيا. كما طالب بالتحشد وبذل الأموال والجهد، للرد على اعتداءات الصرب وحلفائهم الأوروبيين؛ الذين استغرب تناقض سياساتهم ووحشية ممارساتها مع قيم عصر النور[٥]. وقد ترافق هذا الخطاب السياسي المهيمن مع خطاب آخر تحديثي، تمثّل في دعوته المبكرة إلى تعليم المرأة وإشراكها في الحياة العامة [٦].

بمجرد انتشار المدارس الأهلية، يعود الشاب إلى ممارسة مهنة التعليم، حيث تنتخبه اللجنة المحلية للعمل معلماً في مدرسة يشي اسمها بأفكار الإصلاح ذاته، وهي مدرسة (ترقي الوطن الأهلية). فيتابع العمل في هذه المهنة، حوالي ثلاث سنوات، متنقلاً بين مدارس حماه وحمص، ويسمح له ذلك بالتعرف على نخبة رجال الفكر وزعماء الإصلاح الذين كان أبرزهم المفكر الشهيد (عبد الحميد الزهراوي). كما ستبرز، من جديد، في مساهماته الشعرية نداءات الاستنهاض. لكن اضطراب الأوضاع وتقلب سياسات الاتحاديين في هذه الفترة؛ التي انعكست سلبياً على الحريات العامة

وأولها حرية الصحافة، دفعته إلى السفر مرة أخرى إلى الآستانة، مركز النشاط الفكري والسياسي. لعلّه يجد في رحابها أجوبة عن الأسئلة التي كانت تؤرقه حول الرابطة الإسلامية والرابطة القومية، والتي طالما أدّت إلى تردده بينهما [٧]، بخاصة إثر انعقاد المؤتمر العربي الأول (باريس ١٩١٣) وما رافقه من مواقف وانحيازات .

هناك في الآستانة، كان صراع التيارات متفجراً على أشده، ونشاط الجمعيات العربية والعثمانية في أوجه، بينما لاحت في الأفق تباشير الحرب العالمية الأولى. فآثر الابتعاد والعزلة بعد اتهامه بالنزعة الملّية، مستجيباً لنفور قديم من الانتماء الحزبي[٨] . فقبل العمل مدرساً رسمياً في (بتليس) شمالي شرقي الأناضول، ثم في(أضنة). وعندما عايش أحداث الثورة الكردية في الأولى أوائل عام ١٩١٤، تأثر بها وكتب عنها، منبهاً إلى أخطار الصراعات بين الأمم العثمانية [٩]، وضرورة الوحدة في وجه الغروب المتربص.

في هذه الفترة الملتهبة، كان الصراع على أشده حول جسد (الرجل المريض)، وشهدت أطرافه البلقانية ثورات عديدة، بدعم وغطاء من التدخل الأوروبي، الذي أسفر عن اندلاع الحرب العالمية الأولى أخيراً. فلجأ حكام تركيا الجدد إلى الاحتماء بالقومية الطورانية، ونفّذوا سياسة التتريك القمعية تجاه جميع الأمم والشعوب التي كانت تشدها الرابطة العثمانية أو الإسلامية، مما أدى إلى انفجار تلك الرابطة وتمزقها أخيراً. وسينعكس ذلك بشكل حاسم على الشاب، بخاصة إثر مجزرة الإعدامات التي راحت ضحيتها ثلة رفيعة من النخبة العربية الشامية (شهداء آب ١٩١٥ وأيار ١٩١٦)؛ التي كان له في عدادها معارف وأصدقاء لا يتطرق الشك إلى نزاهتهم ووطنيتهم. فيختار الانتماء نهائياً إلى الفكرة العربية بمفهومها الشامي[١٠]. مستجيباً بذلك

إلى نزوع أصيل، وثقافة تراثية، وهوية طالما أحس بتمايزها، وسيبقى أميناً لذلك الانتماء حتى آخر أيام حياته.

عندما تنتهي الحرب العالمية الأولى، ويتمكن أخيراً من مغادرة (أضنة) والعودة إلى سورية؛ التي كان الجيش العربي قد دخلها محرراً مع جيش الحلفاء، يهرع لمقابلة الشريف ناصر ممثل الأمير فيصل في حلب، ويعوض عليه خبرته عن الوضع في منطقة (أضنة) وتوق أهلها العرب إلى البقاء ضمن حدود الدولة العربية المحررة، فيرسله لاستكمال الأمر مع الشريف زيد معاون الأمير فيصل في دمشق. وهناك يطّلع منه على أخبارلجنة (كينغ ــ كراين) الأميركية التي قرر مؤتمر الصلح (آذار ١٩١٩) إيفادها لاستطلاع رأي السكان في عموم المناطق المحررة، ويكلّفه الشريف بمهمة في هذا الصدد[١١].

هكذا، يغادر الشاب إلى حلب بانتظار اللجنة الموعودة، بعد أيام من معاودته العمل كمدرس في حماه. وعندما يبدأ بنشر بعض المقالات السياسية والقصائد الوطنية في جريدة حلب الرسمية[١٢]، يلفت الأنظار إليه، فيكلّفه الحاكم العسكري في حلب (أمير اللواء شكري الأيوبي) برئاسة تحرير تلك الجريدة خلفاً لـ(منير المدور)[١٣]، فيقوم بذلك، ويكتب معظم مقالاتها الافتتاحية طوال خمسة أشهر تقريباً، كما يلقي محاضرات يومية في الفترة نفسها. وتبرز في مقالاته المذكورة أهم سمات الخطاب العربي النهضوي ذي الأفق التحديثي، حيث تحضر في نصوصه أطروحات : قابلية العرب لأخذ العلم والمدنية من أوروبا، المقارنة مع تجربة اليابان في الترقي، ضرورة البعثات العلمية ومسؤولية المجتمع المدني عنها إلى جانب الدولة، أهمية التعليم وصناعته إلى جانب الأخلاق والدين[١٤]. بما يميّز ذلك الخطاب النهضوي من انتماء عروبي، يلح على وحدة الأمة واستقلالها، ودور الإرادة السياسية والجيش الوطني في الدفاع عنهما، فضلاً عن صوت مؤسسات

المجتمع ممثلة بالمؤتمر السوري العام من جهة، وبالصحافة من جهة أخرى[١٥].

وما إن تتوارد أخبار وصول اللجنة الأميركية إلى فلسطين، حتى يترك الجريدة، ويتابع مهمته في أضنه وكيليكيا، فينجح في أدائها وتجتمع كلمة أبناء العرب؛ الذين كانوا يشكلون أغلبية واضحة فيها، على المطالبة بالانضمام إلى سوريا. لكن عمل اللجنة كلها لا ينتهي إلى طائل كما هو معروف، عندما يضرب الحلفاء عرض الحائط بوعودهم العربية، فتتكسّر أحلام الدولة الوليدة على صخرة وقائع الاجتياح الفرنسي؛ الذي يتقاسم المشرق العربي مع حليفه البريطاني.

بذلك تكون المرحلة الأولى من حياة (محمد سعيد زهور عدي)، الذي أصبح يطلق عليه لقب (الشيخ) قد انتهت، وتبدأ المرحلة الثانية مع عودته إلى العمل في مهنته الأصلية معلماً في مدارس حماه، لكن نضاله سيستمر ويتجه ضد العدو الجديد (المستعمِر) من الآن فصاعداً. وما هي إلا سنوات حتى تعتقله سلطات الانتداب، وقد قارب الأربعين من عمره، بتهمة المشاركة مع نخبة من رجالات حماه في التحضير لثورتها عام ١٩٢٥؛ التي اندرجت في إطار الثورة السورية الكبرى. حيث سيبقى قيد الاعتقال وشروطه المعهودة مدة سبعين يوماً، ولن يخرج مع رفاقه في نهايتها إلا بعد تصاعد حركة الاحتجاجات محلياً وعالمياً[١٦]. ونتيجة لتجربة السجن، وتحقيقاتها، واستمرار رقابة سلطات الانتداب ومضايقاتها الدائمة، سيوقّع مقالاته اللاحقة بأسماء مستعارة حتى أواخر عام ١٩٢٧، سواءً كانت في الأدب أم في السياسة، والتي سينشر معظمها في جريدة المقتبس الدمشقية[١٧].

في هذه المرحلة يتكرّس الخطاب العروبي للشيخ، ويأخذ طابعا سجالياً واضحاً. فهو يهنئ مصر بإرادتها السياسية الموحدة مع سعد زغلول وحزبه،

مطالباً سورية بموقف مماثل مع حزبها الوطني، ويدافع عن القومية ضد الطائفية المتبدية في لبنان، كما يعترض على تجزئة وحدة الشعب في سورية، منبهاً إلى أخطار إسكان أقليات جديدة فيها، ومنافحاً عن الوحدة العربية والإسلامية في كل مكان من الوطن العربي وجواره [١٨]. مع انشغال خاص بالدفاع عن اللغة العربية وبمعالجة مشكلات التربية [١٩].

في المرحلة اللاحقة، يخفت الطابع السجالي في فكر الشيخ؛ الذي ينصرف جله إلى العمل التربوي والنشاط الأدبي والفكري، ويبذل جهوداً متميزة فيهما حيث يفصح من جهة عن محاولة علمية لتأصيل بعد أساسي في ثقافته التراثية القومية؛ التي طالما قامت على اعتبار الشعر ديوان العرب وذلك في بحثه المرجعي المبكر عن العروض والقوافي[٢٠]. كما يفصح من جهة أخرى عن محاولة تأسيس ذائقة جمالية أخرى للشعر، استندت إلى مراجعة أصول نقده في التراث الأدبي العربي، وآراء أهم النقاد الفرنسيين لأدب عصر النهضة [٢١]. مما جعل منه مرجعية مشهوداً لها في مدينته [٢٢]، وأكمل تخطيط صورته كرائد نهضوي عروبي. لكن إدارة الإنتداب لم تعد تتحمل نشاطه وبروز دوره المحلي، بما يحمله دوماً من أطياف سياسية، فعمدت إلى إحالته على التقاعد عام ١٩٣٤، قبل بلوغه السن القانونية بثلاث عشرة سنة[٢٣].

وعلى الرغم من هذا الإبعاد، ومن فقدانه البصر بعد فترة لاحقة، بسبب إجهاد مطالعاته المستمرة، فقد تابع العمل مدرساً في دار العلوم الشرعية وجامع الشيخ ابراهيم؛ الذي كان أميناً لمكتبته أيضاً[٢٤]، وذلك حتى بلوغه سن الثمانين. حيث سيترك كل عمل، ويعتزل العالم الخارجي نهائياً في المنزل، عقب هزيمة١٩٦٧ واستقالة بطله القومي (جمال عبد الناصر). فيبني حوله سياجاً حالماً من الخطاب القومي والتراثي[٢٥]، حتى رحيله عن عالمنا في أواخر عام ١٩٨٠.

هوامش الفصل الثاني

١- من أجل مناهج المرحلة الابتدائية في هذه المرحلة، انظر: أحمد حلمي العلاف، دمشق في أوائل القرن العشرين. تحقيق محمد جميل نعيسة، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٤، ص١٧٩.

٢- حصل على درجة (علي الأعلى) في إجازة المكتب الإعدادي الملكي الصادرة عن نظارة المعارف في ١٢جمادى الأول ١٣٢٣؛ والتي حملت ثلاثة وعشرين خاتماً بالإضافة إلى تصديق المتصرف، صورة محفوظة لدى الباحث.

٣- تعبير النزعة الملّية كان يقصد به النزعة القومية، وقد ساق الاتحاديون الشيخ الصباغ مع زميليه خالد الزعيم ومصطفي الحداد إلى الآستانة عام ١٩١٠، فأوشك الثلاثة على الإعدام،بعد محاكمتهم بتهمة الانتماء إلى (الجمعية المحمدية)؛ التي كان (أبوالهدى الصيادي) وراء إنشائها، من أجل إعادة السلطان ونظام الخلافة الإسلامية. انظر حول ذلك: محمد سعيد الزعيم، مصدر سبق ذكره ص ١٣. ومن خلال العلاقة الوثيقة المشار إليها، تزوج الشاب محمد سعيد في المرة الأولى من فاطمة ابنة (الشيخ الصباغ)، التي أنجبت له ثلاثة أولاد ذكور(محمد علي، عصام، مجاهد). وبعد وفاتها الناتجة عن المرض، تزوج في المرة الثانية من أختها سعاد؛ التي رافقته طوال الفترة التالية من عمره، وكانت مثال الزوجة والأم التقليدية الفاضلة، وأنجبت عدداً كبيراً من الأولاد، شبّ منهم(أيمن، يمنى، سحبان، حذام، أماني، غالية، مسدد، معقل، مفدى، نجدة)؛ الذين تعكس أسماؤهم تطور اتجاهه العروبي، وعلاقته المميزة باللغة.

٤- (الشيخ) مخطوطة مذكرات محفوظة لدى الباحث ص١.

٥- (الشيخ)، انظر قصيدتَي: إلى روح النبي الكريم وفتاة الروملّلي في فصل القصائد من هذا الكتاب.

٦- يقول (الشيخ) في قصيدة (حنان الأمهات) التي نشرت في جريدة لسان الشرق الحموية عام ١٩٠٩:

عليكم يا دعاة العلم فرض فأدوا ما عليكم للبنات

فما فسدت خلائق كل شعب بشيء غير جهل الجاهلات

نقلاً عن عدنان قيطاز، مصدر سبق ذكره ص ٤٩.

٧- (الشيخ) مخطوطة سبق ذكرها، ص ٢.

٨- حيث يقول في قصيدته (فتاة الروملي):

دعوا التحزب فيما بينكم وصلوا أواصر الحب في حل وترحال

إن التفرق مدعاة الخراب لغد ساء الطريق الذي يدعو لإضلال

٩- (الشيخ) مخطوطة سبق ذكرها ص٣، حيث يشير إلى مضمون مقالة تاريخية مفقودة عن ثورة (بتليس)وهجوم الأكراد عليها، وقد ذكر أنه نشرها في جريدة المفيد البيروتية في حينها. لكننا، للأسف، لم نتمكن من العثور على العدد.

١٠- (الشيخ) مخطوطة سبق ذكرها، ص٧، حيث يشير فيها إلى مضمون قصيدة مفقودة بعنوان (شكر للملك حسين) على قيامه الميمون بوجه الترك، وقد نشرت في جريدة العرب الحلبية؛ التي كان يصدرها أحمد سامي السراج.

١١- (الشيخ) مخطوطة سبق ذكرها ص ٢.

١٢- انظر نص قصيدتَي : في سبيل النهضة العربية، وتحية البلاد العربية، في فصل القصائد من هذا الكتاب، وكان قد نشرهما في أوائل نيسان ١٩١٩.

١٣- نشرت جريدة حلب خبر تكليفه برئاسة تحريرها، في عدد ٢٥ نيسان ١٩١٩ كما نشرت إعلاناً عن إلقائه المحاضرات، يوماً في جامع بانقوسا الكبير ويوماً في جامع النيرب، وذلك في عدد ٢٩ أيار ١٩١٩.

١٤- انظر مقالات فصل في النهضة.

١٥- انظر مقالات فصل في السياسة والمجتمع للفترة المذكورة.

١٦- محمد سعيد الزعيم، مرجع سبق ذكره، ص ص ٥٣ــ ٦٧.

١٧- الأسماء المستعارة هي : ابن حجة، أبو تمام، مطلع، العدوي، الحارث.

١٨- انظر مقالات فصل في السياسة والمجتمع للفترة المذكورة.

١٩- انظر مقالات فصل في التربية.

٢٠- انظر كتيب (القول الوافي في العروض والقوافي) في فصل الأدب واللغة. والذي صنّفه بعض الباحثين بين البحوث المبكرة في هذا الصدد، على سبيل المثال: مصادر الدراسة عند محمود فاخوري، في كتابه سفينة الشعراء، ط٤ مكتبة دار الفلاح حلب ١٩٩٠ ص٢٢٠.

٢١- انظر كتيب نقد الشعرفي فصل اللغة والأدب.

٢٢- هذه المكانة المرجعية، دفعت محكمة حماه لاعتماده محكّماً بشأن دعوى شهيرة، تسبّبت بها واحدة من أطرف قصائد التوريات حسب شهادة الشاعر بدوي الجبل أمام أ. وليد قنباز، من مقابلة مع الأخير في حماه في ٢٠٠٠/٢/١٧.

٢٣- قرار وزير المالية في الجمهورية السورية رقم ٦٧٩ في ١٩٣٤/٣/١٧.

٢٤- حسب دفتر بمحتويات هذه المكتبة، منته بعقد بين صاحب الوقف هاني بن نوري باشا الكيلاني و(الشيخ) ينص على قيام الأخير بأمانة المكتبة، والدفتر مع العقد موثقان عند كاتب عدل حماه بتاريخ ١٩٣٣/٧/٢٦، ومحفوظان لدى الباحث.

٢٥- في مخطوطة مذكرات (الشيخ) وبين أوراقه، ولدى ذاكرة عدد من أبنائه ومعارفه أنه كتب عدداً من المخطوطات لم تنشر، وضاعت أصولها. كان من بينها رواية (وفاء العرب) و(تاريخ الأدب العربي) و(لباب البلاغة)، وبعض الدراسات الأدبية عن الشعراء (ابن الرومي والبحتري وأبي تمام والمتنبي وابن زيدون).

الباب الثاني : نصوص

البعثات العلمية[1]

إلى ديار الغرب

إذا صممت أمة على النهوض من كبوتها والخلاص من حال جاهليتـــها، تمزقت الأغشية التي كانت تحول بينها وبين رقيها وارتفاع قدرهـــا، حُبـــب إليها اقتباس العلم أين كان ومن أي إنسان ظهر، فتكـــون الحكمـــة ضالتـــها المنشودة أين وجدتها التقطتها. كانت أوروبا في القـــرون الوســـطى بـــؤرة الجهالة ومنبع التعصّبات المذهبية والحروب الهمجية، فكشف عنها غطاءهـــا ما كان عليه جيرانها عرب الأندلس من العلم والحكمة واســـتبحار العمـــران والحضارة. فلم ير بعض عقلائهم إذ ذاك بداً من تلقف العلـــم مـــن ديـــار الأندلس، فرحل لانتجاعه جماعة منهم ملؤوا المـــدارس الجامعـــة وتعلمـــوا العلوم النافعة، ورجعوا إلى قومهم بعدما ارتوت قلوبهم وامتلأت جعابهم منها وصاروا لامتهم قبساً نيّراً تستضيء به على ما كان عندهم إذ ذاك من الشـــدة والحجر على طلاب العلم والفلسفة. انتفعت منهم أوطانهم وكانوا واسطة عقد النظام الاجتماعي الأوروبي، نقلوا إلى ديارهم كل ما من شـــأنه إنهاضـــها، حتى أن تبليط الشوارع في باريس نقلوه عن مدن الأندلس كما ذكـــر ذلـــك المؤرخون.

---

١ – افتتاحية جريدة حلب الرسمية يوم الخميس ١٨ حزيران ١٩١٩ العدد ٥٥.

أما وقد دار الزمن، وانعكست القضية معنا، بأن صارت ديار الغرب لـهذا العهد مباءة العلم ومعهد الحكمة ومنبثق المدنية، فقد وجب علينا ــ نحن أبناء العرب ــ أن نقبل بجد ونشاط إلى ارتشاف العلوم الكونية ؛ التي هي قـــوام المدنية الحاضرة من منابعها اليوم وهي بلاد أوروبا، فنذهب لتلـك الأقطـار ونحتسي من علومهم ونمتلئ من حكمتهم، ثم نرجع إلى قومنا فنبث بينهم مـا تعلمناه، ونذكر لهم ما رأيناه. عسى أن يجود علينا الزمن، فنرجع عهد عزنـا السالف ونبني أساساً محكماً للمدنية التي سيقوم بها أبناؤنا من بعدنا.

إن في ديار الغرب اليوم من مظاهر المدنية ؛ التي هي نتـاج العلـم مـا تحار له الأنظار وترجع عنه حدة الأبصار، من علوم صناعيـــة واســتخدام لجميع القوى الطبيعية من ماء وهواء وبخار ونور وكهرباء واستدرار لجميـع خيرات الأرض وانتفاع بجميع ما يمكن للطاقة البشرية تسخيره من منافعـها. ولقد فتحوا بوجوههم جميع طرق الكسب والاتجار، فتراهم يســيرون تحـت البحار بالأنفاق، وفي جوفها بالغواصات، وفوقها بالبواخر التي تمخـــر فـــي عرض البحار، وفي جو السماء يتخذون طرائق قددا[1]، ويذهبون في العلـــو صعدا، ونحن ننظر كل هذا بأعيننا ونسمعه بآذاننا. أفلا يليق بنا، وقد بلغنـــا ما بلغنا إليه من التقصير، أن تأخذنا الغيرة من جيراننا ونغبطهم علـــى مـا عندهم من عجائب الدهر التي هي ثمرات عقولهم، فنذهب لديـــارهم ونـأخذ عنهم من حكمتهم ما يجعلنا في المستوى الذي هم فوقه قاعدون. ألا يجـــدر بأغنيائنا أن يرتبوا البعثات العلمية من هذه الديار على نفقاتـــهم، ويرسـلوها للاستفادة من علوم الغرب ونقلها لشرقهم، حتى يمكن أن يعيشوا آمنين علـــى أنفسهم ولا يأمنوا الدهر، فقاعدته الطبيعية وهـــي (تنـازع البقـاء وبقـاء الأنسب) آخذة حكمها وجارية مجراها في كل دهر وعصر. أما آن لنـــا أن

---

١ – قَددا: طرائق مختلفة، ج قدّة (ب).

نستفيق من هذه الغفلة التي تركتنا في الحضيض والغربي محلـــق بالســماء يشق بأسطوله الجو والهواء، أما آن للعرب أن تفكر في مصيرهـــا إن لـم تسرع السير نحو ما يحفظ عليها حياتها. بلى والله، لقد أرانا الدهر عبراً يحق لنا أن نتعظ بها، وضربنا بكوارث يجدر بنا أن ننتبه لكيلا نقع بمثلـــها، هـل يكفي أن يقوم من بيننا محسن كريم (كذكي بك الخرسا) فيتـــبرع بإرســال عشرة طلاب إلى أوروبا يستقون من مناهل العلم فيها، هل يكفينا ونحن نعـد بالملايين عشرة وعشرون منا يتعلمون في ديار الغرب، ألا ليت كل غني قام وأرسل بعثة صغيرة على نفقته تقتبس لنـا مـن صناعـة الغـرب وعلمـه وحكمته، فيجيء لنا بها لبلادنا وينتفع منها وطننا. لدينا الآن من المثرين مـن إذا هزته الحميّة العربية وقام بمثل هذا المشروع في كل بلـــد مـن بلادنـا المحررة الآن، لكان لدينا بعد سنوات قليلة نفر غير قليل من المتعلمين العلوم التي تجعلنا محترمين في نظر العالم المتمدن. ألا ليت شعري هل أرى هـذا بالقريب العاجل، وما هو على همم أغنيائنا بعزيز. فإلى مناهل العلـــم فـي أوروبا، وإلى مواردها العذبة، وإلى تنظيم البعثات العلمية يا قومنا.

كيف ترقّت اليابان[1]

أمة اليابان من أقدم الأمم التي عرفها التاريخ كالصينيين والهنديين وغيرهما من الأمم الأسيوية، وهي أقدم حتى من أمتي اليونان والرومان.

كانت تعيش في قلب جزائرها عيشة ساذجة فطرية، ولما ابتدأ الأوروبيون والأمريكيون بالتقرب من هذه الأمة والمداخلة ببعض شؤونها وذلك في أواسط القرن التاسع عشر، أحست هي أيضاً بضرورة التقرب منهم، لمعرفة الأساسات التي بنوا عليها مدنيتهم، ولتدرأ عنها ما عساه يطرأ عليها من أطماع الفاتحين، فجهزت في بادئ الأمر بعض شبان بلادها للذهاب إلى أوروبا وأمريكا بحجة الوقوف على طرز المعيشة والأحوال العمومية عندهم. وبالنظر لما فطر عليه شبان اليابان من الذكاء النادر، أدركوا لأول وهلة أسرار رقي الغرب، وعند رجوعهم لأوطانهم أفهموا أمتهم وحكومتهم أن لا سبيل لمجاراة الغرب إلا بقبول مدنيته بكل ما فيها، والبناء على نفس الأساس الذي بنت عليه أوروبا مدنيتها، وبعبارة ثانية لا سبيل للنجاة إلا بالدفاع عن حقوق الأمة بمثل ما يدافع به الأوربيون عن حقوقهم من التجهيزات الحربية وغيرها. فعندها اهتمت حكومتهم للأمر، ولم يعبأوا بتاريخهم وعلومهم التي تضاد وسائل المدنية الحديثة، ولم يتقيدوا بشيء من أوامر الذين كانوا يقاومون فكر الإصلاح، بل باشروا بتلقف العلم من ديار الغرب برغبة وشوق زائدين من غير أن يعيروا أذناً صاغية لقيام المتعصبين بوجههم.

تمّ هذا بهمة الإمبراطور (موجوهيتو) وشريك مساعيه الماركي (إيتو) فأوقفوا تيار التعصب المتدفق عليهم، وفتحوا جميع الأبواب الموصلة لجميع

---

١ - افتتاحية جريدة حلب الرسمية يوم الخميس ٧ آب ١٩١٩ العدد ٦٨ .

أنواع الإصلاح. لذلك نرى الأمة اليابانية بلغت شأواً لا يبارى من الرقي بمدة لا تزيد عن ثلاثين إلى أربعين سنة. رأى الغربيون هذه النهضة المباركة فحبّذوها وصفقوا لها، ولكنهم كانوا مرتابين من حصول القوة لليابانيين بحيث يتسنى لهم حفظ كيانهم السياسي من مهاجمات الأعداء والرقباء.

غير أنه ما لبثت اليابان أن أثبتت للملأ بالبراهين العملية، بالحرب التي نشبت بينها وبين الصينيين وأظهر جندها بسالة فائقة وانتظاماً تاماً، حيث ظهر على جيش أبناء الصين وعقد له لواء النصر عليهم. فأيقن الأوروبيون إذ ذاك أن الأمر فوق ما يتصورون، وكان أول من مدّ يد المصافحة لليابان الإنكليز، فعقدوا معهم عهداً تنحصر أحكامه في أقصى الشرق، يُقصد منه رد مطامع الألمان والروس في تلك الأصقاع.

لم يرق بعين (الموسكوف) أن يرى اليابان عقبة كؤوداً له في سبيل ابتلاع الصين التي كانوا يأملون أن يجتاحوها في الأيام المقبلة. ولم تقدّر روسية الأمة اليابانية حق قدرها ولم تُصب في تخمين قوتها معها، فأعلنت عليها الحرب بضعة أيام حتى دهش العالم بأسره، ولم يمر على الحرب من توالي ظفر اليابان، ووقعت وقائع برية وبحرية أثبتت ما لليابان من العزم الذي لا يلوي والجيش الذي لا يغلب. من ذلك وقائع : لياويانغ، شاهو، موقدن، ومحاصرة (بورارتور) الشهيرة وهذه في البر، ومحاربة جوشيما في البحر، وفي كل هذه الوقائع كان الظفر يكتب لليابان. فطأطأت روسيا عنقها وطلبت الصلح، وتم لليابان ما تبغيه من إبعاد العدو اللدود عن الصين وحلول نفوذها السياسي مكانه، ووضعت حمايتها على إقليم كوريا. وبعد ذلك دخلت اليابان في مصاف الدول الغربية العظمى.

هكذا ترقى الأمم، وعلى هذا السبيل تدرج إن أرادت الوصول للمقاصد النبيلة. فهل لأمتنا العربية أن تحذو حذوها، وتظهر للعالم أمة مدنية يحترمها العالم الأوربي ويقدرها قدرها في مثل تلك المدة التي ظهرت فيها اليابان. نكرر القول في هذا المقام أننا لا نعد أمة حية إلا إذا أخذنا ما عند الأمم الحية من الصنائع والأعمال ؛ التي خولتهم أن يكون العالم منقاداً لحكمهم. ولا يتأتى هذا إلا باقتباس أنوار العلم من ديارهم ونقلها إلى ديارنا، فإلى الغرب إلى الغرب.

مبلغ قابلية العرب للعلم والمدنية(١)

نحن إذا أردنا بيان ما أخرجه العقل العربي للناس من أنواع الاكتشافات والعلوم، والإفاضة في هذا البحث نكون قد أعدنا كلاماً سطره التاريخ، وقضيته مسلمة لدى جميع الأمم معلومة عندهم. ولا يفيد في كتابتنا هذه أن نتبجح بمجد أسلافنا ونتغنى بارتقاء عقول آبائنا وأجدادنا من غير أن نأخذ حظنا من العبرة، ليكون لنا سائقاً في هذه العصور الجديدة للحاق بأولئك السلف الصالح ؛ الذي أضاء نبراس التمدن في العصور المظلمة، وأقام أسس قواعد بث العلم الصحيح واستضاء من تفيء ظلال العلم بأجمعه. تلك نبذة من ذلك تبين لك ما كان عليه العرب من الرقي :

جرت العرب في اكتشاف العلوم واكتساب معارفهم على أقوم دعامة للعلم، وهي المشاهدة والتجربة العملية، وأن لا يكتفوا أبداً بالمقدمات النظرية. حتى أن بعض فلاسفة الأوروبيين ذكر هذه القاعدة عند العرب فقال: ومما عندهم "جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفاً " ولم يقتصر العرب،

---

١ – افتتاحية جريدة حلب الرسمية يوم الخميس ٢٤ تموز ١٩١٩ العدد ٦٤

أثناء بحثهم عن العوالم العلوية، على سرد المقدمات النظرية التي كان يتبعها اليونانيون ممن قبلهم، بل كان من الأصول عندهم أيضاً إقامة المراصد وبناء علمهم على ما يحسونه بواسطتها لذلك قال ديلامبر في تاريخ علم الحيلة "إذا عددت في اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصدين أمكنك أن تعدّ في العرب عدداً كبيراً غير محصور" أما تجاربهم في العلوم الطبيعية والكيميوية فقد ذاع أمرها حتى عدّت الكيمياء من اكتشافاتهم الخاصة، لما بذلوه في سبيلها من الأتعاب الزائدة للاستحصال على المعلومات التجريبية فيها وعدم الاكتفاء بالقضايا النظرية. وهكذا قل عن بعض القوانين الطبيعية كمعرفة ثقل الأجسام جامدها ومائعها، ووضع الجداول الدقيقة لها كجداول الأرصاد السابقة الذكر، حتى أنهم كادوا أن يلامسوا اكتشاف الجاذبية بتلك القوانين.

قال الفيلسوف (درابر) الأميركاني أثناء كلامة عن مدنية العرب ما نصه :

لا تأخذنا الدهشة أحياناً عندما ننظر في كتب العرب، فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد إلا في زماننا، كالرأي الجديد في ترقي الكائنات العضوية وتدرجها في كمال أنواعها، فان هذا الرأي كان مما يعلمه العرب في مدارسهم، وكانوا يذهبون به إلى أبعد مما ذهبنا، فكان عندهم عاماً يشمل الكائنات غير العضوية والمعادن، والأصل الذي بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقي المعادن في أشكالها " فهذه شهادة هذا الفيلسوف الأميركاني المنصف للعرب أنهم قرروا في مدارسهم كثيراً من الحقائق الكونية التي يظنها البعض اليوم من الاختراعات الجديدة، فإذا كانت أسلافنا على ما ذكرنا من العناية في أمر العلوم العقلية والكونية، أفلا يجب علينا أن ننشط من زوايا الخمول للاقتداء بما فعل السلف في زمن كانت فيه وسائط الترقي مفقودة، لعلنا نثبت للملأ أننا أولاد أولئك الأعاظم الذين أبقوا لهم ذكراً حسناً يتلى في تواريخ العالم وتدرسه جميع الأمم ؟

نحن اليوم في عصر جديد توفرت فيه جميع أسباب الرقي، فلا يطلب منا اكتشاف علم ولا اختراع آلة، بل يطلب منا ما هو أقل من ذلك بكثير، وهو معرفة استعمال الآلات وفهم المكتشفات العلمية.

ما أجدرنا ونحن اليوم نريد أن نثبت للملأ قابلية الاستقلال أن ينتبه أولو العلم والثروة، فيعملوا على ما يُنهض الوطن إلى ذروة المجد والعز، ولا أرى سبيلاً موصلاً إلى ذلك وطريقاً قصيراً سوى تعميم العلم بين جميع طبقات الأمة، وافتتاح المدارس الأهلية التي تُغذي الأطفال من درس الوطنية الحقّة والعلم الصحيح.

ماذا يجب أن نستفيد من أوربا[1]

بيّنا، في مقال سبق، لزوم اهتمام أغنيائنا بتنظيم بعثات علمية يرسلونها إلى ديار الغرب. وعلى الأقل إرسال أولادهم، إن ضنّوا على غيرهم ممن يتوسمون فيه النجابة من أبناء المعوزين . ولم نتعرض إذ ذاك لما يجب أخذه، وما يجب علينا الاحتراز عنه أيام التحصيل والتعلم.

نشاهد بعض الأخوان ممن ذهبوا إلى أوروبا للتّضلع من علمها والاستفادة من صناعتها قد رجعوا لنا وهم تاركون كثيراً من تقاليد أمتهم، ينكرون عليها كل ما تقع أعينهم عليه من أخلاق وعادات بلبلت ألسنتهم وكادت تتلاشى لغتهم، استحسنوا كل عادات الغرب وتمكّنت من أنفسهم تقاليد الأوروبيين، حتى يصحّ لنا أن نقول إنهم انسلخوا عن قوميتهم وتجلببوا غيرها. هذا إن صحّت استفادته شيئاً من الصناعة والعلم، أما إذا كان قد قتلى أوقاته الثمينة هنا وهناك، ولم يستفد شيئاً عملياً يمكنه تطبيقه في أوطانه،

---

١ – نشر في افتتاحية جريدة حلب الرسمية يوم الاثنين ١٢ آب ١٩١٩ العدد ٦٩.

فهناك الخسران العظيم وخيبة المساعي وصرف الدراهم الطائلة على غير جدوى.

إن الرجل الذي يذهب إلى الغرب، فيجيء لنا بعاداتهم التي لا توافقنا ومشاربهم التي لا يصلح لنا أن نستقي منها، وإن وردناها عادت على مجتمعنا بالضرر الوبيل، فهو بدلاً من أن تربح منه أمته وتنتفع، تخسر وترجع إلى الوراء ولا تجنى منه أقل فائدة. فعلى أولياء الشبان وأولياء الأمور أن ينظروا في هذا الأمر، ولا يدعوا مجالاً مهما أمكن لذلك وأن يكثروا النصائح للشبان حين ذهابهم، ويعينوا لهم مراقبين من ذوي الأخلاق العالية والمبادئ السامية يراقبون أعمالهم ويدلونهم على ما هو خير لهم. وأن يُختار الشاب من أهل الاستقامة والغرائز الصالحة، وأن يُعتني بتقويم لسانه كل سنة يرجع فيها إلى وطنه، بتعليمه شيئاً من قواعد اللغة العربية وآدابها، وأن يكون سنّه مساعداً له لحفظ جنسيته وأخلاقه القومية، إلى غير ذلك من الأمور التي تكفل للشاب بقاء جميع مقوماته، وتحفظه من الاندماج في غير أمته. ولا بأس أن يتشبه من بعض الأخلاق التي تروجها آدابنا ولا تنكرها عاداتنا كحب الحرية بمعناها الحقيقي وكاقتباسه من بعض الأمم الغربية الثبات في الأعمال والمثابرة عليها حتى النجاح، وكاتصافه بصفات الرجولة والبطولة التي تجعله في حياته من الأفراد الذين يشار إليهم بالبنان، لعِظم نفعهم لأمتهم وحسن بلائهم في سبيل نهوضها، وكتعوده على الملاطفة والملاينة وحسن الذوق وسلامة الطبع التي يتصف بها بعض الأوروبيين. كل هذا لا بأس به، لأنّ مدنيتنا العربية أيام ازدهارها كانت مبنية على ما تقدم من الصفات فلا تأباها أخلاقنا وتقاليدنا، وهي مسطّرة بكتب أسلافنا، وحثّنا على الأخذ بها حكماؤنا.

كتاب الإحياء للإمام الغزالي، والذريعة إلى مكـــارم الشـــريعة للراغـــب الأصفهاني، وتهذيب الأخلاق، وتطهير الأعراق لابـــن مســـكوية، وكتـــاب تهذيب الأخلاق لابن حزم، طافحة بذكر هذه الأخـــلاق والمبـــادئ القويمـــة. وخلاصة الكلام أننا محتاجون لعلم الغربي وصناعته وللوقوف على أســـباب رقيه فقط، أما ما يختصّ بعلم الأخلاق فلدينا منه ما يكفينا، ولا حاجـــة بنـــا لنقل العادات التي لا تلائم محيطنا وتضرّنا في حياتنا، فالذي يريد أن ينفـــع أمته بالذهاب إلى ديار الغرب يجب عليه أن لا يذهل عن الأمـــور الســـالفة، وأن يكون متيقظاً لها، وألا تنعكس القضية ويتبدل النفع بالضرر والسلام.

الفصل الثاني : في قضايا السياسة والمجتمع

إلى أبناء وطننا العزيز[1]

قرأت في العدد الماضي من جريدة حلب الغراء ، وفي غيرها من جرائد سورية نقلاً عن الطان[2]، أنه تقرر إرسال وفد إلى البلاد السورية للوقوف على أفكار الأهالي عن قرب واختبار ميول الشعب العربي، وهي المسألة التي طالما تحدثنا بها وكانت تأتينا بها الأخبار منذ شهرين تقريباً. فعلى ذكر هذا النبأ، في هذه الآونة، أريد أن أقول فيه كلمة لأبناء وطننا العزيز.

يا أبناء الوطن : لا شيء ينفعكم في هذه الأيام الحرجة التي يُبتّ فيها مصير بلادكم سوى تضامنكم واتفاق آرائكم، ليظهر للوفد أنكم جماعة متساندون متضامنون على رأي رجل واحد منكم، ولتقدموا له رغبتكم التي تشوقتم إليها وضالتكم المنشودة التي استلبها الترك منكم أجيالاً أربعة ، ألا وهي استقلال بلادكم استقلالاً لا شائبة فيه، على ما قرره حلفاؤنا وفي مقدمتهم الرئيس ويلسون من تحرير الأمم. وأنكم جميعاً كباركم وصغاركم قد وكّلتم سمو الأمير فيصل نجل جلالة ملك العرب وسلطان قلوبها ، ليبسط قضية بلادكم على منصة البحث في مؤتمر الصلح ويبلّغ صوتكم فيه، ويعرب عن إرادتكم لدى حلفائنا المحترمين. فإن فعلتم ذلك وقمتم به حق القيام تكونوا قد أحسنتم لأنفسكم وبلادكم وأبنائكم وأحفادكم، وصنعتم كما تصنع الأمم الحية التي تعرف قيمة الحياة الحرة، ولا أظن أن أحداً منكم يشذ

---

١ – جريدة حلب، ١٠ نيسان ١٩١٩.

٢ – الطان : جريدة الزمان الباريسية (ب).

عن هذه الفكرة إذ هي مقدسة بنظر كل عاقل منصف، واعلموا أن يد الله مع الجماعة، فكونوا على يقين أن الظفر لا يتأتى إلا للأكثرية المتضامنة المتحدة المجتمعة على أمر واحد، كما قال شاعرنا العربي :

ولست بالأكثر منهم حصىً وإنما العزم للكاثر

وللكثرة شؤون وشؤون، ولا سيما إذا ترأستها لجنة من ذوي العقل وسداد الرأي فإنها تقودها بلا ريب إلى ساحل النجاة. انظروا إلى الأمم المتأخرة كم تئن من الأثقال، فقيسوا أنفسكم واعلموا أنكم تجاه فرصة ثمينة فلا تكونوا سبباً لضياعها.

يا أبناء الوطن، هذه فرصة لا يأتي بها الزمن كل حين، فلا تهملوها وكونوا لها منتهزين ولمصيركم منتبهين، فقد فاز من انتبه وخاب الخاملون ومات الجاهلون. أخبروني متى تأتيكم فرصة أخرى كهذه ومن يشفق عليكم غداً إذا أهملتم أمركم اليوم. أنبئوني من يهمه أمركم فيخلصكم ويمنحكم نعمة الاستقلال إذا أنتم سُلِبتموها، لا سمح الله، بتقاطعكم وتخاذلكم وعدم تكاتفكم بشد أزر الحكومة العربية، ففكروا بأموركم ومصير أحوالكم، وافهموا أن الأمم التي منحت الاستقلال ليست بأرقى منكم لما مُنحته. فليست أمم البلقان منذ قرن وأكثر بأعلم بقيمة الحياة إذ ذاك منكم في هذا الزمان، وإن لكم في بلاد أوربا وأميركا وبلاد الأناضول ومصر رجالاً أكفاء يمكنهم أن يديروا دولاب أعمالكم السياسية والاجتماعية أكثر بكثير مما يظن بنا الآن، ويلزم أن نُبرز الكفاءة في البلاد التي تحكم فيها الحكومة العربية اليوم ونثبت للعالم بأجمعه أننا قوم ساهرون على آمالنا ومستقبلنا، وحدوث بعض المشاحنات، ولا سيما في مثل هذه الظروف، تضر في آمالنا وأعمال حكومتنا المحبوبة. أنا لا أنكر أن عدد المتعلمين منا بالنسبة إلى الأميين قليل جداً، ولكن ألا يصح لنا أن نتمثل بقول شاعرنا العربي:

إن الزمان الذي أولاكم نعماً هو الزمان الذي نرجو به نعما

فالزمن الذي أولى أمة اليابان نعمة العلم، بظروف ثلاثين عاماً أو أربعين سنة بهمة الميكادو وبعض رجالها القديرين، هو الزمن الذي نرجو منه أن يمنحنا تلك النعمة في مثل تلك المدة، وليس هذا الأمر على من صمم على الحياة الحرة بعزيز.

فاعلموا يا إخواننا أن الثبات ومتانة الجأش والثقة بالنفس هي الصفات التي يلزم أن تتصفوا بها في مثل هذه الظروف لضمان النجاح في معترك الحياة، ولا سيما في أهم أدواره، أي في مثل هذه الأيام. واعلموا أن صوت الشعب هو من أمر الله، أي لا يرده راد ولا يصده صاد، وإرادته فوق كل الإرادات ونفوذه أعظم من كل نفوذ. ولنا مقال آخر في صوت الشعب وإرادة الأمة نرجئه إلى الآتي.

"نزيل الشهباء"

إرادة الأمة وصوتها في القرن العشرين(١)

قلنا في كلام سبق أن الأمم التي صممت على الحياة السعيدة لا يمكن لأي قوة في العالم أن تسير بها لعكس الجهة التي تريد أن تمشي عليها لأن طبيعة القرن العشرين صارت تعطي الأمة كل حق في اختيار الطرق التي تؤديها إلى السبيل القويم في حياتها الاجتماعية فسلام على القرن العشرين ؛ عصر المدنية الزاهية والحضارة الزاهرة، عصر الحرية؛ التي أتاحت للأمم الصغيرة أن تستوفي كل حقوقها بصورة معقولة وطريقة منطقية خالصة من كل جبروت يذهب بمادة حياتها. كل أدوار الرقي التي مرت على أمم الغرب وكل صفحات التاريخ التي اندمجت في ثناياها التقلبات الاجتماعية

---

١ - افتتاحية جريدة حلب، الاثنين ١٤ نيسان ١٩١٩.

تنبئنا عن صدق ما ذكرناه – من أن الجمهور العام والسواد الأعظم هو الذي يحمل راية الحق ويسير سيراً ناجحاً بدون أن يرى أمامه مانعاً لمطاليبه المشروعة. لا نكلف قارئنا الكريم إلا إلقاء نظرة على الأحوال الاجتماعية التي حصلت في بلاد العالم المتمدن في القرن الثامن عشر والتاسع عشر وفي أوائل القرن العشرين الذي نحن فيه، والتطورات السياسية التي حصلت هناك وما حصل عن ذلك من النتائج المرغوبة، التي ترمي كلها بحسب ما نرى لغاية واحدة ؛ ألا وهي سعادة الشعب وتقدمه بطريق العلم والصناعة. فحبذا اليوم الذي نقتدي به بأولئك الأقوام الساهرين ونعمل على ما يوجب إسعاد أمتنا، وبالتالي إسعاد البشرية من السعي وراء تقرير أساسيات الحرية الذاتية والاجتماعية للأفراد والجماعات.

البلد الواحد[1]

لماذا لا يجوز أن يتجزأ

لكل إنسان ملء الحق – بل عليه واجب – بأن يهتم في مستقبل بلاده، لكن الذي يتكلم بدون خبرة ولا تبصر يتعرض حتماً لهزء السامعين، وتهكمهم عليه. أما نحن فلا نريد أن نهزأ ولا نتهكم، لكننا ندل الباحثين على ما في بعض الآراء الشائعة اليوم من السقم في المقدمة والعقم في النتيجة.

بعض الناس يريدون تقسيم بلاد العرب إلى أجزاء منفصلة تماماً عن بعضها بعضاً. وبعضهم غالى في هذا الفكر حتى أراد تقسيم سوريا نفسها إلى مناطق عديدة. فلربما كان هذا البعض مدفوعاً إلى ذلك باعتقاد صميم بأن هذا التقسيم ضروري، ونحن لا نجادله في حسن القصد وسلامة النية،

---

١ – جريدة حلب ٢٥ نيسان ١٩١٩.

لكننا نجادله في صحة الرأي ونعتقد أنه مخطئ، وفي الوقت عينه نتوقع منه أن يعتقد فينا كما اعتقدنا فيه حسن القصد وسلامة النية.

وفي لبنان أناس قليلون، طبعا، يريدون فصل الجبل عن جيرانه والاحتفاظ له بنظام خاص مستقل. ولماذا ؟ ألأن هذا الفصل يوافق مصلحة الجبل المادية ؟ إنه محتاج من الغرب إلى السواحل، ومن الشرق إلى الحقول، وقد درس لبنان هذه الأمثولة جيداً قبل الحرب. فقد كانت الداخلية تطعمه، والسواحل تكسوه، ومع ذلك لم يستغن يوماً عن أموال مهاجريه ليبتني لسكانه بيوتاً. فعلام يستند القائلون بوجوب استقلاله السياسي، وهو في كل شؤونه المادية مفتقر أبداً إلى كل مجاوريه ؟

أما إذا استطاع إقناع مجاوريه بالانضمام إليه تحت اسم لبنان الكبير، كما يريد البعض من أبنائه، فهو يأخذ من سوريا العامرة ثلاثة أرباعها وعند ذلك نحن نتقدم إليه بالربع الباقي هديةً فيحصل بيننا وبينه اتفاق، ولا عبرة في الاسم لبنان الكبير يكون أم سوريا متى توحدت الغاية. يبقى علينا نظامه المخصوص، ما من عاقل في لبنان إلا رأى بأم عينيه وصرح ألف مرة – قبل الحرب – بفساد ذلك النظام وتقادم عهده وضرورة نبذه والاستعاضة عنه بقوانين عصرية راقية تضمن للناس حريتهم وراحتهم، إذ لا شيء من هذا في ذلك النظام الممكّن للتعصب الديني والقاتل للأهلية والقابلية.

وبعد هذا، هل تستغني الداخلية عن سواحلها؟ وهل تستطيع هذه الولايات الزراعية أن تعيش بدون منافذ إلى البحر الوسيع؟ أم لا بأس في خراب هذه المدن الزاهرة لكي يبقى بعض قصار النظر مستقلين في تلك الخرائب الجاسية؟ الحق يقال أنّ الساحل هو وجه البلاد والداخلية ظهرها. وما عاش وجه بلا ظهر، ولا ظهر بلا وجه. ولكن قاتل الله التعصب.

إن المساعي المبذولة الآن لتجزئة البلاد مبنية على خوف بعض الناس من الاتحاد مع غيرهم لأن الأحكام التركية نخرت بسوس الفساد ذلك

الاتحاد. مع أن العالم كله خارج من هذه الحرب لينزع الثوب القديم ويلبس الجديد. فهم كالعليل الذي لا يعالج يده السقيمة ليشفيها وينتفع بها، بل يقطعها مفضلاً أن يبقى بلا يد.

في العالم اليوم أمم أرقى منا تنضم إلى بعضها بعضاً مع كونها متفرقة البلدان مختلفة العناصر لأنها رأت المصلحة التجارية وهي أساس العمران تقتضي ذلك. فماذا يقول أولادنا عنا متى هذّبهم التعليم العمومي وراقهم إذا رأونا نترك لهم البلاد الواحدة مهشمة، مفككة، في العهد الذي كان المتمدنون يؤسسون ولايات متحدة، ويؤلفون عصبة الأمم؟

اطلبوا الإصلاحات التي تحلمون بها وتتصورونها للفساد الذي ترونه في جامعاتنا القومية الوطنية، ولكن إن طلبتم التفرق والانقسام فأنتم تمكّنون الجهل والتعصب وتصدّقون على استمرار الفساد والخراب. نحن لا نخشى من النتيجة لأن الذين يفصلون في مستقبلنا سيكونون بدون شك أعرف بمصلحة البلاد من كل من يرغب في تجزئتها لكننا نكره أن يقوم للفساد من بيننا من يدعوهم إلى تقطيع جسمه إرباً إرباً.

ذكرى الاستقلال[1]

لكل أمة من أمم الحضارة أيام عز وفخار تحتفل بها، وتذكر تلك الأيام البهية العظيمة وما نالته أمتها بها المكانة العظيمة بين أمم الأرض وفي ذكرى الاستقلال فقد جرت العادة أن تحتفل الأمة باليوم الذي خلصت به نفسها من الظلم، وتذكره دوماً ليتمكن الشعور بحبه من نفوس بنيها وليتذكر فيه ما ينتاب الأمم من ذل إذا هي فقدت هذه الجوهرة الثمينة من يدها ولم

---

١ – افتتاحية جريدة حلب، الاثنين ١٢ أيار ١٩١٩.

تحسن القيام على صوته وتذكر فيه أيضاً ما ينوب الأمة التي تقع تحت أسر أمة لا تجانسها إلى مثل ذلك مما ينهض بالأمة ويقوي بها على الاستقلال ويجلو لها معانيه المعنوية والمحسوسة. يفترض على الأمة التي عرفت لذة الحياة الاستقلالية الظهور بأبهى المظاهر احتفاء بيوم نصرها واستقلالها ليرى العالم أنها تذوقت طعم الحرية وأدركت معنى الحياة الهنيئة، ليثبت للملأ أنها عشيقة اليوم الذي نفضت فيه غبار الاستكانة متجهة نحو باحات السعادة والارتقاء إلى الحياة التي تعرفها مالها وما عليها. كانت الحكومة التركية أدركت آخر مدة حكمها أهمية هذا الأمر فكانت تقوم بذكرى يوم جلوس أميرها الأول السلطان عثمان فيقدم خطباؤهم بذلك مظهرين مشاعرهم نحو استقلالهم. أما الأمة العربية فقد جرت على ذلك من أول يوم من سني استقلالها فكانت تجتمع بشعبها وتقوم بالاحتفالات الشائقة طوال السنين الثلاث في اليوم التاسع من شعبان، ذلك اليوم الذي ارتاع فيه الاتحاديون وأيقنوا بإخفاق مساعيهم التي كانوا يبذلونها لإهانة العرب والإنقاص من شأنهم. وعدلوا عن برنامجهم الذي اختطه زعماء الاتحاديين وهو نقل جميع أرباب الكلمة إلى بلاد الأناضول وإسكان جماعة من الأناضول بسوريا ليتم لهم ما كانوا يحملون به من تتريك العنصر العربي وفاتهم أن هناك أسداً رابضاً بمكمنه يتحفز للوثوب على من عبث بحماه ونال من أشباله، فبينما أبالسة الاتحاديين في غيّهم يعمهون، وعلى تنفيذ أفكارهم السقيمة عاكفون، إذ سمعوا صوتا حجازياً يناديهم : أن خلّوا عن حمانا وأقلعوا عن ظلم أبنائنا وانتهاك حرمة قومنا، فما نحن عنهم بلاهين ولا غافلين ولا عن أعمالكم بساهين. فما سمع الظالمون هذه النأمة حتى سقط بأيديهم وأدركوا عاقبة أمرهم وحرج موقفهم بما قدمته لهم أعمالهم السيئة، وكانت هذه الصرخة التي قام بها جلالة ملك العرب وأنجاله الكرام هي مبدأ استقلالنا ؛ الذي يحتفل بإعلاء شأنه في هذا اليوم المبارك وهو يوم التاسع

من شهر شعبان. فقامت لتلبية هذا الصوت الرائع ثلة من رجال النهضة من أبناء سوريا والعراق، فانتظموا في سلك أبناء الحجاز وعملوا بمساعدة حلفائهم الأعمال التي كانت نتيجتها القضاء على الجيش التركي المرابط في جبهة سوريا، ولولا انضمام صوت هذا الجيش العربي لجنود الحلفاء لذاقت سوريا الأمرين من جنود الاتحاديين من جهة، ومن الجيوش التي تهاجمها وتنظر إليها بعين العدو من جهة أخرى، مما يقضي علينا بالذل والعياذ بالله. وقد انضم صوت العرب للحلفاء، فصار جيشهم بنظر أبناء البلاد نظر الصديق والحليف، وبذلك تخلصت أبناء سوريا وأخص منها لبنان من الجور الذي كان حائقاً بها من جميع أطرافها.

فنحن مدينون لتلك الصرخة الحجازية التي وضعت أساس استقلالنا العربي، ونعلم حق العلم أن جوارحنا مهما عملت أموراً تدل على شكر جلالة مليك العرب وأنجاله لا يمكننا القيام بأداء الثناء على هذا الجميل.

فشكراً جزيلاً لمن قام بتخليص هذه البلاد بسائق الحمية القومية والرأفة الهاشمية، ولاعدمت الأمة العربية رجالاً يحمون حماها ويدرؤون أذاها بصدورهم ومناكبهم.

فوائد الاستقلال[1]

تسعى الأمم لنيل استقلالها باستكمال جميع أسبابه، ومتى آنست سبيلاً موصلاً أسرعت إليه تسلكه وبمقدمتها النبغاء من قومها وقادة الأفكار من شبانها وشيوخها وكلما صادفت في طريقها عقبة اجتازتها أو مانعاً اخترقته على قدر استعداد بنيها وتهيئتهم لنيل استقلالهم فلماذا تحرص الأمم على ذلك وتفديه بأنفس مالديها؟ لماذا تحاول وتصاول وتناضل دونه حتى تستنفذ كل

---

١ - جريدة حلب الاثنين ١٥ أيار ١٩١٩ العدد ٤٥.

مالديها من العدة والعدد ؟ لماذا تتألب على التملص من تحت كلكل من لاتربطها معه لحمة نسب ولا يمت إليها بوشيجة رحم ؟ يكفينا لمعرفة الجواب أن نلقي نظراً على القوم الذي كان تحت حكم غيره – وما عهدهم عنا بعيد. لنرى مسالمة الأمة الحاكمة للأمة المحكومة كيف يكون ؟ الأمة القوية بعلمها ومالها وجندها لا يعجزها مطلب تحمل الضعيفة عليه فهي تريد أن تعمم لغتها فتجعلها لسان المدارس ولمحاكم والحكام فيضطر الضعيف للجري على إرادة حاكمه بذلك مهما تجشم المصاعب ليوصل إلى إرضائه ليحفظ حقه ويضطر لوضع ابنه بالمدرسة لأنه يصعب عليه أن يظل جاهلاً وقد تعلم الناس.

وما هي إلا سنين قلائل حتى تضيع ألسنة الآباء والأبناء بصيغة حكامها فتستعجم وتتبلبل وتفقد من عالم الوجود ولا يكتفون بذلك بل يهتمون أيضا بنشر مبادئهم وأفكارهم واخلاقهم وطبائعهم وجميع مقوماتهم المالية ومشخصاتهم القومية فلا يمضي على الناس جزء يسير من الزمن حتى يكونوا بجميع شؤونهم الاجتماعية يقتفون آثارحكامهم الذين هم غير أبناء جلدتهم فيجارونهم بالعادات والأخلاق والأفكارحتى إذا دخلوا جحر ضب دخلوه معهم. وهناك ضياع الأمة بضياع خصائصها القومية، فترى الروح الغربية سارية في عروقها ودمها لاتعرف شيئاً عن تاريخ أمتها ووقائع أبطالها وسالف مجدها. تتغنى بالأناشيد التي لا تزيدها الا عمها وحيرة في طريقها. هذه حال الأمة الضعيفة إذا دخلت في قبضة من لا صلة نسيبة تضمه معها. لذلك أدرك عقلاء كل أمة هذا الشر، فأجمعوا أمرهم على دفعه والتخلص من حبالته إلى ساحات الاستقلال الفسيحة التي يتنشقون بها نسيم الحرية الصحيحة والعلم الحقيقي والحياة الرضى. عرف معنى ذلك أبطال العرب، وأيقنوا أن أمتهم إذا بقيت على حالها بضع سنين تتسوح زهرة حياتها وتندغم في الأمة الحاكمة عليها وتمحى بمحو لسانها وعاداتها وأخلاقها، فأكبروا الأمر وقاموا مطالبين بالاستقلال الذي لا تحيا الأمم بدونه.

الجنود حراس الاستقلال[1]

" لا استقلال بلا جنود"

(سمو الأمير فيصل)

كلمة ألقاها سمو الأمير المعظم بمأدبة أقيمت في ديوان الشورى الحربي لهيئات التجنيد، تبين ما للجند في هذه الأيام من الأهمية الكبرى والتأثير العظيم في بناية الاستقلال الفخمة، وأنه هو وحده عليه المعول والاعتماد في نيل هذه الجوهرة الثمينة التي تشتريها الأمم ببذل أعز ما لديها، وتقيم دعامتها الأقوام التي عرفت معنى الحياة الاستقلالية على جماجم أبنائها وتعجن طينها بدماء ذكية طاهرة تراق على جوانبها .

قرر التاريخ لنا هذه الحقيقة وأيدها العقل، وهي أن المال إذا لم يقم على حراسته رجال يضربون على أيدي كل غاشم يروم استلابه، تلعب به أيدي العابثين وتحتجنه[2] محاجن الناهبين ويذهب طعمة الجائعين النهمين، إذ لم نشاهد في صحائف التاريخ أمة أقامت دعائم شرفها على غير الجند الحارس له، ولم نعثر على قوم منح هذه النعمة غنيمة باردة من غير ماجد ونَصْب وخطوب جسام.

أما العرب فهي قد جدّت وأنضت أجسامها في سبيل نيلها هذا الشرف، وقدمت ليس جنداً فقط بل وزعماء يعد الواحد منهم بألف وأزيد، مما يفي بثمن الاستقلال الذي نالته. ولكنه يجب على أبنائها أن يبذلوا في الدوام ما بذلوه في الابتداء ولا يجروا على قاعدة " يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء " فإذا كان أميرنا المعظم يقول لا استقلال بلا جنود فيجب علينا حينئذ أن ننتبه إذا كنا غافلين لأهمية التطوع، ويقوم كل فرد من أفراد الأمة

---

١ – جريدة حلب ٣ حزيران ١٩١٩.

٢ – تحتجنه : تضمه إليها (ب).

بما يوحيه له الضمير الحي والإخلاص النقي لإيفاء واجب مقـــدس لانظنـــه يضارع غيره من الواجبات، ونحن نرى أنه أصبح فرضاً عينياً على كل مـن توفرت لديه أسباب التطوع أن يمد يد المعونة على حسب استطاعته. التطوع يكون بالنفس وبالمال وبالدعوة إليه من الصحفيين والكتاب والأدبـــاء نـــثراً ونظماً، لأن أمراً يتوقف عليه استقلال أمة بأسرها وحياتها لجدير بأن يكـــون فرضاً محتماً على كل مستطيع. فالذي يجود بماله فهو متطوع، والذي يجـود بسحر بيانه ونفثات أقلامه فهو متطوع، فليتطوع كل على قدره.

نعم لستم الأيدي الطوال فساعدوا على قدركم قد تستعان الأصابع

مهمة المؤتمر السوري العام[1]

في الأنباء الأخيرة أن الوفد الدولي قدم فلسطين للنظر في حـــال الأمـــة هناك والوقوف على رغائبها، فهو إذن قد أناخ ركابـــه فـــي بـــلاد ســـورية الجنوبية وسيصل قريباً إلى بلادنا ويسألنا عن آرائنا فيما نرضـــاه لأنفســـنا. لذلك كان من الواجب على الأمة أن تنتخب منها رجالاً أولي خبرة بـــأحوال البلاد ووقوف على العادات والأخلاق القومية ومعرفـــة بمصـــالح الشـــعب السوري وطرق منافعه ومضاره، ليتألف منهم مؤتمر في عاصمـــة ملكـــهم يتبادلون الآراء فيما بينهم ويتساجلون في تقرير الأصلح للأمة، حتى إذا جـاء الوفد وجد أمامه أمة مدنية جرت على سنن الأمم الراقية ذات مؤتمر عـــال، يضم خيرة رجالها علماً وإدراكاً وذكاءً ونبوغاً، قد أتمـــوا مذاكراتـــهم فيمـــا يتعلق بمستقبل بلادهم، ولم يبق عليهم إلا مصارحة رجال الوفـــد برغـــائب الأمة التي انتدبتهم عنها، ومكاشفته بما ترضاه لنفسها. وهذا المؤتمر السوري العام هو الذي نوه عنه سمو الأمير فيصل في بعض خطبه، وذكـــر مـــراراً

---

١ – جريدة حلب ١٦ حزيران ١٩١٩.

لزوم انعقاده، ليكون للأمة رأي مجموع متحد معتبر يصـــدر عـــن رجـــال مؤتمرها الذي انتخبته عنها. فمهمة هذا المؤتمر عظيمة يجب على الأمـــة أن تعرفها، وأن تحسن انتخاب الأكفاء الذين يقدرون منفعة البلاد الحقيقـــة حـــق قدرها، أولي الغيرة على مصلحة الأمة. وعلى الأمة أن تختار للتكلم عنـــها أرباب العقول الراجحة، فقد وصلنا لزمن يجب علينا فيه أن نترك كل محابـــلة وننظر للأصلح والأنفع للأمة، لأن هذا المؤتمر سيكون بيده توحيد مطـــالب السوريين وهو مثال الأمة السورية، فعلى قدر اعتناء الأمة بانتقـــاء رجالـــه يكون عمله قويماً ورأيه مستقيماً، وإذا قصّرت الأمة وأثّرت عليـــها مطـــامع من يجب الظهور فقط من غير مادة علمية تؤهله لمثل هذا الانتـــداب، فـــلا تلومّن إلا نفسها، وكما أن الوطنية الصادقة تقضي على المنتخب (بالكســـر) أن ينتخب من يعتقد به اللياقة والاستحقاق وحسن القيام بما عهد إليه، تقضـــي أيضاً على المنتخب (بالفتح) أن يكون منصفاً عادلاً، حتى إذا آنـــس مـــن نفسه العجز عن القيام بأعباء هذه المهمة نفض يديه منها وتعلل عن قبولـــها، رجاء أن يستلمها من هو أوفق للمصلحة وأقدر على العمل. وبهذا يكون قـــد أتى بأنصع دليل على صدق وطنيته، وأنه لا يهتم لمنصب أو مركز يشـــغله من غير أن يكون قادراً على إيفاء حقه.

نحمد الله أن رأينا الإخلاص سائداً على جميع أفراد الأمة، ولكن يلـــزم أن نعرف الطريقة القويمة لاستعمال إخلاصنا بمحله، ووضع ثقتنـــا بمـــن هـــو أجدر بالانتخاب بحسب الواقع ونفس الأمر. رب من يظـــن أن هـــذا الأمـــر يلتبس على الناس بحسب اجتهادهم لأن كل إنســـان يعتقـــد فيمـــن ينتخبـــه الجدارة، فنقول : كما أن الحلال بين والحرام بيّن، كذلـــك أولـــو الأصالـــة بالرأي والاقتدار على العمل وإخلاص الضمير وذووا العلم الواسع والعقـــل الناضج والخبرة والحنكة من أبناء الوطن، لا يَخفون على أحد. وما علينـــا إلا أن نخلو بأنفسنا، ونتجرد عن كل نعرة تتغلب على العاطفة الوطنية، ونفكـــر

بأولي السابقة الحسنة والعمل الصالح، فننتخب منهم بسائق الحب الخالص للوطن، فنسأل الله أن يوفقنا لحسن الانتخاب لنكون ممن أحسن لنفسه وأمته صنعاً.

تسامح العرب أيام مجدهم [1]

إذا قلّبنا صفحات التاريخ نرى مبلغ تسامح الدول العربية مع من كان يعيش معها في وطنها، ويشاركها في بؤسها وضرّها وتجمعه معها رابطة الجنسية والوطنية، ونتحقق أن العرب هم بمقدمة الأمم الذين بلغ بهم هذا التساهل مبلغاً لم تصل إليه حتى المدنية الجديدة في هذه العصور. كانت الرابطة العظمى التي تربطهم مع غيرهم من الأمم المجاورة والعناصر التي كانت تعيش معهم هي العلم والحكمة فقط، فهم حلفاء العلم أين كان ومن أي رجل خرج، فرابطة العلم هي التي كانت معتبرة بينهم ولا يكادون يذكرون رابطة أخصّ منها ولا يأبهون لغيرها، فإذا وجد من لم يدن بدين الملوك والحلفاء من أهل العلم والنظر، يرتبطون به، ويجلّون قدره ويسلمونه أرقى المناصب، أكثر من ارتباطهم مع من لا تربطه معهم سوى رابطة المذهب فقط. فقد قال الخليفة العباسي المأمون " إن العرب قد زحفوا بجيش من أطبائهم اليهود، ومؤدبي أولادهم من النسطوريين ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة مما أتوا على حدوده بأسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين " والذي نفهمه من كلام هذا العاهل الكبير؛ إن العرب لم ينظروا في حياتهم العلمية والاجتماعية إلى رابطة سوى رابطة العلم ولم يقيموا وزناً لغيرها، حتى أن أساتذة أولادهم وأطبائهم لم يكونوا ممن يرتبط معهم بلحمة الدين بل

---

١ - جريدة حلب ١٧ تموز ١٩١٩.

كانوا مع بعدهم عنهم فيها في غاية القرب منهم والاختلاط معهم، من هنا تعرف أن طبيعة العرب وفطرتهم ليس فيها ما يدل على أقل شيء، مما يسميه اليوم البعض " تعصباً " فهم لا يتعصبون ولا يتشددون على مخالف لهم بالعقيدة أبداً، وإذا أردنا سرد الأدلة والشواهد على ذلك يطول بنا المقال، ويكفي لبيان تساهلهم وتسامحهم إن أرقى المناصب في أزمان سيطرتهم كانت توسد لمخالفيهم في العقيدة، فقد كان طبيب المنصور العباسي الشهير (جيورجيس بن بختيشوع) الفيلسوف الكبير وله حكاية مع المنصور يطول ذكرها، ونحن نشير إليها لتكون دليلاً واضحاً على ما عند العرب من حرمة أهل العلم والارتباط معهم.

وخلاصتها أن الطبيب المذكور طلب من المنصور أن ينقل إلى بلده لما مرض ليدفن في مدفن آبائه، وأصرّ في الطلب، فجهّزه المنصور ووصله بعشرة آلاف دينار (وهو المشهور بالإمساك) وكذا نال المكان العالي عند الخليفة المهدي المنجم (تيوفيل بن توما) وكان علي مذهب الموارنة، ويوحنا البطريق وكان أميناً على ترجمة الكتب وغيرهم ممن لا يسعنا ذكرهم في هذا المقال.

فالعرب لم يذكر التاريخ لهم وصمة التعصب على أبناء وطنهم كما يذكره لغيرهم من كثير من الأمم، فهم قد جروا على قاعدة (الدين لله والوطن لأهله) منذ عرفهم التاريخ وإذا كنا نحسب بعض الوقائع التي أثارتها أعاصير السياسة في بعض الأزمنة المتأخرة، أنها ناشئة عن تعصبات دينية نكون أخطأنا بتمحيص الحقائق. فالعرب الذين أثبتنا فيما تقدم من الشواهد الجزئية، ونثبت كل وقت فيما لدينا من الشواهد الكثيرة مبلغ ارتباطهم مع أبناء وطنهم وقومهم، هل يعقل أن يخالفوا فطرتهم في هذا العصر الجديد ويجروا على تقاليد القرون الوسطى ؟ وقد صرح كبار الساسة في هذه الآونات مراراً : أننا مرتبطون مع جميع أبناء الوطن بأعظم رابطة تربط

الأمم وتوحد كلمتها، وهي الرابطة القومية التي هي اليوم محترمة بالدرجة الأولى لدى العالم المتمدن.

الأبحاث الهامة والصحف[1]

الصحف التي تملأ أعمدتها بالمقالات النافعة، والأقوال الرائعة والحكم الجامعة والآراء المفيدة والأفكار السديدة، هي التي تكون قد وضعت نفسها فيما خلقت لأجله من الإرشاد والتعليم وتقويم الفكر المعوج وتهذيب الأنفس ودلالتها على الصراط القويم، وهذا شأن عقلاء الصحفيين الذين يهمهم أمر ترقية وطنهم وتعليم قومهم والنهوض بأمتهم إلى مستوى السعادة. بعكس الصحف التي تعمد إلى الأقوال السخيفة، والأفكار الضعيفة وتبكيت الناس وإثارة الأضغان وإيقاد نيران الأحقاد، فهي التي قد خرجت عن سنن طبيعتها وابتغت غير سبيل المخلصين الذين لا يكتبون كلمة إلا ويتوخون من ورائها نفعاً جزيلاً للوطن والأمة، وإذا رأوا من يتحكك بهم أو يودّ المناقشة التي لا تجدي نفعاً ولا يجني منها إلا العداوة والنفور تركوه حتى ينفذ ما عنده، إذ خير ما يجاب به السكوت " وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما " هذا هو شأن أولي النظر ذوي الأفكار الراقية والعقول الراجحة، فهؤلاء هم الذين يقدرون أقوال الحكماء حيث يقولون " مثلُ الحقد في القلب إذا لم يجد محركاً مثلَ الجمر المكنون إذا لم يجد حطباً، فليس ينفك الحقد متطلعاً إلى العلل كما تبتغي النار الحطب، فإذا وجد علة استعر فلا يطفئه حسن كلام ولا ليـن ولا رفق ولا خضوع ولا تضرع ولا مصانعة ولا شيء دون تلف الأنفس وذهاب الأرواح " هذا ما حذرتنا منه العلماء وخوفتنا من عواقبه الحكماء،

---

١ - جريدة حلب ٣١ تموز ١٩١٩.

أفلا يجدر بالصحافي وهو حامل لواء الأمة أن يجري على حسب ما قررته لنا نصائح المفكرين، وأن يكون المثال الأعلى لغيره إذ هو القدوة وهو الذي قد وضع نفسه موضع المرشد الحكيم ؟ فهل من الحكمة التنابذ وإرسال قوارص الكلام بدل ما يلزم أن نكون أول الساعين في بث روح الوئام ؟ الأمم تطالت بأعناقها نحونا تنظر ما ذا نصنع في فترة استقلالنا، تنظر درجة استعدادنا وبعض الصحف على ما كانت عليه من عهد عهيد. أمامنا أعظم المباحث الهامة التي تنفع الأمة في حالها واستقبالها، فلم لا نطرقها ونستخرج لقومنا منها اللذيذ النافع، هل وفينا كل ذلك حقه ؟

هل ضاقت علينا المواضيع التي تهم الخاص والعام ؟ كلا لم نوفها حقها، ولم تضق علينا المواضيع، بل يجب على المخلص البحث عنها ومطالعتها واقتباس الفوائد منها ثم إهدائها للأمة، وبذلك نكون قد خدمنا أمتنا وهيأنا لها أسباب النجاح، وإلا فلا لوم على أحد إذا كانت أمثال هذه الصحف منبوذة لدى العقلاء،لا يطالعونها لما يعهدون بها من الأبحاث التي لا تنفع بل قد تضر، وما أشد خسارتنا إذا قيّد لنا التاريخ في صحيفة أخبارنا، يوم نصبح خبراً، ما لا يرضاه لنفسه ذو نهية وحجى. إذا كان قلمنا قد تعود على ما هو عليه، فلنترك هذه المهنة قليلاً حتى يشتد عزمنا وتصح نيتنا ويخولنا استعدادنا الذاتي وتحرير النافع وكتابة المهم وحسن التوسل بإيصال نصحنا للعامة وإفادتهم. وإذا آنسنا من أنفسنا قدرة على إصلاحها وتغيير خطتنا وهو شأن أولي الكمال فلنفعل ولنسر على الطريق التي يمكننا أن تسير الأمة بأجمعها عليها وراءنا، وإلا فالأمة تتركنا وحدنا وتبتغي غير سبيلنا من حيث لا نشعر. فنكتب ونتعب ونصيح ونصخب والأمة لا تأبه بما نفعل لأنها سبرت غورنا وعرفت ما وراء صيحتنا، ولا نظن أن العامة تغفل عن إدراك هذا فنخسر من حيث نأمل الربح، ونسيء ظن الناس بالصحف فنكون قد رجعنا إلى الوراء بدل التقدم إلى الأمام. فلنلتق الله بالأمة ولا نكتب إلا ما

يجمع قلوب الناس ويوجد كلمتهم ولا نتبع الـــهوى فنـــهوي بـــأبعد الـــهوي والسلام.

ذكرى المولد النبوي الشريف[1]

في شهر ربيع الأول يتذكر المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ولادة ذلك البطل العظيم والنبي الكريم ؛ الذي أتى من الأعمال العظيمة بمدة أقـــل من ربع قرن بما لم يتأت ولن يتأتى لأحد من نوابغ الأمم الإتيان بمثله فـــي قرنين أو أكثر، أرشد خلال هذه المدة الوجيزة أمة كانت في الجاهلية وعمايـة وضلالة وغواية كفر بواح[1] وشرك صراح، يأكل القوي منـــهم الضعيـف وينتهبه ماله وحريمه ولا يبالي.

اجتث منهم جراثيم عادات ضارة كوأد البنات وأكـــل الدمـــاء والميتـــات وقطع للأرحام وإعلان بالسفاح، وأزاح عن عقولهم أصداء خرافات أخـــذت من نفوسهم بتطاول الأيام مأخذ العقائد الراسخة كالاعتقاد بأضـــاليل الكهنـــة وتأليه للأحبار والرهبان، عادات شنعاء وخرافات ســـخيفة تـــنزل بـــالنفوس البشرية إلى حضيض البهائم الراتعة والأنعام السارحة.

فأرسله الله تعالى والناس على ما ذكرنا، فمد ذراعيه لتلك الأمـــة وأخـــذ بضبعيها وأهاب بها للتيقظ والاعتبار، فأجاب داعيه منهم أولو الفطر الســليمة الذين لم يستأسروا للمظاهر الفخمـــة، ولـــم يســـتعبدهم الإعجـــاب بـــالنفس والاستكبار عن الحق فأخذوا بحجزته[2] وتشبثوا بأذياله، فما لبثوا إلا عشـــية أوضحاها حتى صاروا ولاة الأمور وفاتحي الأقاليم وهادمي عـــروش مـــن

---

١ – نشر في الجزء الأول من كتاب علمي احتماعي أدبي صدر بعنـــوان (خواطـــر) لجامعه عبد الحسيب الشيخ سعيد، صاحب جريدة الهدف الحمويـــة، المطبعـــة الوطنيـــة، دمشق ١٩٢٩ ص ص ٤٠ ــ ٤٤

جاورهم من الملوك ومطهري جزيرة العرب من كل رجس وشرك. لم يخدمهم في عملهم هذا فضل قوة وعدد بل كان أعظم ميسر لعملهم نور الحق الذي كان يسعى بين أيديهم. وتعاليم العدل التي رسمها لهم نبيهم، ذلك الذي اجتذب قلوب من جاورهم من الأمم فانقادوا لحكمهم طائعين وانتظموا بسلك جماعتهم مختارين. فاستلموا زمام الأحكام وقاموا مقام تينك الأمتين العظيمتين - الرومان والفرس - ودالت الدولة لهم، سنن الله التي لا تتبدل: وهي تمكينه تعالى في الأرض لمن حكم بالعدل والتزم جانب الحق، ونسفه دعائم الأمة التي تستلب حرية غيرها وتجور على رعيتها وتكم أفواه من أراد التظلم منهم وبث الشكوى لمن عساه يشكيهم.

هكذا يتذكر المسلمون ما سلف لهم من العز الشامخ والمجد الراسخ بفضل ما بذله ذلك المولود العظيم من الجهد في تأسيس ذلك العز والمجد، يتذكرون كل ذلك ثم يرجّعون البصر في حياة ذلك النبي العظيم، فيرون من الآيات الباهرة والمحاسن الكريمة من أخلاقه وسيرته ما إن اقتفوا أثره ونهجوا نهجه، لعاد لهم الزمان طلق الوجه؛ باسم المحيا، مفترّ الثغر، معيداً لهم ما رواه عنهم من نضرة نعيم وعز مقيم. تلك الأخلاق الكريمة التي احتذاها الأصحاب الكرام، فأنجز الله لهم ما وعدهم.

كانت أخلاقه عليه الصلاة والسلام، وما كان يأمر به من مستحسن الآداب، أعظم عون له على القيام بأعباء تلك الآمال العظيمة. فقد كان يأمر بالصدق والأمانة، ويشدد بترك الخيانة وينهى عن التباغض والتحاسد، وتفريق الكلمة وتمزيق الشمل، ويحرض على التعطف على الفقراء والأيتام، وخفض الجناح ولين الكلام، وكان يحث الناس على البكور في طلب الرزق، ويستنهض القادر على الكسب أن يأكل من كدّ يمينه، وكان يقول :" ما أكل أحد طعاماً خير من أن يأكل من كسب يده" وكان يأمر بالتداوي من الأمراض ويقول: " إن الله لم ينزل داء إلا وأنزل له دواء"، وكان ينهى عن

الشحّ ويقول :الكنز كيّ من النار" وكان يوصي رسله إلى البلاد بالرفق بالناس وحسن معاملتهم والتيسير عليهم، ويقول لهم:" يسّروا ولاتعسّروا وبشّروا ولا تنفروا فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين".

هكذا كانت تعاليمه التي عمّت الخافقين وانتشر نورها بالمشرقين فاهتدت بلآلئ نورها الأمم، وانجلت بها عن عقولهم حنادس الظلم، فارتفعت وعلت، وضربت الدهر بصوت عزتها فاستقام لها طوع يديها. أفلا يجدر بنا معشر المسلمين أن نحتفل بهذه الذكرى العظيمة، إن كان غيرنا من الأمم يحتفلون بذكرى نبغائهم وعظمائهم.

فقراءة قصة المولد الشريف من العلماء ما هي إلا ذكرى رئيسنا الأول ونبينا المكمل" أبي القاسم" عليه الصلاة والسلام. غير أن بعض من ألّف قصة المولد الشريف من العلماء تساهلوا، فوجد في غضون ما كتبوا آثاراً واهية لم تخرج في الجوامع الصحيحة، على أن ما ورد فيما ورد بالمسانيد الصحيحة والكتب المعتبرة عند علماء الحديث كفاية وغنية عن تلك الآثار المردودة.

وقد اختلف في أول من فعل الاجتماع في شهر ربيع الأول على عمل المولد، فذكر العلامة بن تيمية أن أول من احتفل "مظفر الدين" صاحب" أربل" المتوفي سنة ٦٣٠ هجرية. وقال المحقق تقي الدين المقريزي في خططه:" إن الخلفاء الفاطميين كانت لهم أيام ومواسم يتخذونها في طول السنة تتسع بها أحوال الرعية وتكثر نعمهم. منها الموالد الستة، وهي مولد النبي صلى الله عليه وسلم، ومولد الحسن ومولد الحسين ومولد فاطمة الزهراء رضي الله عنهم ومولد الخليفة الحاضر" انتهى كلامه.

ولا يخفى أن دولة الفاطميين أقدم من دولة المظفر، ولعله أُهمل شأن المواليد بعد الفاطميين، فجدد مظفر عمل المولد النبوي بأربل، ثم أخذت الناس في كل صقع في تجديد ما اندرس وأحداث ما لم يكن إلى يومنا هذا.

وكان المظفر يعمل كل أنواع البر وإكرام الفقراء زمن المولد. وقد أطال ابن خلكان في وصف ما كان يعمل، فلا حاجة للإطالة بذكره.

فعلى المسلمين أن لايضيعوا مثل هذه الفرصة التي هي خير وسيلة للاجتماع والقيام بالأعمال النافعة لهم من حياتهم، وعلى العلماء أن يقوموا بعد قراءة المولد بخطب فيبينوا لهم فيها الأخلاق الكريمة التي كان عليها نبيهم، ويطالبوهم بالرجوع إليها ليقوموا من كبوتهم وينهضوا من عثرتهم، فلا ترجع الأمة لمجدها السابق إلا إذا رجعت للتمسك بأخلاقها السالفة. والناموس الذي لا يتغير بذلك هو قوله تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم..).

هنّاء يا سعد(١)

هل تعتبر مصر وفلسطين وسوريا أن معركة الانتخابات التي قامت بمصر على ساق وقدم كانت من أشد المعامع هولاً وأعظمها خطراً ؟ حيث اصطدم الوفديون بقوة السلطة المصرية والإنكليزية وقوة جميع الأحزاب المعاكسة، وقد استعمل هؤلاء ضروب الترهيب والترغيب ليكون حزبهم فائزاً ومرشحهم ظافراً، وعندها وقفنا منتظرين متسائلين هل تفوز كل هذه القوى المتضافرة على حزب سعد فنكتب لمصر أنها لم تبلغ سن رشدها ولم تفرق بين عدوها وصديقها، حيث ألقت مقاليدها لمن لم تعجم عوده ونخبر إخلاصه ؟ أم هي حقيقة كما يقال أنها رئيسة البلاد العربية وناشرة الحضارة الشرقية والدماغ المفكر لجميع أبناء الناطقين بالضاد ؟.

---

١ – افتتاحية جريدة المقتبس ١٩/٣/ ١٩٢٥.

وقفنا نرقب عن كثب ونحن وجلون، لأن أبناء هذا الشرق عميت عليهم الأنباء فأكثرهم لا يفرق بين النافع والضار، وهو سريع التصديق لما يذاع سريع النسيان للماضي، يصلح أن يقال فيهم أتباع كل ناعق. حتى لو فرضنا رجلاً حبس حياته في سبيل أمته، ثم قام له حاسد أو منافس يتهمه بتهمة كاذبة أو يرميه مما هو بريء منه لصدقه الكثيرون، ولضربوا صفحاً عن ماضيه الزاهر وسيرته المرضية ودرئه ما رماه خصمه به عن نفسه.

غير أن مصر لم تظهر بهذا الضعف العقلي، بل كانت عند حسن ظننا ووضعت نفسها بالمنزلة اللائقة بأمثالها، وكانت أعقل من أن تخدع وأكبر من أن تنطلي عليها حيل الماكرين وتغرير المندسين. فلقد أظهرت بهذا الموقف الرهيب ثباتاً عظيماً وحنكة ودربة يغبطها عليها كثير من أبناء هذه الأصقاع. فليس الهناء إذاً لمصر وحدها بل هو لنا أيضا معشر العرب، حيث ظهر هذا الفلاح العظيم على يد أبنائنا، وستكون مصر قدوة حسنة لسائر الأقطار العربية.

فهناء يا مصر بسعد وحزبه، وهناء يا سعد بأبناء مصر الذين عرفوا لك حق جهادك وشدّوا أزرك ولم يفتّوا بعضدك، فبارك الله بكم أبناء مصر ورزقنا رشداً سياسياً يضارع رشدكم هذا ! فلتعتبر أحزاب مصر المشاكسة للوفديين ولتخفف من غلوائها، ولتعلم أن الأمة أضحت عالمة بما ينفعها لا تصيخ بأسماعها لمن لم تثق بإخلاصه ونيته، ولا تقيم وزناً لمن جرى وراء هوى أو مطمع ذاتي. أما فلسطين فالعبرة لها من هذا الحادث ألزم وهي بها أجدر حيث ابتلتها السياسة الغاشمة بالعدو اللدود، بالشبح الصهيوني المخيف فهي على شفاً جرف إذا انهار (لا سمح الله) فليس وراءه قيام لها. فعليها إذاً أن تنضوي تحت علم اللجنة التنفيذية التي عملت بإخلاص وصدق على مقاومة الصهيونية، وتلتفّ حول شيخها الموقر ورئيسها الجليل، وتنبذ الأحزاب التي تألفت لغايات أقل ما يقال فيها حب الأثرة والحسد وصدع

الركن الوطني القائم بوجه الصهيونية، فالاتحاد هو أعظم سلاح بيد الضعيف. فلتعتبر فلسطين بجارتها مصر، ولتكن الأكثرية الساحقة بجانب اللجنة التنفيذية التي أدلت بأنصع حجة وأسطع برهان على صدقها وثباتها بمقاومة العدو وحسن نيتها، حتى يقوى أملنا بنهضتها وفي خلاصها من الأحبولة التي نصبت لها ووقعت بشركها، أما سوريا فلم تلمّ شعثها وتنظم نفسها وتعتمد على حزب وطني حتى الآن، ولكنها على قدم الاستعداد لذلك وشيكاً. فهي إن ساعدت الأقدار يجب على أبنائها أن يضعوا كل ثقتهم بحزب الشعب[1]، حزب الوفد، حزب الشباب الناهض، حزب المخلصين المهتدين الذين يسيرون بخطتهم على هدى ونور، لا يغشون الأمة ولا يخدعونها ولا يمكرون بها ولا يضللونها ولا يكتمونها ما يراد بها وعن طريق المنافع الذاتية ناكبون، وعلى المبادئ التي تنطبق على وفق مصلحة الأمة سائرون.

هذا الحزب هو الذي يجب على الأمة السورية أن تلتفّ حوله وتضع ثقتها به، إذ هو منها وإليها. هذا الحزب هو الذي يجب أن يكون مرشحوه الظافرين مهما وُضعت أمامه العراقيل، وحُفرت له العواثير. يجب أن يكون منهم رجال المجالس النيابية، ومجالس البلدية، والإدارة، ورجال المعاهد العلمية، بل وموظفو الحكومة، فلئن تكن رجال الحكومة من حزب الصادقين خير من أن تكون من جماعة النفعيين المتذبذبين. فهل يعتبر إخواننا السوريون بحزب الوفد المصري، فيقدّروا حزب الشعب قدره فيكون لهم كحزب سعد بمصر محامياً عن حقوقهم ذائداً عن حياضهم، ويكونوا له عضداً وساعداً فيظهر بالانتخابات المقبلة، إذ يستمد قوته من الشعب (ألا إن حزب الله هم الغالبون).

---

١ – حزب الشعب الذي برز في أواخر نيسان ١٩٢٥، تكوّن من الوفود الشعبية؛ التي كان على رأسها وفدا حلب ودمشق، ومن زعمائه فارس الخوري ود.عبد الرحمن الشهبندر ولطفي الحفار (ب).

ذكرى الشهداء[1]

يحق لرجال قضوا في سبيل الواجب الوطني أن يشاد ذكرهم ويخلد فخرهم ويمجد على مرور الأعوام قدرهم، وأن تصنع لهم التماثيل وتقام لهم الهياكل وأن تحزن الأمة يوم ذكرهم كبيرها وصغيرها ذكرها وأنثاها، إن دمشق لم تقصر يوماً من أداء هذا الواجب المقدس، فهي حرسها الله بطليعة البلاد التي أحيت هذه الذكرى الخالدة بصورة علنية عمومية، غير أنني لم أسمع أن حمص وحماه وحلب وبقية البلاد السورية كانت تقوم بهذا الأمر، بالصفة التي يستحقها، ولعل عذرهم أنه لم يصرح لهم رسمياً بذلك. أما وأن الأمر أصبح مأذوناً من قبل الحكومة على ما بلغنا وصدر بذلك مادة قانونية، فصار من الواجب اللازب على كل بلد في سوريا وعلى كل قرية أن تقوم بأعباء هذا العمل، وعلى الشبان أن يسمحوا بنفيس أوقاتهم لترتيبه أحسن ترتيب وإتقانه أكمل إتقان، ليهيئوا أنفسهم وليعدّوا عدتهم وليكملوا ما نقص منها، ولتهتز سوريا من فلسطينها إلى فيحائها في ذلك اليوم، وليعد الخطباء خطبهم المؤثرة الحماسية التي تثير الأشجان وتهيج الأحزان وتستنزل الدموع وتمطر نقمة الأمة على الظالمين الذين يقفون سداً حائلاً دون حركة الشعوب وتقدم الأقوام.

قصّرت حماه وغيرها في السنين الماضية، أما اليوم فيجب أن نتدارك قصورنا ونعمل على جعل هذا اليوم يوم حداد عام ومأتم عظيم على من فجعت بهم الأمة العربية من رجال لا تنجب أمثالهم البلاد إلا بعد أعوام وسنين، وكانوا لو أتيح لهم البقاء من أجلّ رؤساء هذه الأمة وزعمائها، في يومنا هذا، حيث نفتقد الزعماء ونفتش على قادة مخلصين. نعم إن رجالاً

---

١ - افتتاحية جريدة المقتبس ٢٢ / ٤ / ١٩٢٥.

يقولون حينما تدنو منهم المنية (الكلمة للعريسي المرحوم[1]) : " مرحباً بك يا أرجوحة الأبطال إنما على الجماجم تبقى العروش فلتكن جماجمنا أساس المملكة العربية " لجديرون بكل تكريم من أمتهم التي مانسوها وشبح الموت أمامهم، فهل يجوز لنا أن ننساهم وأن لا نُحدّ يوماً بالسنة عليهم. لا أخال أبناء البلاد إلا باذلين أقصى جهدهم في هذا السبيل، ومن قصّر منهم بالأمس فسيكون اليوم من السابقين، لئلا ترنو إلينا أرواح الشهداء فتعاتبنا وترسل إلينا الكلمات القارصة المبكية !

حماه : ابن حجة

اللغة العربية وأبناء مارون[2]

قبل أن ابتدئ المقال لابد لي من قيد كلمة شكر خالص للصحف الوطنية بدمشق وبيروت وغيرهما من العواصم العربية ؛ التي تجاهد في سبيل اللغة والقومية وتناضل دونهما وترشق أعداءهما بأمضى السهام فجزاها الله خير ما يجزي عاملاً على عمله.

لو كان الأمر مقصوراً على أبناء مارون بلبنان لضاعت فيه العربية وغار ماؤها وغاب نجمها، ولحلّت محلها إحدى اللغات الغربية التي يعشقها أولئك الغواة هواة التأورب والتفرنج أو قل غواة الكراسي والمناصب وغلاة الطائفية. فيا لضياع اللغة بلبنان ويا لهوانها على أبناء مارون شعب الله ...

إن المناقشة التي حدثت بالمجلس النيابي اللبناني بشأن اللغة العربية وجعلها رسمية وحدها أو تشريك الإفرنسية معها، أبانت لنا بأجلى بيان أن

---

١ - الشهيد عبد الغني العريسي (ب).

٢- افتتاحية جريدة المقتبس ٦ / ٦ / ١٩٢٦.

الأكثرية بالمجلس المذكور لا تبالي بلغة البلاد أن تحل محلها لغة غيرها حلولاً تدريجياً، ولم يدركوا أن شركة القوى قد تنتهي بالاستئثار بالأمر والغلبة على الضعيف.

ما كنا نأمل من أكثرية المجلس العتيد أن تميل هذا الميل على لغتها، بل كنا نأمل منهم أن يكونوا بمقدمة الذائدين عنها المدافعين. إن من تجول جولة بدواوين الحكومة اللبنانية يدرك ما حاق باللغة العربية من التلاشي والاضمحلال، حيث يشاهد ما يقرب من دواوين ليون وبوردو وباريس هذا عدا محاكم القضاء التي ابتليت بالإدغام المعلوم!

ضجّ كثير من الكتاب الذين يهمهم أمر لغتهم من تفاقم الخطب وخافوا الإجهاز على حياة اللغة بأرض لبنان، فرفعوا أصواتهم شاكين من مغبة الأمر، فهل من سميع أو شفيع؟

ألم تبلغ مسامع حضرات الأكثرية بالمجلس، التي وافقت على ما أُوحي إليها، هذه الأصوات المرتفعة والحجج القاطعة التي أدلى بها المخلصون.

فرحماك اللهم بأمة قلب لها بعض رجالها ظهر المجنّ، وعقّها بنوها وصاروا يعملون على تقليص ظل لغتها من بلادها.

إن لنا عتاباً يطول مع المارونيين الذين أثبتت أكثريتهم أنهم مع الدهر على هذه الأمة ولغتها، ولابد لنا قريباً من فتح صفحات السجل الذي قيّدنا لهم به أعمالهم هذه وهنالك نستقي من عتابهم وعتاب غيرهم، ممن كانوا على الأمة مع الزمن!

إذا زال العتاب فلا وداد ويبقى الود مابقي العتاب

نعم إن فجر الحرية لاحت أعلامه وبرقت بشائره ولم يبق إلا القليل حتى ينبثق ضياؤه ويبدد الظلمات المتراكمة، وهناك نصفي الحساب مع هؤلاء ونبين لهم خطأهم بلسان صريح. لانشك أن من أبناء مارون من يدافع عن لغته ولكن الأكثرية التي عليها المعول كشفت لنا عن نيتهم بصراحة ما

بعدها صراحة فليس للأقلية أن تحتج علينا، وإن كنا نشكر دفاعها لأنه لا يمحو ألف سيئة حسنة واحدة.

أنا لا أقطع الأمل من لبنان وإن كان هناك ما يدعو لقطعه، لأن الزمن كفيل بإرجاع أبنائه لصوابهم وتعريفهم أن لبنان أصغر قطعة بسوريا، تكتنفه من جهاته الأربع كالأم.

لعاب الأفاعي القاتلات لعابها وأرى الجَنْيَ اشتارته[1] أيد عواسل

ويحيط به رجال لا يخافون بالوطنية لومة لائم، أشداء على أعدائها، رحماء بمن يعشو إلى ضوئها، وقد قرب الزمن الذي يفهمون به الحقيقة الناصعة. عجباً ببعض جرائدهم التي تهرف وتقلب الحقائق الناصعة، أجهلوا أن لدينا ما يقطع حججهم ويدفع باطلهم، ولكن لكل أجل كتاب.

جاء شقيق عارضاً رمحه إن بني عمك فيهم رماح

لا أدري ماذا يبغي أبناء مارون من هذه الأمة الناهضة، أيبتغون قتل لغتها وهي محاطة بقادتها وذادتها، والمروق من قوميتها ؟ والقومية العربية أعز من أن ترنو بطرفها إليهم، فمهلاً مهلاً يا شعب الله ورويداً يا أبناء مارون.

مهلاً بني عمنا مهلاً مواليـنا لا تنهشوا بيننا ما كان مدفونا

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتوذونا

" أبو تمام "

---

١ – اشتارته: شرت العسل واشترته : جنَتْه وأخذته من موضعه (ب).

إلى ملوك العرب[1]

من لم يعظه الدهر لم ينفعه مـــا راح به الواعظ يوماً أو غـــدا
من لم تفده عبراً أيامـــــــــه كان العمى أولى به من الـهدى

نعم العمى أولى من الهدى بمن لم تفدهم عبر الأيام ولم يتعظوا بنوائـــب الحدثان، فلقد قرّعنا الدهر بأعظم المصائب وهزّتنا زلازل الـــهمائم ونحـــن سادرون غافلون وفي حيرتنا مضطربون، يضرب بعضنـــا رقـــاب بعـــض ويحارب الأخ أخاه وهو يحسب أنه يحسن صنعاً.

حدا بنا لكتابة هذا المقال ما قرأناه عن توتر العلائق بين الإمـــامين ابـــن السعود وحميد الدين، فأكبرنا الأمر وهالنا النبأ، ولم تملك عبرتنا أن ذرفـــت من مآقينا القريحة وندبنا حظ العرب الذين ابتلوا بهذه التفرقة المشؤومة وكـلد اليأس يستولي على قلوبنا، لولا بقية أمل بزعماء النهضة وعقلاء الأمة.

يا ملوك العرب ! أما كفى لهذه الأمة تفرقاً وتناحراً وقد بلغـــت القلـوب الحناجر من جراء سفك الدماء وخراب الديار، حتى قام قائمكم اليـــوم — إن صح نبأ القيام — ليخوض غمار حرب تلتهم الأخضر واليابس وتأتي علـــى أخر نقطة من دم هذه الأمة، يرقص لها الأعداء طرباً وتمكّن براثن الغريـــب الطامع من بلادكم المقدسة ووطنكم العزيز، وكل ذلك في سبيل أمـــور يجـــد لها العاقل ألف مسلك للتخلص من مضائقها !

يا ملوك العرب ! إن فعلتم ما يدفعكم إليها الطامعون لبلادكم وأقدمتم على حرب ضروس فلتكونن القاضية عليكـــم، الداعيـــة لدخـــول العـــدو الأزرق لديياركم واحتلال بلادكم وأنتم تنظرون، وحينئذ تضمحـــل قوتكـــم ويســـهل ابتلاعكم لقمة سائغة للأمم الفاغرة أفواهها، فاعتبروا يا أولي الألبـــاب لمـــن

---

١ - افتتاحية جريدة المقتبس ٧ / ٧ / ١٩٢٦.

تقدمكم وها أن جيرانكم جانب بلادكم يقاسون الآلام أفلا تبصرون وتسمعون.

يا عقلاء العرب ! الأمم تقف حولنا تنظر لأعمالنا فتسخر منا إن تدهورنا بهوّات الاختلاف، وتضحك كلما أمعنا بالشقاق من عقول لا يدري أربابها أين يصرفون قوتهم ويجهلون عدوهم الحقيقي. فلئن أطفأتم جذوة هذا الخلاف وبيّنتم للمتخالفين غب الأمر وضرره عليهم قبل غيرهم تكونوا خدمتم بلادكم ووطنكم أجلّ خدمة، وإن كانت الأخرى وغلبتم على أمركم فعلى الحرية السلام وعليكم تقع تبعة الأمر. أيها العقلاء إن قصّرتم في بذل المجهود والتوسط لحسم الخلاف، فأنتم المسؤولون غدا عند الله عن أمة عظيمة عريقة في المجد يسفك ملوكها دماءها ويذبحون رجالها وبالتالي يقعون بفخاخ أعدائهم.

الله الله يا ملوك العرب، بعز تهدمونه بأيديكم ومجد تحطمونه عمداً منكم وأمة تقتلون رجالها جزافاً وتتفذون قواها سدى.

لا يكن بأسكم بينكم شديداً ولا يصح عليكم قول القائل :

أسدٌ علي وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر

هلا كررت على غزالة الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر

اجمعوا الكلمة واشحذوا الهمة ومدوا أيدي المصافحة لبعضكم، لنحمد عملكم ونقدس اتفاقكم ويخط لكم التاريخ أسطراً من نور على صفحاته، فالتاريخ لكم بالمرصاد يحصي عليكم أعمالكم، فإما أن تكون حقيقة بالإطراء وتربحون رحمات الأجيال القادمة، وإما أن تكون بعكس ذلك فأنتم تعلمون ماذا يقول عنكم التاريخ للأحفاد المقبلة.

الله الله يا ملوك العرب! بهذه الأمة التي عز ناصرها وذل عزيزها، فأصبحت تستغيث وتسترحم ولا من مغيث ولا راحم، وبينما هي تأمل منكم نصيراً وغوثاً إذا بالنصراء يتخاذلون وبالمساعدين يتصارعون وبشباك

المستعمرين يتساقطون فإنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، اجمع كلمة ملوك العرب على ما يرفع شأن هذه الأمة ويعلي منارها، إنك سمع مجيب.

القومية والطائفية[1]

(عروبة لبنان)

لم يمض بضع أيام على نشرنا بعض الفصول من كتاب الشيخ (أدوار الدحداح)[2] حتى أتحفنا البريد برسائل تنثر أزهار الثناء على وطنية المؤلف وتمسكه بالحقائق والمجاهرة بها، ولما كنا نعلم أن المشار إليه لا يقبل بنشر أمثال هذه الرسائل، اكتفينا بنشر ما هو تعليق على فصوله ودعم لأفكاره الحرة وآرائه الصائبة. وها إننا نبدأ اليوم بنشر المقال الأول والذي جاءنا بهذا الصدد من عالم فاضل إليك نصه :

صرح الأستاذ الفاضل (أدوار الدحداح) أن العنصر الإسلامي من سني وشيعي ودرزي يقارب العنصر المسيحي بالعدد فلا يمكن أن يذوب به أو أن تهضم حقوقه وهو صابر ساكت، وبقي عليه أن يبين في هذا المقام ثلاثة أمور :

أولها: إن أجزاء العنصر الإسلامي وهم السنيون والشيعة والدروز قد غلبتهم المصائب وثقفتهم التجارب وأدركوا فوائد الاتحاد فأصبحوا جسماً واحداً كالبنيان المرصوص خوفاً من أن تبتلعهم حيتان الطائفية اللبنانية،

---

١ – افتتاحية جريدة المقتبس ٢٦ تموز ١٩٢٦.

٢ – كان الشيخ (أدوار الدحداح) اللبناني الماروني قد نشر الكتاب المشار إليه حول عروبة لبنان (ب).

وهذا الاتحاد وحده قوة لا يضارعها شيء ولا يزيلها ساعد مهما اشتد وغلظ.

ثانيها : إن العنصر الإسلامي بلبنان وإن كان مكافئاً للعنصر المسيحي إلا أنه أكثر منه رياضة جسم وأصلب عوداً وأقوى ساعداً وأصبر على الشدائد وأجلد لدى مكافحة الأهوال، وهذه الصفات تجعله بنظر علماء الاجتماع راجح الكفة، غالي القيمة، عالي المقدار.

ثالثها : إن العنصر الإسلامي بلبنان لو كان واقفاً موقفاً إيجابياً مع الحكومة المنتدبة كالعنصر المسيحي لكان له التقدم بلا مراء ولكانت له اليد الطولي بالحكم والرئاسة، هذه المسائل يجب التصريح بها لأبناء لبنان الطائفيين لئلا يخدعوا بالسراب.

ثم ذكر مسألة المهاجرة، وأن أكثر المهاجرين من المسيحيين وأن الحال لو دامت على هذا المنوال نصف قرن لأربى عدد المسلمين بلبنان على غيرهم، إلخ ما قرّع به دعاة التفريق.

كل ما أتى بهذا الصدد من الأرقام الملموسة لا يجوز إنكاره وهو حق واضح، ولكنني أرى أن حوافز المهاجرة وعوامل ترك الوطن تزداد يوماً عن يوم فربما حرم لبنان من أبنائه قبل الأجل الذي ضربه (الدحداح) بكثير، وتكون الأكثرية التي ذكر أنها ستكون للعنصر الإسلامي قريبة العهد جداً، لما في طبيعة المسلم من الصبر والتحمل والرضى بالعيش القليل، ونزوع نفسه إلى وطنه، وحنينه إلى عطفه، وشدة خوفه على مقوماته ومشخصاته لئلا يندغم في غيره من الأمم. ثم ذكر السيد (أدوار) ضعف رأي القائلين بالوطن القومي المسيحي الذين صفّقوا لهجرة الأرمن لبلادهم، وذكر أن الأرمن أمة لها خصائصها ومميزاتها، فلا يمكن أن تندغم باللبناني أو أن تنسى لغتها،وذكر أنهم ــ أي الأرمن ــ سيضربوننا الضربة القاضية اقتصادياً بما استولوا على أزمة التجارة والصناعة.

نعم أيها الأستاذ، إن التعصب الطائفي الأعمى بأبناء لبنان هو الذي حـــدا بهم للترحيب بمن لم تجمعهم معهم آصرة لغة وتاريخ وذكريـــات مشـــتركة، وأزيدك على أنهم يكونون كل آن حساماً مهنداً بيد كل من يريـــد أن ينفـــث بأبناء لبنان ما يشاء من الأهواء، فليفهم ويتدبر دعاة الطائفية الذين اشـــتروا هذا الحسام القاطع الذي قد يرجع عليهم وبالاً ونكالاً بمســـتقبل هـــذه الأيـــام وأدلة ذلك ظاهرة للعيان.

ثم ذكر أن نتيجة ما يسعى إليه دعاة الطائفية هي إثارة الأحقاد بين أبنائـــه المغلوبين على أمرهم، وفي سوريا المحدقة بهم المتحفزة لأخذ حقها منـــهم، وفي جميع الشرق العربي الواقف لهم بالمرصاد.

هذه كلمة صادرة عن فكر ذكي وقاد ونظر صائب للمستقبل، فلقد صـــور الحقيقة للمتهوسين وبذل النصح للمخدوعين، وأنا أزيده على ذلك أن جميـــع الأقطار العربية لتنظر بعين المقت والازدراء، وتعد خائناً لوطنه وأمته كـــل من لم يعش لضوء العروبة ويفاخر بحب القومية العربيـــة ويـــترك التدثـــر بإطار الطائفية البالية، وستجازي كل صانع بما يصنع وسيعلم الذين ظلمـــوا أي منقلب ينقلبون..

ثم ذكّر السيد (أداور) باسم العائلات الإسلامية والمســـيحية فـــي لبنـــان، وذكر جوارهم وأقاربهم، فأجهشنا لهذه الذكرى وقذفنا اللعنات على من يريـد تفرقة هذه الأمة الواحدة بلغتها ووطنها وعاداتها وتقاليدها وتاريخـــها، فـــلا تنفصم عراها، وسورية واحدة لا تتجزأ وهي عربية بلبنانها وأرزها وبقيـــة جبالها وساحلها وداخلها. وكل ما فيها عربي صنع بأيدي العرب وهو أثـــر من حضارتهم. فلينعق غربان التفرقة بما شاؤوا فالحق ظـــهر نـــوره وبـــهر الأبصار. أكثر الله بلبنان من أمثال الدحداح ولا أقال عثار المفرقين الجناة.

حقائق لا أوهام[1]

(القومية والطائفية)

نشرت المقتبس الغراء مقالاً من كتاب للسيد (أدوار الدحداح) سماه (سياسة لا وجدان)، فرأيت الأحرى به أن يسميه حقائق يصدقها العيان ويؤيدها البرهان لا خرافات وأوهام، أبان فيه خطل الرأي بالقائلين بلبنان الكبير والوطن القومي المسيحي إبانة نمت عن أصالة بالرأي وسداد بالقول، وأيد كلامه بأدلة محسوسة لا تقبل الرد لما فيها من جري مع الطبيعة بمجاريها وسير معها بمساريها. فأثلج صدرنا لتقرير هذه الحقائق والكشف عنها، لعل من أعمى الهوى أبصارهم يرجعون للحق، مذعنين له، عارفين أن الطائفية الضارة لا يمكن أن تكون محوراً تمشي عليه الشعوب المتمدنة وسوريا الناهضة، بل هي من بقايا ما رثّ وبلي من الآراء التي أخنى عليها الدهر، أيام كان الباباوات قطب رحى سياسة العالم والمطارنة مديري دفة الأمم. نعم ذاك زمن مضى بمضي دورة الفلك ولا يمكن رجوعه إلا إذا رجع الفلك بدورانه وقام من في القبور من القرون المتوسطة يصخبون ويضجّون وبأناشيد المسيح يهزجون وعلى وطن مسيحي يعملون.

أما اليوم، وقد نضجت فكرة القومية وتلاشت الطائفية فمن العبث محاولة إيجادها، بل ومن العته والتوك[2] أن يجري بعض الغواة وراء أوهام وخيالات، يستحيل تحقيقها، مبنية على عواطف خاطئة نُسج عنكبوتها بمعامل التعصب الطائفي التي يديرها نواب الآلهة ويشتغل بها الكهان والرهبان من رجال الإكليروس ويغرون بها نفراً من الموارنة.

---

١ - افتتاحية جريدة المقتبس ٢٨ تموز ١٩٢٦.

٢ - التّوك : الحمق الشديد (ب).

ما كان المسلمون يوماً من دعاة الطائفية المحقونة، ولـــم يكـــن كتابـــهم وأدباؤهم ورجال الفكر فيهم ممن ينشرون الطائفية خبراً أو يقتصـــون لـــها أثراً، وها هي جرائدهم ومجلاتهم تُعرض على الأنظار ليل نهار، فهل نجـــد فيها من أثر الدعاية دينية أو وطن قومي إسلامي ؟

معاذ الله أن يتسكعوا ــ وهم العنصر المخلص ــ بدياجير العمايات أو أن يلووا على هذه الترهات، بل ترى بكل سطر من مقالات المفكرين ما يدعـــو للقومية العربية ويقدّسها ويجعلها أقوى الروابط ليعيش مع المســـيحي علـــى أهنأ بال وأحسن حال، فينظر له بعين الأخوة والاحترام مادام محافظاً علـــى لغته، مقيماً على قوميته، مخلصاً لوطنه وبلاده.

نعم لقد أثبت المسلمون مقتهم للطائفية وتمسكهم بـــأهداب القوميـــة أيـــام الحرب العامة، أيام كسروا القيود وقاموا بوجه أبناء دينهم الترك، ولم يكـــن رائدهم إذ ذاك إلا إخلاصهم لقوميتهم وأمتهم، فما راعـــهم إلا قيـــام بعـــض الغواة الغلاة يدعون لخلق وطن مسيحي بقلب البلاد السورية، فرجع بعـــض العامة على أنفسهم باللوم وكاد الكثير منهم يفتتـــن ويرجـــع عـــن المذهـــب القومي. إن الإثم في ذلك على نفر من أبناء مارون الذيـــن أشـــعلوا جـــذوة الطائفية وقاموا يستضيئون بنورها، يحسبون أنهم على شيء ولـــو لـــم يقـــم عقلاء المسلمين وكتابهم لتثبيت العامة وإفهامهم أن شـــر الطائفيـــة ســـوف ينطفئ عما قريب وتسطع بدله شمس القومية العربية التـــي أيدناهـــا بـــالفعل زمن الحرب العامة، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

إن فكرة الاستتراك بسوريا لم يخلقها سوى الدعايات الطائفية التي يقـــوم بها أبناء لبنان، فكلما شددوا بها كلما عكست على المصلحين فكرة القوميـــة ودعت كثيراً من العوام للاصطباغ بالصبغة التركية والخلاص من الدعايـــة الطائفية المارونية اللبنانية، فهل يعلم أولئك أن الإثم الأكبر في تقويض دعـائم القومية العربية يعود عليهم، وإن هدم هذا النبأ كان بمعاولهم.

نحمد الله أن قام من أبناء لبنان أمثال (أدوار الدحداح) يلقن إخوانه معنى القومية ويكشف لهم الضرر المادي من الدعوة الطائفية، ويفهمهم أن وبال ذلك سيحيق بهم عما قريب ويناديهم بلسان صريح.

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار

فسر أيها (الدحداح) ولا وجل، فإن الحق معك وأقلام الصادقين تؤيدك، واعلم أنك بسيرك هذا تبرهن لنا أن لبنان لم ينقطع الأمل من أبنائه، وأنهم إذا رجعوا لصوابهم وتابوا لرشدهم يكونون خير معوان لهذه الأمة؛ التي خذلها بنوها وقام بوجه نهضتها بعض العاملين من أبنائها.

نحن على يقين أن مثيري هذا الغبار القائم بجو لبنان هم عشاق المناصب ورواد الوظائف، وقد موهوا على أبناء جبلهم وأروهم الباطل حقاً والحق باطلاً، فعميت السبل على العامة، فقاموا يتخبطون وببوق لبنان الكبير ينفخون، وبطريق الغي يعمهون.

الحجاز وإيران[1]

فهمنا أخيراً من مطالعة الصحف أن حكومة إيران منعت رعاياها من أداء فريضة الحج، خوفاً عليهم من أن تنالهم يد بأذى أو تصيبهم معرّة[2] من قبل الإخوان الوهابيين. ثم قرأنا حديثاً لوزير إيران المفوض مع أحد محرري جريدة السياسة وتناقلته الجرائد وقد تناولنا اليوم (أم القرى) وهي الجريدة الحجازية الرسمية ترد على كلمات وزير إيران. قرأنا ذلك كله

---

١ – مجلة الوحي، السنة الأولى العدد ٨ حماه ١٩٢٦ص ص ٢٥٣-٢٥٦.

٢ – المعرة : الأذى الشديد (ب).

بإمعان، وها نحن نورد كلمة في هذه المسألة التي تهم العالم العربي والإسلامي، عسى أن يكون فيها ذكرى متعظ لقوم مؤمنين.

لا أرى سبباً شرعياً لمنع حكومة إيران رعاياها من أداء فريضة توفرت جميع شروطها، وهي القدرة المالية وأمن الطريق والقدرة البدنية لمن يريد الحج بنفسه من غير إنابة، ولم يبلغنا عن صاحب الشرع الإسلامي ولا عن أصحابه ولا عن الأئمة المجتهدين وغيرهم من علماء الدين أن الحج يُمنع لمسائل تعد من الحشويات التي دخلت الدين، وليست منه، كعدم التمكين من زيارة القبور زيارة أشبه بالعبادة منها بالزيارة، أو لمنع ما يماثل ذلك من البدع التي يتنزه عنها الدين الحنيف.

إن عهدنا بحكومة إيران الجديدة أنها حكومة رشيدة لاتهمها البدع الزائدة، بل هي قبل غيرها تسعى لمحاربتها، وأن فكرة التجدد والنهوض لا تتفق مع هذا المنع ؛ الذي ليس له سبب إلا التجدد والنهوض والإصلاح بحذف الزوائد على جوهر الدين التي أدّت إلى ضعف الإسلام والمسلمين، فما هو السبب الحقيقي الداعي إلى مقاومة الإصلاح الإسلامي الذي يقوم به جلالة الملك ابن السعود مع أن جلالة الملك رضا خان أول الساعين لتأييد هذه الفكرة بما ظهر من أعماله ؟ حقاً، هنا مثار الحيرة ومدعاة الاضطراب الفكري وأن يذهب الإنسان كل مذهب لتأويل هذا المنع ... فهل هو منع سياسي لعبت به يد السياسة متسترة وراء الدين ؟ أم تغلبت بإيران عناصر التقهقر والرجوع إلى تمكين البدع وتقويتها على عناصر الإصلاح، فلم تجد الحكومة سوى هذا المنع مخلصاً لها، وأرادت الحكومة أن تساير بعض الرجعيين ولو أضر ذلك بجوهر الدين ؟ أم أمر آخر لم يبلغ علمه عقولنا القاصرة وأفهامنا الحاسرة ؟

إن حكومة مصر التي وقع لمحملها ما وقع لم تشأ أن تمنع حجاجها من السفر لعدم توفر مبرر شرعي أو عقلي، أفلا يكون ذلك أولى بحكومة إيران

التي لم يقع من ذلك شيء على رعاياها ؟ فـــألف مرحـــى لمصـــر العاقلـــة الحكيمة التي غلبت أهواءها عقولها، وأيّدت المعقول على العواطف العصبيـة التي فرّقت شعبنا الإسلامي أيدي سبأ.

إذا أردنا أن نستفتي علماء المسلمين ومجتهدي الشيعة بقولنا : مـــا قـــول علماء الدين بمن يمنع الناس عن الحج لأسباب واهية لا تصلـــح أن تكـــون أسباباً شرعية، وقد توفرت ببلاد الحجاز جميـــع الشـــروط التـــي يقتضيـــها الشرع، هل يأثم فاعل ذلك أم لا ؟ أفتونا مأجورين ...

فماذا تراهم يقولون وبماذا يجيبون ؟

دعنا من كل هذا، وخذ بنا إلى الدعاية الكبرى التي يقـــوم بـــها مفكـــروا المشرق لإيجاد ارتباط واتفاق بين جميع الأمم الشرقية، أترى يتفق هذا المنـــع مع ما يدعو إليه أساطين العقل والرأي من توحيد الكلمة ونبذ الشقاق ؟ وهـــل يجوز لإيران أن تكون سداً حائلاً دون هذا الاتفاق مع دولة عربيـــة شـــرقية تعد من أقوى دعائم العرب والإسلام، لأمور ضعيفة وأسباب واهية معـــدودة من جملة الأمور التي لا يأبه إليها العقلاء، والتي هي أولى بأن تكـــون فـــي عداد ما فني وبلي من العادات القديمة ؟

ألا يعد هذا المنع ضربة هائلة على الرابطة الشرقية التي يجب أن تكـــون حكومة إيران العلية أول من يؤيدها ويحترمها.

أما جواب حكومة أم القرى وجريدتها علـــى كـــلام الوزيـــر الإيرانـــي المفرض بمصر فهو جواب جماعة مسلمين يقدمون رضا الله ورسوله علـــى رضا المخلوق ولا تبالي أسخط الناس أم رضوا كما قال الشاعر :

لكل شيء إذا ضيعتـــه عـــوض ... وليس لله إن ضيعت من عـــوض

وقال الآخر :

إن كان لي عند ســـليمى قبـــول ... فما أبالي مـــا يقـــول العـــذول

وهو جواب يرضاه الله ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم، وأما نحن معشر السوريين فقد قرأنا عقيدة الوهابيين فوجدناها عقيدة سلفية محضة لايشوبها شيء، وهم أعظم عنصر إسلامي يحافظ على آثار السلف الصالح وعلى روح الشريعة السمحة، فلذا نعلن على رؤوس الأشهاد أننا ممتنون مما يجريه جلالة الملك ابن سعود من الإصلاحات الدينية والاجتماعية بالحجاز، وأول من يبادر حفظاً على الروابط المبنية بيننا لأنه يرفع عقيرته ويقول : كلنا سعوديون وحنبليون. فالأمل من حكومة إيران الرشيدة أن تبادر لإحكام الرابطة الشرقية وتسمح لرعاياها بالحج بعد أن تتفاهم مع حكومة الحجاز على شروط مقبولة للطرفين، فذلك أدعى للاتفاق والائتلاف.

ليس في سوريا شعوب بل شعب واحد عربي[1]

جاء في رد (المسيو بريان) على أسئلة (المسيو كاشان)[2] أن فرنسا في قيامها حق القيام بالانتداب، الواقع تبعته عليها، تتمم مهمة الحكم الذي طلبته الشعوب السورية إلخ.. ما ذكر. نحن لا نريد مناقشة ولا حساباً لأن الوقت لا يسمح بشيء من ذلك، إنما نريد أن ننظر للأمر من الوجهة العلمية الاجتماعية ونبدي رأينا فيه، ليظهر هل في سورية أمم مختلفة وشعوب متعددة، أم هي شعب واحد متحدر من آباء تلتقي أنسابها وتتفق أخلاقها فلا يكون تباين جنسي أو اختلاف لغوي ؟

لا أدري، هل ذكر التاريخ منذ ألوف السنين أن سوريا يسكنها أقوام متشاكسة متخالفة في العادات والأخلاق والعنصر واللغة ؟ وهل ضرب

---

١ - افتتاحية جريدة المقتبس ٢٤ شباط ١٩٢٧.

٢ - الأول وزير خارجية فرنسا والثاني نائب في الجمعية الوطنية الفرنسية؛ وكان الأخير قد قدم استجوابا لحكومته حول سياستها في سوريا (ب).

علماء الاجتماع وعلماء الأقوام والأنساب مثلاً للأقطـــار المحتويـــة علـــى شعوب متعددة بسوريا؟ وهل إذا كان ثمة أقليات لا يمكن أن تؤثر بمجموعـها على كيان الجسم السوري العمومي يجوّز لنا هؤلاء العلماء إطـــلاق هـــذه الأوصاف عليهم؟؟ أرونا أي لسان بسوريا يزاحم العربية ! أرونا أية أكثريـــة عنصرية تقابل العنصر العربي ! أرونا ما هي الحدود الجغرافية التي تفـــرق هذه العناصر والشعوب عن بعضها ! أرونا ما هي الفـــوارق الاتنوغرافيـــة التي تفرق هذه الأمم المختلطة المتكاثرة ! فإذا كـــان شـــيء ممـــا ذكـــرت موجوداً أرجو أن يذكره لنا أربابه الأخصائيون به، لنتعلم شيئاً جديـــداً عـــن وطننا لا عهد لنا بعلمه.

كان يضرب المثل بالبلاد العثمانية والبلاد النمساوية باختلاف الأمم فيـــها حيث تحتوي كل مملكة منهما على أقوام متعددة لها مميزاتها الخاصة التـــي يقرّ بها علماء التاريخ والأنساب، أما سوريا فلم يدر بخلدنا قط أنّها بلاد بـــابل على عهد تبلبل الألسنة وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ! هل يضير أمة من أمم الأرض الكبيرة والصغيرة وجود بعض أقليات امتزجوا بالسكان، ألجأتـــهم الضرورة للسكن بينهم وجرت عليهم أحكام الأكثرية المطلقة ؟ كلا إن ذلـــك ليس بضائرهم شيئاً.

نعم لا ننكر أن سحر البيان وقوة العارضة قد تجوز علـــى البعيـــد عـــن الديار، ولكن أهل الدار يعرفون ما عندهم وما ادخروا فيما بينهم، فـــإذا لـــم يكن عندهم لبن وعسل مثلاً فمن المحال أن يصدقوا أن لديـــهم ذلـــك، إلا أن يقام الدليل عليه ودون ذلك عقبات. " الحكم للأكثرية " من القضايا البديهيـــة المسلمة فلم نجعلها نظرية تحتاج لنظر واستدلال تارة ونسلم ببداهتـــها تـــارة أخرى. السياسيون معذورون، لأن قناعاتهم مبنية علـــى أمـــور خطابيـــة لا برهانية، فهم يحاولون أن يثبتوا ما يوافقهم ويقرروا ما يلائم سياستهم ســـواء بذلك أكان مؤيداً بالدليل والبرهان أم غير مؤيد.

إن المؤثر ببذار الشقاق بين أبناء سوريا هي المدارس الطائفية والمعاهد التبشيرية وكنا نؤمل من الحكومة المنتدبة العمل على إبطالها وإلغائها، ولكن لم تثمر كل التشبثات التي قام بها الذين يريدون أن تكون الفكرة العامة ببلادنا مبنية على أساس القومية. إذا ليس الذنب ذنبنا، ونحن نصرخ والصحف لا تفتأ تكتب بضرورة توحيد التعليم على أساس اللاطائفية، فمن الملوم على اختلاف المشارب والمنازع التي هي وليدة تلك المدارس!؟ أقول اختلاف المنازع لا اختلاف العناصر والأجناس والشعوب، فالشعب واحد والأمة واحدة والوطن واحد.

تكررت عبارة اختلاف العناصر بسوريا على ألسنة رجال السياسة، وكلما ذكرت تلقى من يقوم بالرد عليها، لئلا يُظن أن سكوت السوريين إقرار على اختلافهم حقيقة، في حين أن هذا الاختلاف الشعبي ليس له أثر إلا بمتخيلات زاعمة.

الحارث

إقصاء القريب وإسكان البعيد[1]

(أو وطن قومي للأرمن)

أرسل مكاتب الأحرار في الأستانة رسالة، ذكر فيها أن حكومة يونان تشكو كثرة الأرمن في بلادها فقررت جمعية الأمم نقل بعضهم إلى فرنسا ولكن هذه رفضت قبولهم بحجة أن فيها أزمة شديدة للعمال فرأت جمعية الأمم أن توفد مندوبين لحكومة اليونان للمفاوضة في أمر نقلهم إلى سوريا

---

١ – افتتاحية جريدة المقتبس ٢٤ آذار ١٩٢٧.

!وتقول جريدة جمهوريت التركية أن هناك مفاوضة مع المفوضية العليا في بيروت لإسكان سبعين ألف أرمني في سوريا.

قرأنا هذا النبأ وكررنا قراءته لما اعترانا من الحيرة والدهشة، ثم عدنا لأنفسنا مفكرين فيما حل بسوريا من الويلات والمصائب، فمن وطن قومي للصهيونيين، إلى وطن قومي للأرمن، إلى وطن قومي لآخرين وآخرين، فما تمالكنا أنفسنا من إرسال دمعة حزن على ما انتابنا!

هاجر لفلسطين إلى هذا التاريخ ما يقرب من ١٥٠ ألف من اليهود وإلى سوريا ما يقرب من هذا العدد من الأرمن، وإذا زدنا على ذلك سبعين ألفاً نكون قد سبقنا فلسطين بزيادة مهاجرينا على مهاجريهم، وحينئذ نكون في مسألة الوطن القومي سواء، لا فضل لسوريا الشمالية على سوريا الجنوبية لشيء غير عدد مهاجريها. فلتقر عيناً فلسطين، حيث لم تكن الوحيدة في بلائها، بل شاركتها بذلك سوريا ولكن بخطوات واسعة. فما رأي أهل البلاد بهذه المسألة الخطيرة، وإذا لم تقبل حكومة اليونان ولا حكومة فرنسا إسكان هذا العدد العظيم في بلادهما، فهل نحن أحسن حالاً منهما حتى نبتلى بهذه الهجرة ؛ التي هي كالسيل الجارف لا تبقي على شيء من العمل الصناعي أو التجاري بين يدي أهل البلاد إلا وجرفته ولا على يد عاملة إلا أوقفتها عن العمل وشلت حركتها ؟ إن أهل البلاد تهاجر منها زرافات زرافات من قلة العمل ووقوف الحركة الاقتصادية،فإذا كانت البلاد تضيق عن إعاشة أهلها، فكيف يكون الحال إذا داهمها هذا البلاء، أفترى تبقى بالبلاد بقية من أهلها الأصليين ؟ أم يركبون متون البحار يبتغون مرتزقاً لهم؟

نأمل من أبناء البلاد المخلصين الذين يهمهم أمر وطنهم أن لا يغفلوا عن مراجعة المفوضية لتحقيق النبأ، حتى لإقناعها بضرر هذا النقل بالبلاد، وأنه يكون سبباً لخرابها وتركها خاوية على عروشها ينعق بها البوم، وأن تدارك

الأمر قبل وقوعه يسير، ولكن إذا وقعت الواقعة يصعب جداً الرجوع فيـــها إلى الوراء بعد إبرامه وتنفيذه.

وإن نعجب فنعجب لمنع أهل البلاد السورية عن دخولـــها وإباحـــة ذلـــك للغريب ! وإليك البيان : إنه في العدد الذي نشر فيه خبر هجرة الأرمن مـــن جريدة الأحرار، ذُكر أن جماعة من السوريين القـــاطنين فلســـطين والذيـــن تجنسوا بجنسيتها لأسباب قاهرة رفضت قناصل فرنسا السماح لـــهم بـــالعودة إلى وطنهم المحبوب، بحجة أنهم اكتسبوا جنسية غير جنسيتهم وأن معـــاهدة لوزان تمنع دخولهم إلى البلاد التي نزعوا عنها جنسيتهم. هذه رواية الأحرار عن أحد هؤلاء السوريين الفلسطينيين. ونظن أن معاهدة لوزان تمنـــع أهـــل البلاد من دخول بلادهم وتبيح ذلك للغرباء يتخذونها وطناً.

ولا ندري هل من العدل أن يقصى القريب ويقـــرب البعيـــد ؟ ولا يؤبـــه لحقوق السكان ويضرب بمصالحهم عرض الحائط !

لا أظن أن هذا الأمر – أمر السبعين ألف – يتم لاســـيما ونحـــن بـــدور التفاهم مع الحكومة المنتدبة، وقد قاسى الوطن من أمثال هذه الهجرة محنـــاً جعلته يتعلم مقدار ضررها والقيام لدفعها ومنعها حق القيام.

لقد أصبحت سوريا بفضل هذه الهجرات على شفا هوة اقتصادية عظيمـــة، حيث تزداد الأيدي العاملة بدون عمل فتكثر السرقات والنهب والاحتيال فـــهل تحقق المفوضية ظننا ؟ فترسل تكذيباً تطمئن إليه النفوس وتســـكن القلـــوب المضطربة.

الملك بن سعود وصحف الانكليز[1]

(معان والعقبة ألزم من عسير)

تنقل الصحف العربية في كل يوم عن الصحف الإنكليزية جملاً عديدة، ويفهم من جملتها وتفصيلها أنها وضعت للإيقاع والتحريش بين الملكين العربيين ملك الحجاز ونجد وملك اليمن، وهي تارة تحط من قدر هذا وتارة تغض من ذاك، وتارة تأمر ملك اليمن أن يسلم ملكه لملك الحجاز ونجد، وتارة تثير نارة الفتنة عمياء بين الطرفين. كل ذلك لأن الإمام يحيى لم يوافقها على مطامعها الاستعمارية ويعقد معاهدة لا يرجو منها خيراً، وربما كان لها من وراء إضرام نار الخلاف مقاصد عظيمة لإضعاف الطرفين وإهلاك الفريقين، جرياً على خطة مدبرة بينها وبين إيطاليا الطامعة بالفتح. فهل ينتبه الملكان العربيان لما يراد منهما، ويضربا بأقوال الحكومتين عرض الحائط، موقنين أن قوة العرب يجب أن تدخر لوقت الحاجة ولتحرير بلاد العرب من استعمار الأسود الضارية، الفاتحة أفواهها لتلتقم ما تراه ملائماً لتغذية جسمها ؟.

وهل لملك الحجاز ونجد أن يدرك أن معان (معان والعقبة) اللتين اقتطعتهما إنكلترا من الحجاز هما ألزم له من قطعه عسير ؟ وهل له أن يتحقق أن قطري البحرين والكويت الموضوعين تحت سيطرة الإنكليز هما الساحلان الطبيعيان لبلاد نجد، وأنه يجب عليه أن يفكر أولاً بكيفية إرجاعهما إلى حظيرة بلاد العرب، وأن ذلك خير وأولى من اقتطاع بلاد لم تعبث بها يد أجنبية، يكون من ورائها إثارة حرب ضروس مع ملك عربي مسلم، يكون درءاً لنا عند الحاجة ومساعداً. بلى إن آمالنا معقودة على ذكاء

---

١ - المقتبس، السنة ١٨، العدد ٤٧١٢، ١٥ نيسان ١٩٢٧.

الملك الكريم عبد العزيز آل سعود أن يدرك بثاقب نظره وسداد رأيه؛ أن معان والعقبة والبحرين والكويت مما يجب عليه التفكير بها قبل التفكير بمصير عسير، إن كانت إنكلترا تحب ابن السعود فلم لا تعطيه هذه الأقطار الضرورية لتجارة بلاده وحماية حدوده، ولماذا تفتح عليه باب الطمع بعسير، واليوم تغلق عليه الباب الحقيقي الذي يأتيه النفع منه. ألم تدر إنكلترا أن ملوك العرب لن ينخدعوا بتسويلات شيطانية وزخارف غير حقيقية مبنية على أسس على الكيد للفريقين والحقد على الطرفين، ولو كان يرجى خير من ابتسامات خلابة، لكان أولى بذلك وأجدر الشريف حسين الذي اقتطع عليهم عهوداً ومواثيق، ولكن الساسة لا عهد لهم كما قال حافظ ابراهيم :

وخافوهم إذا لانوا فإني أرى السواس ليس لهم زمام

فكم ضحك العميد على لحانا وغرّ سراتنا سنة ابتسام

نعم لقد ضحكوا على لحانا، وأدخلونا معهم غمار الحرب العامة ووعدونا وعاهدونا، ولكن ما هي النتيجة ؟ النتيجة ما سمعت وما رأيت، فمن المحال أن يقع الملك ابن السعود بالشرك الذي وقع فيه قبله الملك حسين. وكيف ذلك وهو المعروف بالدهاء والسياسة وأصالة الرأي، وحوله من السوريين المتعلمين الذين عاركوا الدهر، فريق عظيم يربأ به عن الجري وراء سياسة عقيمة لا تجر عليه ولاعلى شعبه إلا الوبال والدماء، الأمة العربية أصبحت أمانة في يدي ملوكها، فكل عمل يأتونه مغاير للمصلحة القومية يكون جناية عليها وعليهم،وكل عمل يكون فيه للأمة صلاح يسطره لهم التأريخ، مشيداً بذكرهم، منوهاً بقدرهم. فليس الخصم الحقيقي للعرب إخوانهم العرب، بل الخصم اللدود هم الذين يشعلون نار الفتنة بينهم لينالوا من وراء ذلك حظاً وافراً.

أما آن لملوك العرب أن يفطنوا ويعتبروا، فيمدوا يد المصافحة لبعضهم، ويلموا شتاتهم ويدافعوا عن بلادهم وقومهم.

الفرص كثيرة ولكنها تمر مر السحاب فلا تضيعوها، وانتهزوها، وليكن أول عمل لكم الاتفاق فيما بينكم على ما يرضي الله ورسوله والتاريخ. وليعلم ملوك العرب أن لا صديق لهم سوى قومهم الذين ينسبون إليهم ويعتمدون بالملمات عليهم، فإذا لم يسعوا لنفع قومهم فمن المحال أن يجدوا صديقاً، وفي طيات الأزمان كل يوم دليل واضح على ما ذكر.

إسكان الأرمن بسورية[1]

هل يقبله أهل البلاد

أشيع منذ مدة خبر إسكان قسم وافر من الأرمن يبلغ سبعين ألفاً بهذه البلاد، فقام أرباب الأقلام يُسمعون أصوات الأمة لآذان جمعية الأمة ومفوضي فرنسا بسوريا، وبيّنوا مقدار الضرر الناجم عن جعل سورية وطناً قومياً للأرمن، وأدعموا حجتهم ببراهين عقلية تستند لأمور اقتصادية واعتبارات اجتماعية، فما كان من المفوضية العليا إلا أن كذّبت ذلك مرتين أو أكثر، بالنظر لشدة المعارضة التي لقيتها هذه الفكرة، وقد شكرنا المفوضية لاهتمامها بمصالح البلاد الحيوية وإصغائها لصوت الأمة، وذهب ظننا إلى أن هذا التكذيب كافٍ لإسدال الستار على هذه الأنباء الملفقة. وبينما نحن اليوم نرقب أن نصل إلى حقوقنا وأن تبسم ثغورنا، إذا بالشركات البرقية تفاجئنا بنبأ جديد، وهو أن لجنة الأرمن في جمعية الأمم نظرت في أمر إسكانهم بسوريا، وظهر من بحثها أن نفقات إسكان الباقين يقتضي ١٣٠ ألف جنيه، جمعت منها حكومة لبنان ٣٣ ألف لهذه الغاية، فعاودنا الاضطراب وساورنا القلق مرة ثانية. وكلما تذكرنا تكذيب المفوضية

---

١ - جريدة المقتبس، دمشق ٣٠ حزيران ١٩٢٧.

بالأمس، يخطر ببالنا أنّ ذلك تكذيب وقتي، وقد لا يكون للسلطة بسوريا علم بالأمر، فلا نحسّ إلا والأمر قد قضي، وأبرم المقدور، وأصبحنا تجاه أمر واقع لا مردّ له ولا مناص منه !

والذي أريد ذكره اليوم تنبيه أبناء البلاد أولاً لهذا الخطر الاجتماعي الداهم ؛ الذي سيكون سبباً لزيادة ارتباكاتنا الاجتماعية، وحجة لمن يريد أن يجعل سوريا مفرّقة الأديان، متعددة النزعات، كثيرة الطوائف والعناصر، بحيث يستحيل التوفيق بينها إلى آخر ما يسرده رجال التدليس والتمويه، فهم كل السبب بذلك، ويقومون بتلك الخُطب المموهة والبينات المشوهة ويصيحون بأعلى أصواتهم من فوق منابرهم : إن سوريا جمعية أمم وبرج بابل، فكيف تتفق هذه الأجناس المختلفة أو كيف تتوحد أقوام متباينة الأهواء، متضاربة الغايات. نعم يقولون هذا، وهم السبب، ولكن لسان القوة قد يطغى أحياناً على لسان الحق، فلا يجد الحق معيناً ولا نصيراً، وربّما يقوم صاحب الحق بدافع عن حقه ويبيّن للملأ الأعلى والأسفل أن سوريا من عريشها إلى طوروس شعب وأمة واحدة، متفقة في اللغة والعنصرية والعادات والتاريخ، إلا فئات صغيرة سكنت هذه البلاد على سبيل الضيافة، وهي لا تعد نقطة من بحر الأكثرية الخضم. ربّما يبين ذلك، يكون الأمر قد قضي وحكم على سوريا بالأحكام التي لا تستحقها وليست من مصلحتها في شيء. هذا من جهة ما أردت بيانه لأهل البلاد، ليكونوا على حذر من مثل هذا النبأ، ويدفعوا هذا الضرر عنهم. وأما من جهة خطابنا لفخامة العميد الوقور، فهو أن نذكر له درجة تألم أهل البلاد من أمثال هذه الأنباء، وأن السوريين لا يرضون أن تكون سوريا مهجراً للأمم، وأن في أمريكا وغيرها من البلاد الواسعة ما يمكن أن يستغنى به عن سوريا، وليت جمعية الأمم تبحث عن ملجأ لهؤلاء البائسين بغير هذه البقعة التاعسة. فكفى هذه البلاد وما انتابها من المصائب وحل بها من الرزايا، حتى أصبحت مضرب

الأمثال بالرزء والنكبات فيقال " مفجوع ولا كسوريا " كما يقولون " مـــاء ولا كصدأ ". فنأمل من فخامتكم أن يكون هذا العبء الثقيل نـــازلاً عـــن أعنـــاق السوريين بفضل مساعيكم الحميدة ؛ التي سيسطرها لكم التاريخ ما دمتم فـــي هذه الربوع. هذا ولتعلم يا فخامة العميد أن هذا الرجاء خارج من أعماق قلب الأكثرية، لا بل قلب الجميع إلا من أخذ أجره على النكاية بهذا الوطن، وأراد أن يعيش على أنقاض الديار ورمم الأجسام وهؤلاء فقـــط ينعقـــون كـــالبوم المنذر بالخراب، فيتكلمون بما لا يعتقدون وأحياناً يهرفون بما لا يعرفون.

وحاشا رأيكم الصائب أن ينقاد لمثل هؤلاء المنافقين.

الفصل الثالث : في قضايا التربية

صناعة التعليم[1]

إن لصناعة التعليم بين الصنائع أعلى مكان وأرفع مقام لأنـــها أم الجميـــع وعليها مدار الجماعة. إذ ما من صناعة، مهما نبل مقصدها واشتدت حاجـــة الناس إليها، إلا وهي مفتقرة لها، لما أنها جميعها تحتاج إلـــى معلـــم يبيـــن لأربابها ما تتوقف عليه، يعلمهم ما يحتاج في صناعتهم إليـــه. فـــلا يكـــون الطبيب مثلاً بصناعته، صادقاً، حتى يثـــقّفه المعلمون، وتمر عليـــه جميـــع صفحات صناعته بالتعليم التدريجي، وعلى هـــذا القيـــاس بـــاقي الأعمـــال والصنائع، فإذا كانت هذه الصناعة الشريفة أســـاس جميـــع الصنـــائع، بـــل وأساس جميع الأعمال التي تتوقف عليها حياة الإنسان المدنية، أفلا يجدر بها أن تسمى بأم الصنائع وأصل الرقي ؟

إن لهذه الصناعة في البلاد الراقية المقام السامي في نظر جميـــع طبقـــات الأمة، فكم في مجالس التشريع في أوروبا وأمريكا من معلمين حـــازوا ثقـــة أبناء بلادهم، فأنابوهم عنهم وألقوا إليهم مقاليد أحكامهم. وكل بـــلاد ارتقـــت مدارك أهلها زادت في احترام أرباب هـــذه الصناعـــة، وإعـــلاء شـــأنهم، والسعي وراء كل ما يكفل لهم السعادة.

من المعلوم أن جميع وسائل المدنية الحديثة مر عليها زمن كـــانت علـــى شكل يخصها، وكلما تقدم الزمن تقدمت معه جرياً على السنة الكونية، وهـــي

---

١ – افتتاحية جريدة حلب ١٤ آب ١٩١٩ العدد ٧٠.

"تتبدل الأحكام بتبدل الأزمان" ووفقاً لهذه القـــاعدة الطبيعيـــة جـــرت هـــذه الصناعة فخرجت عن أشكالها القديمة قليلاً قليلاً، إلى أن وصلت إلى ما هـــي عليه اليوم لدى أمم الحضارة. لقد حصل تبدل عظيم في كيفية إلقاء الـــدروس وفي مناحي التعليم والتربية الحديثة سهّل على المتعلمين طرق العلم، حتـــى أنه صار من الممكن أن يتعلم الطفل في سنوات قليلة ما لا يمكنه تعلمه فـــي الأزمان الطويلة، لما كان يعانيه من المشاق الباهظة التي ربما قطعته عـــن طريق التعلم وحرمته من لذة العلم الشهية. وكم شاهدنا من أناس تركوا العلـم وانقطعوا عن طلبه من سوء معرفة معلميهم بطرق التدريس. لذلـــك حـــدث التبدل الذي ذكرته آنفاً بحكم الضرورة بجميع آلات العلم من كتب وغيرهـــا بجميع مسالك التعليم. فألفت الكتب الحديثة على الأصول المفيـــدة وتـــهذّبت طرق التعليم، حتى افتتحت مكاتب مختصة بتخريج معلمين يكونـــون ســـبباً لجمع الناس على العلم لا لتنفيرهم منه وإرهاقهم العسر، فبدلاً من أن تعنتـــي الحكومة السابقة في هذه الأمور، وتجدد خطط التعليم من مدة قرنين كـــاملين، وجدناها لا تلتفت إلى شيء من ذلك حتى نفسها الأخير، وتُركت الأمة تـــهوي بمهاوي الجهل السحيقة وحتى صرنا نشكو من قلـــة الرجـــال المتبصريـــن المتعلمين. فما علينا الآن معشر أبناء العرب إلا الالتفـــات نحـــو المســـتقبل لنرمم ما تدمّر من صرح العلم، ونلافي الأمر، ليخرج لنا نشء جديد يمكنـــه أن ينهض بهذه الأمة إلى مستوى السعادة والنجاح، لعلنا نسترد مجداً غـــابراً وعزاً طواه الزمن عنا، فما الأيام إلا دول، وما الدهر إلا يومان يـــوم لـــك ويوم عليك.

الأخلاق والمعلمون[1]

حسن الخلق مطلوب من كل إنسان والتحلي بالصفات الجميلة يطلب من كل فرد،غير أن ذلك ممن يحترف صناعة التعليم ويشتغل بها أشد لزوماً، لأن أية صغيرة منه أو خلقاً قبيحاً يتصف به من بيده أزمة أخلاق الأطفال ينتقل إليهم وينطبع بنفوسهم بحكم الطبيعة ؛ التي تقضي بالتقليد الخالص من المتعلم، وإذا انطبعت الملكات السيئة بنفوس الصغار فلا يقلعها منهم شيء مهما تعددت الأسباب ولا تفارقهم إلا بالموت، لأنها أصبحت طبيعة لهم وغريزة فيهم، ومن شب على شيء شاب عليه.

المعلم هو الرجل الذي يمكنه أن ينهض بأخلاق الأمة ويحدث فيها انقلاباً أخلاقياً هائلاً، كما تنتظر الأمة منه أيضاً الانقلابات العلمية والمدنية وغيرها فهو ابن بجدتها وعليه معقد الآمال. فإذا كان الرجل الذي تنتظر منه الشفاء سقيماً فمحال أن يشفى العليل الذي يحتاج إلى إمعان نظر، مهما توسلت بجميع الوسائل التي تؤدي إلى شفائه. فالمعلم هو المرآة التي تنعكس على نفس الطفل فتطبع بها إما الخير والعادات المستحسنة أو الشر والعادات المستهجنة، فيجب عليه أن يصقل مرآة أخلاقه لكي لا تعكس على النشء أشعة نارية فتحرق بها جسمه الغض وتجعله آفة على أمته بدل أن يكون عضواً نافعاً.

يظن التلميذ وهو على راحلة التدريس أن كل حركة تظهر من أستاذه هي عين الصواب، وأنه لم يعملها إلا لحكمه قد تخفى على أمثاله فيندفع إلى تقليدها، والعمل بها، عن اعتقاد متمكن في ذهنه بحسنها وإيمان كامل أنها من الأعمال الشريفة، وحجته بذلك أن معلمه الذي يعتقد به الكمال قد أتى بها

---

١ - جريدة حلب ١٨ آب ١٩١٩.

أمامه. هذا مبلغ تأثير أخلاق المعلمين على الناشئة، فبماذا يجب أن يتصف المعلمون، وماذا يجب عليهم إذا كان تأثيرهم على أطفال الأمة الذين هم رجال الغد ؟ ؟.

فيجب على المعلم أن يعرف قدر نفسه، وأنه الرجل الوحيد الذي يمكنه أن يكون من الأمة بمثابة القلب من الجسم، حتى إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله. جدير بالمعلم الذي يدير حركة المستقبل ويهيئ للأمة رجالاً أن ينتبه لنفسه وإصلاح حاله، والأخذ بكل خلة شريفة، وأن يربأ بنفسه عن مظان السوء رحمة بالأمة إن كان يريد لها صلاحاً، وإلا إذا كان متهتكاً لا يبالي بما يصدر عنه من الأعمال الذميمة ولا بما يأتيه ممنكر القول والعمل فقل على الرقي السلام.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

دار العلوم الشرعية(١)

ومراقبة الأوقاف

من جملة الأمور التي يهتم لها العقلاء السعي لإيجاد علماء شرعيين، يقدرون على المطابقة بين الدين الحنيف وبين ما يطلبه العصر الحاضر من قواعد اجتماعية لا بد من التمسك بها للوصول إلى الحياة الطيبة. على هذه القاعدة أسست بحماة دار العلوم الشرعية منذ ثلاث سنوات، وسارت نحو الرقي سيراً حثيثاً لم يشاهد بغيرها من المدارس الشرعية، إذ بينما نشاهد المدرسة الشميصاتية بدمشق ترتطم بصخور الجمود وتموت في مهدها، إذا بمدرسة حماة تقبل العلوم العصرية بأنواعها مع المحافظة على صبغتها

---

١ - المقتبس ٢ / ايلول ١٩٢٦.

الشرعية، حتى أن الداخل إليها لا يرى عليها إلا انتظام المدارس الرسمية من مقاعد على أحدث طرز وتدريس قيّم وأساتذة ذوي اختصاص وتنور وفكر، يهدون الطلاب ليكونوا بمستقبلهم رجالاً بكل ما في الرجولة من المعاني، وقد شهد بذلك مميزوا الفحوص من علماء ووجهاء على ما شاهدوه من الانتظام وحسن التعليم.

غير أنها على انتظامها وفائدتها الكبرى نرجو من مراقبة الأوقاف شمولها بنظر العطف، ومد يد المساعدة لها، وضم المقدار اللازم لميزانيتها، لتبقى مورداً عذباً يستقي منه الحمويون، وذكرى حسنة للمراقبة على ممر الأيام.

المدرسة قامت بالتضحية والمفاداة من قبل معلميها ومديرها، ولولا ذلك لما قبل المدير أن يقبل بإدارتها وبما يقرب العشرين درساً في الأسبوع براتب شهري قدره عشرون ورقة سورية غير مزدوجة، وذلك لتسعة أشهر في السنة فقط، وحرمانه ومعلميه من رواتب الشهور الصيفية مما لا يصبر عليه إلا المفادون المخلصون.

ألا يحق للمراقبة أن تنظر بعين العطف لمدرسة تربّى بحجرها خمسين شاباً، منهم عشرة مكفوفوا البصر لحفظ القرآن وتجويده وجمع القراءات السبع ، مع تغذيتهم بشيء من الدروس العربية والفقهية، وأربعون منهم يدرسون العلوم على تنوعها كما ذكرنا. لتعلم مراقبة الأوقاف إن خير درهم تنفقه ما كان في سبيل الأمة ورفع مستواها العلمي، وتخريج علماء جمعوا بين المعقول والمنقول كما كان سلف الأمة.

وليس البرّ تزيين المساجد بما ينكره الشرع وصرف النفقات الباهظة على الكماليات وترك المدارس مهملة لا يعنى بأمرها ولا يؤبه لها، والبخل عليها بما هي أحق به من غيرها، ولكن البر أن تشاد أبنية المعاهد العلمية

التي هي نبراس الأمة وتصرف عليها النفقات التي تبذر هنا وهناك على مـــا لا ينفع الأمة بفتيل ولا نقير.

إن الأوقاف الإسلامية العظيمة في كل مصر من الأمصار، لو اســـتلمت إدارتها العلمية هيئة إسلامية مرشدة مستقلة، لكان للأمة من ورائها مـــوارد لاتنقطع تصرف على تهذيب أبنائها وتعليمهم، وتكون عوناً عظيماً للمعـــارف لنشر العلم بين مختلف الطبقات وبث روح التعليم الوطني.

لا يكفي لمعالجة شؤون الأوقاف، كلمة استطرادية مثل كلمتنا هـــذه، بـــل يلزم إشباع البحث والمطالبة بجعل إدارة الأوقاف بأيدي مجلس إسلامي، كمـــا هو الحال بفلسطين وأسوة بأوقاف غير المسلمين من الطوائف وهذا الطلـــب حق على كل وطني غيور، هذا وأختم كلمتي اليوم بالرجـــاء بطلـــب تزييـــد ميزانية مدرسة دار العلوم المذكورة بمناسبة تأسيس صف رابع فيـــها، ولا يمكن إنشاؤه إلا بإرصاد الزيادة المطلوبة، مع إلفات نظر المراقبـــة للراتـــب الزهيد الذي يتقاضاه مديرها ومعلموها وحرمانهم من رواتب أشهر التعطيـــل الذي لا يرضى به منصف.

حماة : مطلع

إلى وزارة المعارف(١)

(١)

لا ينكر فضل الأستاذ (شاكر بك الحنبلي) وزير المعارف اليـــوم، ولنـــا الأمل الوطيد بأن يشرع لنا طريقاً واضحاً لأمور مهمة تتعلـــق بوزارتـــه ، منها تدقيق البرنامج الذي سارت عليه سوريا أعواماً عديدة، مـــن غـــير أن

---

١ – افتتاحية جريدة المقتبس ١ أيلول ١٩٢٦

يحدث به انقلاب حقيقي يسير مع الزمن في صلاحه وسداده، وهو بقسميه الابتدائي والتجهيزي يحتاج لتنقيح وتصوير، وأفضل عمل تأتيه لجنة تدقيقه أن تصغي لاقتراحات المعلمين، وتضع نصب عينيها ما يبدونه من الآراء ويذكرونه من الملاحظات عليه. إذ هم جربوا وتعبوا وقتلوا مواده درساً وتمحيصاً، فيجب أن يُحلّ رأيهم بالمحل الأعلى ويوافق على ما يرتأون.

ومن جملة ما ارتأوه جعل اللغة الأجنبية تبتدئ من الصف الرابع، وقد أدلوا بحججهم ونضج البحث بذلك ولم يبق إلا تقريره وتنفيذه.

(٢)

قلنا أن إصلاح البرامج أمر ضروري، وبقدر ما هو ضروري وأساسي يكون إصلاح حال المعلم المسكين الذي يقف حياته ويذيب دماغه ليفيد قومه وأمته. وكيف يقوم بعمل مجيد من يبيت ليله مهموماً ويظل نهاره حزيناً مما يساوره من القلق لتأمين معيشته ومعيشة أطفاله، فقد بلغت رواتب المعلمين بفضل سقوط الورقة مبلغاً يُرثى له، وذلك يضاعف أحزانه ويجعله ساخطاً من حظه الذي ساقه لهذه الصناعة المضنية، والتي لا تقوم بضروریاته. هذه كلمات يدركها الأستاذ الوزير قبل غيره، لأنه مارس التعليم مباشرة وأدرك صعوبته وتأثيره على الجسم. قلنا الأمل أن يحسّن حال المعلم وينال قسطاً من الراحة على عهده. وعلى ذكر الراتب، نلفت أنظار الوزارة إلى أنه يجب أن يكون علم المعلم وعقله وحسن تعليمه وقدمه من مرجحات زيادة راتبه، لا نوع درسه كما جرت عليه جميع الوزارات السابقة، إذ أن المعلم الحاوي الصفات المذكورة نادر لا في الطبيعيات والرياضيات فحسب بل بالعلوم الدينية العربية أيضاً، وليسوا كثيرين الذين يحسنون تعليم اللغة العربية على المناهج التعليمية، فمن الظلم بخس راتب من تحلّى بهذه الصفات المتقدمة لمجرد كثرة من يطلبون هذا الدرس مثلاً، جرياً على قاعدة العرض

والطلب، فنحن إذا سلمنا أن من يطلبها كثير فلا نسلم صلاحيتهم جميعاً وتوفر الصفات المطلوبة بهم، ولا يكون هذا إلا بالقليل النادر الذي يجب أن نحرص عليه ونجعله براتب غيره من رفقائه.

(٣)

وهناك مسألة هي من الشأن بمكان، وهي مسألة الصف السابع بجميع المدارس التجهيزية، فقد رفض تجهيز الشام فيما مضى قبول كثير من الطلاب بهذا الصف لكثرتهم وعدم وجود مكان يستوعبهم، ونخشى أن تُعاد هذه المأساة المُحزنة مرة ثانية في البلاد السورية. أما في حماه فلا بد أن تظهر جلياً هذه السنة، لأن غرفة الصف السابع لاتسع أزيد من ثلاثين وطلاب الدخول يزيدون على الستين، فماذا تأمر الوزارة المحترمة ؟ تأمر برفض الزائدين وفيه من قطع سبيل العلم على الناشئة الفقراء ما تتقطع له أكباد أنصار العلم ! أم تفكر بما يرحب بهم ويقوي أملهم لتكون معواناً لهم على التحصيل والأمر سهل عليها ؟ إذ قد يوجد في المدرسة بعض الغرف التي تسع مقدار من يأتي بالغاً ما بلغ، فيمكنها أن تصدر أمراً بلزوم قبول كل من يود الدخول وتفريغ محل واسع لهم ولو برفع حاجز بين غرفتين مثلاً، ونرجوها عدم الهوادة بذلك. مهما سمعت من الملاحظات إذ أن الجهل الذي في بلادنا هو أعدى عدو لنا، فهل تكون محاربته بتوسيع سبله وسد منافذ العلم على طلابه ؟ وهذه المسألة من الأمور التي يترتب عليها حياة قسم عظيم من الناشئين. ورب تلميذ يرفض قبوله يكون بمستقبله من أعاظم الرجال، وكم من الأعاظم الذين أنشأهم الكوخ الحقير والبيت الصغير، فعدم قبول ناشئ واحد يعد خطيئة وجريمة لا يقدم عليها المخلصون.

(٤)

قرأنا بالصحف مؤخراً أن لجنة تدقيق البرنامج ارتـــأت جعــل القســم الابتدائي خمس سنين والتجهيزي ستاً، بضــم صــف مــن الابتدائــي إلــى التجهيزي، وقد كان مقصد الذين جعلوا الابتدائي ست سنين أن يستثنى أبنــاء الصف السادس من بذل الراتب الذي يؤخذ من تلاميذ التجهيز، وفي ذلك مــن الفوائد لأبناء المعوزين مالا يخفى، فحرمانهم من ذلك بجعل الصف الســادس من التجهيز حرمان لكثيرين من إتمام دروسهم وتعليمهم الابتدائي.

(٥)

إذا أردنا القضاء على الكتاتيب فأفضل وسيلة لذلك تأسيس دور للحضانــة ملحقة بكل مدرسة ابتدائية، ولو كانت ذات صف واحد يعلّم الطفــل مبــادئ القراءة ويؤهله لدخول الصف الأول، وبذلك تقل الرغبات في الكتاتيب وتفنــى فناء طبيعياً، من غير أن نكابد المشاق في إلغائها وإغلاق أبوابها. قد كــانت بعض المدارس الرسمية فتحت هذا الصف ولكنه بقي بلا معلم ، لذلك كــان المعلمون يتذمرون منه، وقد كادوا يغلقون أبواب المدرسة بوجــه الطــلاب لعدم وجود من يعنى بهم ويعلمهم ما يحتاجون إليه في الصــف الأول مــن المبادئ الحرفية. فنرجو من الوزارة أن تعيّن أستاذاً خاصاً لصف الحضانــة لتعم الفائدة ويتوحد أسلوب التعليم الحرفي.

هذا ما سنح لنا نبديه للوزارة المحترمة، حامليه بيد الإخــلاص، راجيــن قبوله فنكون لها من الشاكرين. وكلما بدا لنا ما يحسن عرضه ويفيد العمل بــه لا نحجم عن بيان رأينا، والله الملهم للصواب.

(٦)

بناء التجهيز بحماة[١]

كانت مدرسة التجهيز آمنة مطمئنة في بنايتها المسجلة باسمها فشاعت الحكومة ضمّ تلك البناية لدوائرها الرسمية ، لأنها تلاصق دارها فضمّتها بالفعل وعوّضت المدرسة بدكاكين تساوي قيمتها ، وقد خُمّنت إذ ذاك بثلاثة آلاف ليرة وكسور وبيعت بهذا المبلغ وسُلم للمالية على سبيل الأمانة، فقبضته باسم واردات. فعلى وزارة المعارف أن تسعى لأخذه لأنه حقها، وبدلاً من أن تعمّر بناء جديداً الآن يمكنها أن تتشبث لأخذ الفسحة التي أمام شعبة التجهيز الابتدائية وتنشئ فيها الغرف الكافية، ولا يكلفها هذا العمل نصف المبلغ الموجود بيدها وبذلك تتوحد المدرسة التجهيزية مع شعبتها وتوفر علينا أجرتها الباهظة. ورب معترض يقول أن المدرسة يجب أن تكون على طراز المدارس الحديث، وأن ينشأ بها أبهاء متعددة وغرف منامة إلى غير ذلك، فنقول جواباً له أن هذا الكلام حق وصدق ولكننا نكتفي الآن بما تيسر تاركين ما تعسّر لوقت آخر، ولا ينافي أننا إذا رضينا اليوم بالميسور أن لا نطالب بغيره في المستقبل، والفائدة الكبرى لنا هي الخلاص عدة سنوات من الأجور التي تستغرق بمدة قريبة ما يكلفنا اليوم. فالمرجو من الوزارة وأعضائها المحترمين أن يسعوا للعمل الذي ذكرناه، ليكون لهم ذكرى طيبة مدى الزمن.

---

١ - المقتبس ١٠ أيلول ١٩٢٦

(٧)

تحصيل أجور المدارس من الطلاب

ورد علينا مؤخراً أمر بلزوم تحصيل أجور المدارس الابتدائية من الطلاب، وقد ألغي هذا الأمر منذ سنتين فقط لا غير، فما الباعث لنقض ما تقرر إلغاؤه، ولم يتقرر ذلك إلا بعد مراسلات ومداولات تبينت فيها صعوبة الأمر وأنه عثرة في سبيل العلم. نعم إنه عثرة، لأن حالة البلاد بلغت درجة من الفقر والبؤس ، لا نكاد نتصور أن كثيراً من الآباء إذا كلف لدفع أقل شيء عن تسليم ولده يؤثر حرمانه من العلم مهما كان ذكياً على بقائه، وكثير منهم من يفعل ذلك خشية الإنفاق، والمدارس تجعل التحصيل الابتدائي إجبارياً ومجانياً تسهيلاً لسبل العلم الضروري للإنسان في حياته. وقد بيّنت إدارة التجهيز عندنا مضار ذلك وطلبت إلغاء هذا الأمر، وساعدنا أيضاً المتصرف بهذا الطلب، فهل للوزارة أن ترجع لما كانت قررته سابقاً وهو إلغاء الأجور المذكورة، وفي ذلك من صواب الرأي ما لا ينكره العارفون؟

(٨)

مسألة الكتب

وهنا نذكّر الوزارة بأمر جليل وهو أمر الكتب وتأليفها ثم تقريرها وعدم الإسراع بتبديلها، حيث يعاني المعلمون المصاعب الجمّة ويضيّعون الأوقات الثمينة لجمع الدروس وإلقائها وإملائها على الطلاب واستنساخها، مع أن الأمر يمكن تلافيه بالإيعاز لبعض رجال العلم ليؤلفوا الكتب الموافقة لما يقرر من المواد التدريسية ويطبعوها وقد حل الإشكال. نحن لا ننكر أن هذا العمل يجب له بذل جهد جهيد، ولكنه ليس فوق طوق رجالنا الذين بيدهم الأمر، وإذا قوبل عناؤه بفائدته يهون علينا، وكفانا سبع سنين ونحن عاجزون عن إتمام الكتب الابتدائية، فضلاً عن الثانوية. إن هذا النقص كبير

في شـــؤون المعارف لا يجوز إبقاؤه وعدم الاهتمام له، وإن بيـــن تحويـــر البرامج وتقرير الكتب وتأليفها صلة قوية، فلنبـــاشـــــر بـــهذا العمـــل بعـــد إصلاح المنهج التعليمي لنسد النقص الفادح..

هذه كلمات أملاها الإخلاص، فأرجو أن لا يكون نصيبها الإهمـــال شـــأن الكثير من الأمور.

يكتب الكاتب وينفق ضوء عينيه ليخط ما ينفع أمته، فهو يأمل أن يكـــون لكتابته التأثير المطلوب، وعسى أن نرى من وزارتنا ما يسر المخلصين..

(٩)

تأييد القومية العربية [١]

يظن بعض جبناء المعلمين أن ذكر القوميّـــة فـــي دروســـهم، وتأييدهـــا وتحبيب التلاميذ إليها من الأبحاث الممنوعة المحظورة عليهم، على أنّها لـــم تمنع وقتاً من الأوقات بل جُعل درس المحفوظات مبيناً عليها بنص القـــانون المدرسي ولا يُمكن أن تُمنع، ولو فرضنا المحال ولو كانت ممنوعـــة لكـــان للمعلّم الماهر أن يلج إليها من كل نافذة، فإزالة للوهم مـــن أذهـــان بعـــض المعلّمين الواهمين يلزم التنصيص، وبعد وقت مـــن قبـــل الـــوزارة، علـــى ضرورتها ولزوم إحيائها، وأنّ قدر المعلّم يزداد بزيـــادة الحـــرص وعلـــى المفتّشين أن يحرّضوا المعلّمين على ذلك ويُلقوا على التلاميذ بعـــض أســـئلة تشعر برغبتهم بتلك الفكرة وحدبهم عليها، ويتبع ذلك تحبيبهم باللّغة العربيّـــة وأنّها من آكد الدروس وبمقدمتها. أقول هذا لأنني أرى قلوب بعض المعلميـــن ترجف حينما يذكر الوطن والوطنية والعرب والعربية، فإذا لم يكن لهم سـائق من قبل الوزارة وحافز لهممهم من قبل المفتشين يبقون على خور عزيمتـــهم

---

١ – المقتبس ٢١ ايلول ١٩٢٦

وأفن رأيهم، ولايخفى ما لذلك من التأثير المطلوب علـى نفـوس المعلميـن والطلبة.

وقد كفى ما رأينا من الدعايات الضالة الأعجمية فـي بلادنـا ونتائجـها الوخيمة، ولو كنت وزيراً لطرحت كل معلم لا يؤمن بدين القوميـة العربيـة بزوايا الإهمال. إذاً المعلم يجب أن يكون ذا فكر وقـاد وذهـن ذكـي ينفـذ لضرورة هذا الأمر الحيوي وإن لم يكن كذلك فلا حاجة للأمة به..

(١٠)

تقبل مدارس التجهيز عشرين بالمائة من التلاميذ مجاناً، وهذا عدد قليـل جداً يستوجب حرمان الكثير من أبناء المعوزين الأذكياء من تحصيل العلـم ولقد شاهدت بالعام الماضي عدة فتيان.

نجحوا بالترقي إلى الصف السادس، ومع ذلك لم يقبلوا لأن العدد زاد عن المطلوب وهو عشرون بالمائة، رأيتهم وهم يكفكفون عبراتـهم ولا يـدرون ماذا يصنعون ونفوسهم راغبة كل الرغبة بـالعلم، قيـل لحضـرة الوزيـر المحترم أن يسن سنة حسنة له أجرها وأجر من عمل بها إلى يـوم القيامـة، ويعطي أمراً بإبلاغ هذا المقدار إلى خمسين بالمائة مثلاً، لئلا يحرم طـالب العلم الفقير، ليكون باب التحصيل مفتوحاً على مصراعيه أمام جميع النـاس غنيّهم وفقيرهم ، وبذلك يطفىء لوعة البائسين ويجبر قلوب المساكين ونكـون له من الشاكرين.

(١١)

مسالة المناوبة أي اشتراك المعلمين بالإدارة أمـر معقـول بـالمدارس الليلية، حيث يتفقد المعلم ليلاً حال الطلاب ويكون مرجعاً لشكواهم ووكيـلاً للمدير بالنظر إليهم، أما في المدارس النهارية فلا ضرورة لإشـغال المعلـم

بشغل النائب وإجباره ليكون مع التلاميذ في ملعبهم زمن الفرص، وإذا كان مجبراً على ذلك فما هو شغل النائب إذن ؟ وهل يتقاضى راتبه لأجل ربع ساعة يقضيها بالفرصة والمعلم بجانبه؟

إذاً أصبح يتقاضى راتباً أشبه بالتقاعد منه براتب العاملين. أما يكفي المعلم تعب إلقاء الدرس حتى نضطره عقب خروجه من غرفة التدريس لوقوفه بملعب الطلاب، يكف هذا وينهى ذاك ثم يرن الجرس ويدخل الطلاب ويدخل معهم لإلقاء الدرس ... فنرجو من الوزارة وهي بصدد تحوير نظام المدارس أن تلاحظ هذه المسألة وتأمر إما بإلغاء مناوبة المعلمين من المدارس النهارية أو بتحديد وظيفة المناوبين بصورة حسنة جارية مع ما يطيقه الإنسان لا كما يجري الآن.

(١٢)

تنشيط المعلم أمر ضروري وذلك يكون بأمور منها تزييد راتبه كلما ظهر منه إقدام ونفع، ومنها رسالة تقدير ترسل إليه من وزارة المعارف تبلغ فيها أن الوزارة تقدّر له جده واجتهاده، وأن تدريسه كان سديداً وأسلوبه نافعاً وأن التلاميذ كانوا مستفيدين من درسه ويكون مستند الوزارة بذلك تقرير المفتشين والمديرين السنوي، إن رسالة مثل هذه ترسل للأستاذ تكون له أعظم مشوق لدوامه على نشاطه ومرغب باستمراره على عمله ونفعه، فلقد مضت سنون ولم ير المعلمون شيئاً من هذه المرغبات بل كان المعلم النافع في الغالب عرضة للإهمال لعدم تعجيزه الوزارة لزيادة راتبه القليل والمعلم الذي يعجز وإن كان قاصراً ينظر في أمره. فإلى هذه المسألة ألفت نظر الوزارة المحترمة، وليس تحقيقها بالمر العسير أخذ الله بأيدي القائمين بأمور المعارف وألهمهم صواب العمل وسداد القول.

ماذا تعملون يا رجال المعارف [1]

آليت على نفسي ألا أكتب بهذه الأيام العصيبة شيئاً، لكن النبأ العظيم الذي قرأته بمقتبس الأمس عن إلغاء مديرية التجهيز الأولى، وزيادة أجور التدريس إلى أضعافها، وجعل دروس الرياضيات والطبيعيات باللغة الإفرنسية، جعلتني أشفق على هذه الأمة النكودة الحظ، وأكتب تعليقاً عليه معبراً بذلك عن رغائب الأمة التي ألقتها اليوم بين يدي كتابها وأرباب أقلامها، وإني لأدعو إخواني رجال القلم لإبداء رأيهم بهذا الأمر ليقف أولو الحل والعقد على حقيقة رغائب الأمة. إن زيادة الأجور في هذه الأيام؛ التي هلك فيها الفقير وأفلس التاجر وبارت الزراعة وكسدت الصناعة، وأصبحت الأمة بزارعها وتاجرها وصانعها تلتمس الفرج من الله بعدما استحكمت حلقات الضيق عليها، نعم إن زيادة أجور التدريس إلى ثمانية أضعاف يعد أمراً عظيماً وعثرة كأداء في سبيل العلم وقطعاً لطريق التحصيل، بل قضاء مبرماً على كثير من طبقات الأمة خصوصاً عوامها وصناعتها. كان التحصيل التجهيزي زمن الأتراك مجانياً، وفي هذا الزمن كان يؤخذ تسع ليرات سورية فسكتنا عليها لأنها إعانة صغيرة للمعارف، وهي لا تجرح كثيراً، غير أننا فوجئنا بجعلها أضعافاً فجرحتنا وآلمتنا وحرمت مئات وألوف من فقراء الطلبة من العلم، مما لا يمكن أن ترضى به الأمة ولا الحكومة، بل ولا أحرار رجال السلطة ...

إذا جعلنا مدارسنا الرسمية أغلى راتباً بكثير من مدارسنا الأهلية يكون معنى ذلك أننا نقول للأمة : علموا أولادكم بمدارسكم وأما الحكومة فمدارسها مغلقة بوجوهكم، فدبري أيتها الأمة أمر تعليمك وافتحي لنفسك

---

١ - افتتاحية جريدة المقتبس ٣ تشرين الأول ١٩٢٦

مدراس أهلية، نعم هكذا يفهم من جعل المدارسة الرسمية أكبر راتباً من المدارس الوطنية وعلى الأمة أن تقبل على شأنها وتؤلف الجمعيات الخيرية العلمية لتقوم بأمر التعليم ولاحاجة لدواوين المعارف ومدراس الحكومة التجهيزية ... لو كان الفقير مطلقاً مستثنى من هذا الأمر وكان الذي يدفع هذا المقدار أغنياء الأمة فقط لكان سهلاً من جهة ولكن الأغنياء اليوم خمسة في المائة والفقراء خمسة وتسعون، فماذا نحن فاعلون وفي أي طريق سائرون، فحذار حذار من سد طريق العلم في هذا العصر الذي أصبح فيه العلم فرضاً لازماً على جميع أبناء الأمة.

أما جعل الدروس الرياضية والطبيعية باللغة الافرنسية فمسألة فيها نظر للعقلاء المخلصين، لأن جميع أسباب النزاع بين الغرب والترك في الزمن الغابر تنحصر بمسألة اللغة والتدريس.

نكِلُ هذا الأمر لمن يتكلم بلسان الأمة من صحافين وعلماء وأدباء فتعلم الحقيقة إذ ذاك، لا تفهموا أننا لا نودّ تعلم اللغة الافرنسية فإننا نعتقد لزوم تعلمها لكل ناشئ إذ هي لغة العلم والأدب، ولكننا نتعلمها كلغة راقية ولا نجعلها لغة تلقين الناشئين للعلوم التي يصعب فهمها بلغة آبائهم فكيف بغيره، إن من يتلقى العلم بغير لغته فعلمه ناقص وناقص جداً فلا نريد أن يكون علم أبنائنا ناقصاً لهذا الحد وإننا نربأ بمستشار المعارف أن يكون معتمداً تلك الفكرة.

نحن نقبل ضرورة تعلم اللغة الافرنسية من حيث هي لغة، ولا نقبل أن نتعلم بها العلوم، لئلا نخرج الناس نصف عالم وربع متعلم، فينقلب علينا القصد وينعكس المطلوب. لا نقصد بكلماتنا هذه سوى بيان الطريق الذي يمكن أن تسير به الأمة لسهولته من الطريق الوعر الذي يتعب الأمة والحكومة معاً حيث لا نريده. نريد أن يسود الاتفاق بين الحكومة والأمة وتنقشع هذه الغيوم فنعيش بسلام وهناء.

التربية الاستقلالية والحياة الاتّكالية[1]

"بقلم الأستاذ الفاضل صاحب التوقيع"

الزارع والتاجر والصانع لا يتّكل في تحصيل رزقه على التوظف، ويجعله منتهى سعادته في حياته، بل يحصل معاشه بكدّ يمينه وعرق جبينه، لا يهدد بعزل ولا يقدر أن يقطع عليه مورد رزقه أحد، ألف نفسه الشمم فلا يخضع إلا للقانون الذي يتساوى لديه الأمير والحقير، فيتربى على حرية العمل وحرية القول والضمير، لأن منابع رزقه ليست بين شفتي أحد، فيراعي زيداً أو يحابي بكراً خوفاً من أن يهدد بقطع راتب أو تنحية.

ما أصعب الحياة الاتّكالية وما أهنأ النشأة الاستقلالية !! نعم ما أصعبها إذ لا ترجى حرية لشبان يتطلعون إلى الانتظام في سلك عمال الحكومة، ويتهافتون على احتمال ذلك النير حيث تدفن بسالة النفس وتموت عواطف الشرف، ولست أقصد أن من لوازم المناصب العامة صغر النفس وحجر الحرية كلا !! فإنها في الحكومات الحرة من شأنها أن تنمي فيهم قوة العزيمة ومكارم الأخلاق، لأن مثل أولئك تختارهم الأمة وينتخبهم الشعب ورئيسهم هو منتخب الشعب، فالحكومات المؤسسة على الشورى لا تولّى الأعمال فيها بالمحاباة والهوى.

نحن نريد أن تكون مدارسنا معامل لتخرج رجال يخدمون أمتهم عن طريق الاعتماد على الذات وكرامة النفس، لا عن طريق الذل والاستكانة والتملق والنفاق.

فيجب علينا أن نعود أبناءنا منذ صغرهم صنعة يدوية، من غير أن نحقّر شيئاً منها، لأن الصناعات ليس بينها شريف ووضيع، بل الشريف هو العامل

---

١ ـ المؤيد، السنة [illegible] العدد [illegible] سنة ١٣٢٥هـ ص ٢ ـ ٣.

والوضيع هو الكسول. لا ينقص من شرف الشـــريف أن يكـــون زارعـــاً أو صانعاً أو تاجراً وإنما ينقص شرفه أن يكون بؤرة الرذائل، منغمســـاً بحمـــأة القبائح، سارقاً سكيراً ضاراً لأمته ووطنه. قال (أدمون يمولن) فـــي كتابـــه سر تقدم الإنكليز : "الخطر على بلادنا آت من جهة الإنكليزي السكســـوني لا من جهة الألماني، لأن الأول يفد علينا بمفرده غير مستصحب إلا محراثـــه، فهو لا يأتينا كالألماني بجيش جرار أو سيف مصقول " فيجب علينا أن نـــهتم بتقدم المنابع الحقيقة للثروة، ألا وهي الصناعـــة والزراعـــة والتجـــارة، لأن بلادنا مع كونها زراعية صناعية من أفقر البلاد لعدم انتباه أبنائنا لتحصيـــل ثروتهم من منابعها الطبيعية. جميع أدوات الصناعة عندنا باقية على حالـــها منذ العصور الأولى بدون تبديل وتغيير، وقد كانت ســـوريا مـــهد التجـــارة والصناعة، كما قال ذلك (هيرودوتس) المؤرخ عن الفينيقيين.

يجب علينا أن نهتم بإصلاح الثمالة الباقية بأيدينا من الصناعـــات، لأنـــها ستكون محكومة بالاضمحلال كما هو حال القوي من الضعيف، فـــلا يثبـــت المنسج الذي ننسج عليه إزاء الآلات العظيمـــة التـــي تتحـــرك بالكـــهرباء والبخار، وتنتج بأقرب وقت ما لا نقدر على تحصيله بالســـنين الطويلـــة .إن بقيت زراعتنا وصناعتنا بآلاتها القديمة، فلا تلبث أن تأتينا الشركات الأجنبيـــة بمعاملها وماكيناتها، فتميت النماء الباقي من صناعتنـــا. إن مركـــز ســـوريا الجغرافي يجعل لها أبواباً لترويج مصنوعاتها ولديها من قوة الماء المحركـــة ما يغنيها عن كثرة الأيدي العاملة، ولدينا من المواد الأولية ما يكفي لازدهـــار الصناعة والزراعة في بلادنا، فما علينا إلا أن ينتبـــه أهـــل البـــلاد لفوائـــد الشركات فيعقدوها ويعملوا على إحيائها بينهم، وإن يســـعوا لافتتـــاح مـــدارس للصناعة والزراعة فيصلحوا صناعتهم ويتعلموا مـــن الصناعـــات مايلزمـــهم، وكل شيء متوقف على العلم، ومناهل العلم مشرعة لمن أراد النهل منها.

الفصل الرابع : في قضايا الأدب واللغة

المجامع العلمية[1]

في البلاد الراقية مجامع علمية يدعونها (أكاديمي) تعنى بتزيد لغاتهم ووضع ألفاظ فنية إزاء ما يتجدد كل يوم من المعاني، لو لم يتداركوا جيشها من الألفاظ لعجز الإنسان عن التعبيرعن أغلب المعاني ولعيّ عن فهمها، وكما أن علماء الغرب من أرباب الهمم العالية كذلك صبرهم على المثابرة والدوام، في ظل ما يلقونه من مساعدة لهم وسخاء حكوماتهم عليهم بالعناية الزائدة بأمرهم، حتى يجتمع ثلة من الرجال المتعلمين الأخصائيين ولفيف من أهل العلم والأدب المبرزين وطائفة من الكتب التي يعز وجودها ويندر في أشهر مكتبات العالم ما يكفل لهم النجاح وينشطهم على السعي والإقدام.

اعترفت حكومتنا الجديدة بالحاجة القصوى لسد أعظم ثلمة في اللغة العربية ونقص في تعابيرها العلمية، وذلك بتحويل ديوان المعارف إلى مجمع علمي يعنى بأمر اللغة ويلبسها ما يناسبها، لتبرز في حلة موافقة لروح القرن العشرين وشؤونه العلمية والصناعية. وعهدت إليه أيضاً بإعداد كتب على الأصول الجديدة أو ترجمتها من اللغات الراقية إلى اللغة العربية، نعم العمل ونعم الرأي.

---

١ – افتتاحية جريدة حلب الرسمية، الخميس ٥ حزيران ١٩١٩

المصطلحات العلمية وشدة لزومـــها :

غفل العرب بغفلة حكومتهم السابقة عن كل ما يحدو بهم للتـــبريز فـــي ميادين العلم. وأضاعوا فرصاً ثمينة مكر عليهم بها الدهـــر وكـــانوا عنـــها نائمين. أقول هذا وبقلبي من الحرقة على أمتي ما يعلم الله أنه لا يطفئـــها إلا إذا رأيت يقظة عامة من الشعب العربي، يطرق بها أبواب النجاح ويفتح بـــها أغلاق السعادة.

كان يجب على علماء الأمة وكتابها وقادة الأفكار فيها أن يفكروا، علـــى الأقل، بأمر هذه اللغة ويعطوها الالتفات اللائق بمثلها والحدب التي هي بـــه جديرة، إذ لا مانع من السياسة كان يقف أمامهم في هذا المقصد،لأنه محـــض مقصد علمي. ألم ينظروا لما حلّ بلغتهم من العجز والوهن، حتى أصبحـــت إزاء المخترعات الحديثة والأوضاع العلمية مبهوتة حائرة لا تحـــير جواباً ولاترجّع خطاباً!

إذا تكلم أحد أبنائها بأقصر مبحث علمي استعصى عليه اللفظ الدال علـــى المعنى المراد ورجع يرطن به كما أخذه عن اللغات الأعجمية، من غـــير أن يفقه المخاطب عنه شيئاً من معناه. ولذلك أصبحنا ــ والحق يقال ــ علـــى ما لدى لغتنا من وفرة المادة وكثرة الأصول، تجاه جيوش المعاني العلميـــة، عزلاً، لاعدة معنا تقينا مضض استعمال الألفاظ الغريبة.

استعجمت ألسنة شباننا، فهي تستمد ألفاظـــها إمـــا مـــن لغـــة الأتـــراك واصطلاحاتهم الضيقة ؛ التي أخذوا معظمها مـــن العربيـــة، مـــن غـــير أن يفرغوها بقالب علمي بحت، بل وضعواها على شكل يلائم لغتـــهم ويمـــتزج بها، وإما عن طريق الفهم لما يقصد من المعاني.

لذلك بتنا نعقد الآمال على مجمعنا العربي بدرء هذا الخطر عن لغتنا وتلافي الأمر، ولنا كلام في ذلك يأتي.

حول الاصطلاحات اللغوية[1]

بيّنا في مقالنا السابق لزوم وضع مصطلحات علمية ولغوية للمعاني التي أوجدتها حضارة هذا العصر، وذكرنا كما فهمناه أن المجمع العلمي العربي أخذ على عهدته هذا العمل وتعهد أيضاً بتأليف أو ترجمة كتب علمية تعنى بحاجة طلاب المدارس. ونحن في هذا المقال نتوسع في ذكر شيء عن مسألة الأوضاع اللغوية وأهميتها على قدر الإمكان، فنقول:

رقي الأمة يستلزم رقي لغتها، فكلما ضربت الأمة بسهم من الحضارة تبعتها لغتها التي تعبر بها عن جميع مظاهرها الاجتماعية. اعتبر هذا بحال اللغة العربية بالدور الجاهلي وما كان بها من خشونة البدواة وحالها بالدور الإسلامي، وخصوصاً أوائل الدور العباسي وما آلت إليه من الازدهاء والازدهار ورقة الخضارة، أيام نقل إليها علوم اليونان والفرس واخترع لها جميع مصطلحاتها الفنية، فوسعت تلك العلوم بصدرها الرحب ولم تضق ذرعاً باصطلاحاتها الكثيرة. ثم لما انحطّت الأمة العربية باستيلاء التتر فالأتراك على بلادها، تبعتها اللغة وتدلّت من حالق عزها إلى ما وصلت إليه اليوم. ولولا الحركة العلمية في مصر وما أحدثته من التجدد في اللغة لماتت الآمال ويئست النفوس من حياتها. أما وقد طلع على الأمة العربية فجر حياة جديد، فسيطلع – ولاريب – على لغتها ذلك وما البداءة في تأليف هذا المجمع العلمي إلا من بشائر تلك الحياة.

---

١ – نشر في افتتاحية جريدة حلب الرسمية يوم ٩ حزيران ١٩١٩ العدد ٥٢.

يلزمنا وضع مصطلحات علمية كاصطلاحات العلوم الرياضية والطبيعية والاجتماعية، ويلزمنا أيضاً وضع أسماء للأشياء التي لا علاقة لها بالفنون كأسماء المفروشات والأثاث وأسماء الثياب وأدوات الزينة؛ التي تجددت بتجدد العصر ولا تزال بتجدد مستمر مما يوجب علينا السعي الدائم المتواصل. وسواء كان الوضع لاصطلاح علمي أو غيره، لابد فيه من إطالة النظر والتعمق في البحث، ولا بد له من تبحر في اللغة العربية واضطلاع من موادها الغزيرة. ومعرفة تامة بعلم الاشتقاق وأصوله والتعريب ومناحيه، واطلاع على بعض اللغات الأجنبية وتضافر أيدي علماء الأقطار على ذلك، لما أننا بوضعنا هذا نلزمهم حفظ ما نضمه واستعماله. يلزمنا هذا كله لأن العبء ثقيل والمطلوب خطير والمبحث دقيق، يحتاج لعقول ناضجة وأراء سديدة وعلم متخمر.

فنحن على اعتقادنا بكفاءة أعضاء مجمعنا من حيث الكيفية العلمية، لكننا نعتقد قلتهم بالنسبة لعملهم الخطير، ونطلب أن يضم إليهم كل من طال باعه وعلا كعبه في اللغة والعلوم العصرية، وأن يكونوا من أقطار العرب المتدانية والمتنائية ليتسنى لنا إدراك ما نتوخاه من سد الثلم الكبيرة في لغتنا الكريمة.

أذكر أنه تألف في مصر مجتمع علمي لوضع ألفاظ عربية إزاء المعاني المستحدثه، وقد وضع بعض ألفاظ مثل " البهو " بمعنى الصالون والعطاف أو المعطف بمقابل البالطو والباردسو والبطاقة بمقابل الكارت وغيرها، ولا أدري هل بقي مثابراً على عمله أم اعتراه من فتور الهمة ما أوقف سيره، شأننا معشر الشرقيين، وعلى هذا أرى أنه يجب أن تتأسس صلة بين المجمع السوري والمجمع المصري لتوافق الأوضاع، وإلا إذا وضعوا هم لفظاً ونحن وضعنا غيره يصبح أمر اللغة فوضى.

لغتنا العربية من أغنى لغات العالم مادة، غير أن ما أظهرته لنا المدنية الحديثة من المعاني التي نستعلمها كل يوم، حتى في أكلنا وشربنا ولباسنا وفي حجرة نومنا لا يمكننا أن نجد شيئاً منها في قواميسنا عفواً؛ أي بلا وضع جديد تقوم به رجالنا.

المجامع العلمية التي تضع هذه الاصطلاحات الفنية وغيرها في أوروبا دائمة لا تنقطع، وهي مخصصة لهذا العمل وحده وكفى به عملاً عظيماً خطيراً، لأن الاختراعات في ديار الغرب بتجدد دائم، لذلك يرون أنفسهم مضطرين لأوضاع جديدة دائمة كلما تجددت المحدثات.

فالكهرباء وحده أحدث من المخترعات الطبية والميكانيكية وغيرها عدداً زائداً. فهل يبقون بلا اصطلاحات حصِرين عن الكلام كالبكم، أم يشتغلون بإيجاد ألفاظ لها وهم ممن عرفناهم ببعد الهمة والثبات على العمل، فنسأله تعالى أن يوفق رجالنا للقيام بهذا العمل الخطير. أما ما سيقوم به مجمعنا العلمي من تأليف كتب وترجمتها فسنفرد له مبحثاً آخر.

طبقة النقاد ودرجتهم في الأدب[1]

ما كان يجرأ على الجرح والتعديل ونقد الشعر وميزه إلا الفحول في اللغة، البصراء بتصريف الكلام وأما الأغراء المغفلون الذين لا يعرفون كوعهم من بوعهم فليس لكلامهم وتقريظهم أو جرحهم أدنى قيمة بميزان العقلاء، بل بدل تسرعهم في حكمهم وعجلتهم في أمورهم، وكم للشباب من تسرع. واستعجال النقد لا يجري مع العاطفة بل يجري مع العقل والعلم، ولم تكن فيما سلف طبقة النقاد إلا في طبقة من العلم والأدب، فقد كان رجالها

---

١ - جريدة الاستقلال العدد ٣٧٤ / ٢٨آذار ١٩٢٩.

والقائمون عليها أمثال خلف الأحمر وأبي عبيدة ومعمر ابن المثنى والمازني والمبرد والجاحظ والفرزدق وغيرهم من أئمة اللغة والشعر، ولم يكن الشعراء يعمدون في وزن شعرهم إلا لأمثال هؤلاء الأئمة. وقد عرضنا بمقالتنا السابقة كلمة تبين آراء العلماء بالشعر الرديء، وها نحن ننقل إليك نوعاً آخر ينبئك عمن كان يحكم فيسمع لقوله ويذعن الشعراء بحبه. مر ذات يوم أبو عبيدة معمر ابن المثنى برجل ينشد شعراً فطول فيه، فقال أبو عبيدة : أما أنت فقد أتعبت نفسك بما لا يجدي عليك، وما كان أحسن من أن تقصر من حفظك هذا الشعر ما طال، ألم تعلم أن الشعر جوهر لا ينفد معدنه فمنه الموجود المبذول ومنه المعوذ المصون فعليك بالبحث عن مصونه يكثر أدبك، ودع الإسراع إلى مبذوله كي لا يشغل قلبك، ثم أنشد أبو عبيدة :

مصون الشعر نحفظه فيكفي وحشو الشعر يورثك الملال

والذي يظهر من قول أبي عبيدة أن الرجل كان يحفظ شعراً لم يكن له فنصحه بما قال.

وأنشد رجل أبا عثمان المازني شعراً له فقال : كيف ترى ؟ أراك عملت خيراً بإخراج هذا من جوفك لأنك لو تركته لأورثك السل ... ألا ترى لقول المازني هذا وما الذي حداه لقوله؟ سمع شعراً لو بقي في جوف صاحبه لأورثه ليس فقط السل وإنما الجنون، لأن كثيراً من الشعراء ضعفاء العقول ممسوسون، ولا يزال يفعل الوسواس فعله في عقلهم، حتى يخيل إليهم القريب بعيداً والبعيد قريباً، والصحيح معتلاً والمعتل صحيحاً، وسقيم الشعر جيداً وجيده سقيماً. وكم لوسوستهم هذه من أمثال في تاريخ الأدب، يعرفها من اطلع على سيرته وسير أخلاقهم، ولولا خوف الإطالة لسردت لك المقنع من أحوالهم الغريبة ونكاتهم العجيبة، أما هم أنفسهم فيسمونها عبقرية، والعبقري منسوب إلى عبقر، وهو موضع الجن، فهم إذاً منسوبون إلى شيء

له ملابسة بالجن. على أن حكمي هذا إنما يتناول بعضهم لا كلهم، إذ فيهم الحكماء العقلاء وفيهم المخبولون الممسوسون، وكانوا يشبهون الشعر الرديء بشعر المجانين الذين يدعون أنهم شعراء، فقد قال المغيرة ابن جناء يصف أخاه صخراً وكان بينهما عداء (من جملة كلام طويل):

عيوباً وفحشاً للصديق وغيلة وغشاً وشعراً مثل شعر أبي الجبو

وأبو جبر مجنون من بني ربيعة كان يقول شعراً مخلطاً، وربما تألم الحكم ألماً زائداً من شعر خطير، فحكم عليه حكماً قاسياً لينفر الناس عنه لئلا يخدع الأغرار المغفلون بأقوال المحاذقين الحمقى، فقد كان للفرزدق صديق، فقال له: احب أن تسمع شعر ابني هذا وتعرفني كيف هو، فلما أنشده، قال له أيسرك أن يكشف ابنك هذا سوأته على أهل عرفة ويبول عليهم، قال لا والله. قال ففعله هذا عندي أحسن من أن يقول مثل هذا الشعر. والذي يظهر أن الفرزدق غضب حتى ضرب له هذا المثل القاسي المؤلم.

وللسبب نفسه بكى الأصمعي لما عرض عليه رجل ببغداد شعراً سيئاً، فقيل له ما يبكيك ؟ قال : ليس لغريب قدر لو كنت ببلدي في البصرة ما جسر هذا الكشحان أن يعرض علي هذا الشعر وأسكت عنه.

وكان العلماء يربأون بأنفسهم من الخوض في بحار الشعر خوفاً من أن يسمعوا عن شعرهم حقيقة جارحة. وانظر المفضل الضبّي الذي هو من أساطين اللغة والرواية حيث قيل له: لم لا تقول الشعر وأنت أعلم الناس به قال: علمي به يمنعني من قوله، وأنشد بغضب هذا الكلام:

أبى الشعر إلا أن يفيء رديئه علي ويأبى منه ما كان محكما

فيا ليتني إذ لم أجد حوك وشيه ولم أك من فرسانه كنت مفحما

فرحم الله الضبّي ما أعقله وأعلمه وأحرصه على سمعته من أن تتالها ألسنة الناس..

وقد منع أبو العتاهية ولده من أن يشتغل بصناعة الشعر، خوفاً عليه من أن يكون هدفاً لسهام الناقدين، فقد حدّث عبد الله بن المديني قال : كنا عند أبي العتاهية أنا وخالد بن محجن فأنشد ابنه شعراً، فقال أبو العتاهية: إني والله نهيته عن هذا، فليس يقبل. فقال ابنه أريد أن أتعوده وأنشأ عليه. فقال : يابني هذا الأمر يحتاج إلى رقة وطبع فائض، وأنت ثقيل الجوانب، مظلم الحركات، فاذهب إلى سوقك سوق البزّ، فإنه أعود عليك. أراد أبو العتاهية، أن الشعر الجيد لايسلس قياده لمن لم يجعله مهنة، وإلا فلا يكون شاعراً مجيداً من اشتغل بصناعة البزّ، فالبزّاز صانع والشاعر مثله، وصناعتان لن تتفقا لأحد إلا بزمن المعجزات، وهذه انقضى أوانها . وفوق ذلك فالطبع الفائض الرقيق أعظم شرط في الأمر، فمن لم يرزق طبعاً فياضاً ورواية أكثر مما يظنه المغفلون، ودربة، وصبراً، فالأحرى به أن لايدس نفسه في زمرة الشعراء، وأن يقبع في بيته يزاول العمل الذي خلق من أجله . فذلك أجدى وأنفع لمن كان له عقل أو ألقى السمع وهو شهيد، عملاً بقول أعظم من نطق بالضاد: اعملوا فكل ميسر لما خلق له ..

الخنساء[1]

بحث تحليلي عن حياة الخنساء وشعرها

إذا تكلمنا في بحثنا هذا عن الخنساء، فإننا نريد أن نعطي نموذجاً صالحاً عن المرأة العربية، وما كانت تتحلى به من المزايا السامية والأخلاق الفاضلة، كقوة الإرادة وإشراق العقل وتوقد الذكاء وعزة النفس وما إلى ذلك من مكارم امتازت بها وقلّ أن تجدها في غيرها من نساء الأمم الشرقية والغربية. وإذا أنكر على المرأة بعض الشعوبيين تلك الصفات العالية فحسبنا أن نأخذ بيده وندله على ألوف النساء العربيات اللواتي ملأن بطون التواريخ وكتبن بأعمالهن المجيدة على صفحاته ما يخلد ذكرهن مدى الزمان، وها إننا سندله على إحداهن الخنساء تلك السيدة الجليلة والصحابية الكريمة والشاعرة التي لا يباريها فحول الشعراء ويقصر عن اللحاق بها أئمة البيان البلغاء. وسيكون بحثنا جارياً على أحدث المناهج الأدبية التي سار عليها أدباء العرب في هذا العصر من تحليل نفسية الشاعر والاستدلال بصوره الشعرية على حالة بيئته الاجتماعية والنفوذ إلى أعماق نفسه وجلجلان قلبه،والإحاطة بخوالج ضميره مما يجعل القارئ يخلص بالفائدة الجليلة واللذة الممتعة حتى ينطبع البحث في ذاكرته انطباعاً لايمحوه توالي الأيام. ولنبدأ بما قصدنا إليه.

[اسمها، كنيتها، لقبها، نسبها]

اسم شاعرتنا تماضر بضم التاء وكسر الضاد، قال ابن خلف "قد قالوا للبياض تماضر وأكثر ما يكون للنساء ومنه قيل اشتقت المضيرة[2] لبياضها" فالمرأة التي تكون بشرتها بيضاء تسمى باللغة تماضر، ولانشك أن أباها لم

---

١ - مجلة المرأة - حماه، العدد ١، السنة١، ٣٠ تشرين الأول ١٩٣٠ ص ص١١-١٧.

٢ - قال في القاموس مضر اللبن حمض وأبيض والمضيرة مريقة تطبخ باللبن المضير.

يسمها بذلك إلا قاصداً مطابقة الاسم للمسمى لما سنذكره من جمالها البـــاهر لونها الزاهر، وتكنى أم عمرو كما جاء في قول أخيها صخر :

أرى أم عمرو لاتمــل عيــادتي وملت سليمى مضجعي ومكاني

ولقبها الخنساء مؤنث الأخنس، ويطلق الخنس على تــأخر الأنــف عــن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة ويقال للظبية أيضاً الخنساء،فــإطلاق هــذا اللقب على شاعرتنا من طريق استعارة لفظ الظبية لها على عـــادة العــرب بتشبيه النساء الحسان بالظباء. ويقال لها خُناس أيضاً.

أما نسبها : فهي الخنساء بنت عمرو بن الحرّث بن الشريد وينتهي إلـــى سُليم ثم إلى عيلان بن مضر، فهي سليمية مضرية.

[نشأتها، استقلالها، أرادتها، قوة عقلها]

نشأت شاعرتنا في البادية ومضارب الخيام حيث العز والأباء والشـــمم، حيث الصراحة وطهارة الوجدان، حيث الشجاعة والكرم، في بيـــت إمــارة وزعامة ونعمة ورفاهة، فاقتبست شمائلها، واكتسبت خلالها من هذه البيئـــة التي فيها خير تنشئة للعقول الصافية، والأخيلة الرائعـــة والأفكــار الدقيقــة والحرية الواسعة، والتربية الاستقلالية، ولا سيما تأثير هذا المحيط على مـــن رُزق حظاً وافراً من الاستعداد لقبول مثل هاتيك الخلال كسيدتنا الخنساء ومـا فطرت عليه من الغرائز النفسية. لقد تجلت مكارم البـــداوة وآثــار المحيــط وأخلاقه بجميع أدوار حياة هذه السيدة كما سيمر عليك وتحققه. أضــف إلـــى كل هذا جمالاً رائعاً منحتها إياه يد القدرة الإلهية، فكملت به، وبذت لداتـــها، وفاقت جارتها.

جمال سيدتنا الخنساء جمال طبيعي لايشوبه تكلف ولاتصنع ولاتزين بمـــا ليس في خلقتها، فهو خال من كل طلاء وتمويه، عار عن الحلي المصنوعــة والأصباغ المركومة فهي ريم من آرام البادية وظبية من ظبائها الماثلة بهجــة

للناظرين وأنسا للأنسين. ذلك الحسن البدوي الذي وصفه أبو الطيب بقولـــه من قصيدة يمدح بها كافوراً :

ما أوجه الحضر المستحسنات بـــه كأوجـــه البدويـــات الرعـــابيب[1]
حسن الحضارة مجلوب بتطريـــة وفي البداوة حسن غـــير مجلـوب
أين المعـــيز مـــن الآرام نـــاظرة وغير ناظرة في الحســـن والطيـــب
أفدي ظباء فلاة مـــا عرفـــن بـــها مضغ الكلام ولا صيغ الحواجيـــب

رآها دريد بن الصمة على حين غفلة وهي تهنأ بعيراً فعلق بها وقال :

حيوا تماضر وأربعـــوا صحبـــي وقفـــوا فـــإن وقوفكـــم حســـبي
أخنـــاس قـــد هـــام الفـــؤاد بكـــم وأصابـــه تبـــل مـــن الحـــب
مـــا إن رأيـــت ولاســـمعت بـــه كـــاليوم طـــالى أينـــق جـــرب
متبـــذلاً تبـــدو محاســـنه يضـــع الـــهناء مواضـــع النقـــب

ثم خطبها دريد إلى أبيها، فقال له أبوها : مرحباً بك أبا قُرة إنك للكريـــم لا يطعن في حسبه والسيد لا يرد عن حاجته والفحل لا يقرع أنفـــه، ولكـــن لهذه المرأة في نفسها ما ليس في غيرها وأنا ذاكر لها وهي فاعلة. ثم دخـــل إليها وقال لها : يا خنساء ! أتاك فارس هوازن وسيد بني جشم دريـــد ابـــن الصمة يخطبك وهو ممن تعلمين - ودريد يسمع قولهما- فقـــالت يـــا أبـــت أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح وناكحة شيخ بنـــي جشـــم هامـــة اليوم[2] أو غد، فخرج دريد مغضباً وكان بينه وبين معاويـــه أخـــي الخنســـاء صداقة أكيدة فجعله وسيطاً لها مرة ثانية، وأراد أخوها أن يكرهها على دريـد فأبت الزواج. وكان أخوها صخر غائباً في غزاة له، فقالت أبياتاً منها :

لئن لم أوت مـــن نفســـي نصيبـــاً لقـــد أودى الزمـــان إذا بصخـــر

١- جمع رعبوبة وهي الطويلة الممتلئة.

٢ - قال في أساس البلاغة هو هامة اليوم أو غد مشفٍ على الموت.

لئن لم أوت مـــن نفســـي نصيبـــاً لقـــد أودى الزمـــان إذا بصخـــــر
أتكرهنـــي هبلـــت علـــى دريـــد وقـــد طـــرّدت ســـــيد آل بـــــدر
معـــاذ الله ينكحنـــي حـــــبركي[1] قصير الشبر من جشـــم بـــن بكـــر
يـــرى مجـــداً ومكرمـــة أتاهـــــا إذا عشى الصديق جريـــــم تمـــر[2]
ولو أصبحت فـــــي جشـــم هديـــا إذاً أصبحـــت فـــي دنـــس وفقـــــر

وفي رواية أنها قالت هذه الأبيات لأبيها، وفي أخرى أنها قالتها تجيـــــب دريداً على هجائه.

[تحليل هذا الخبر]

وقبل أن نغادر هذا المقام يجدر بنا أن نقف قليلاً عند تحليل هذا الخـــبر، لعلنا نستخرج منه عبرة نستفيد منها في حياتنا العائلية تذكـــــراً لمـــا نعلمـــه وتيقظاً لما نذهل عنه.

دريد سيد مطاع في قومه لا يقطعون أمـــراً إلا بحضـــوره، عـــن رأيـــه يصدرون وبمشورته يعملون، وهو مع ذلك بطل مغوار فارس جشم وهوازن وحامي حقيقتها وشاعر مجيد ينافح عنها ويفاخر خصومها، فهو كمـــا تـــرى يحوز أبعد غاية في الرفعة والشرف، وقد عرف له ذلك والد الخنساء مقـــراً بأنه السيد الكريم والفحل الذي لا يقرع أنفه ولا ترد حاجته. ولكن شيئاً واحداً سها عن بال ذلك الباقعة دريد وهو عند الغانيات يكاد يكون كـــل شـــيء ولا يقوم شيء مقامه، ألا وهو الشباب الغض الناعم وطـــراوة الحداثـــة أو قـــل مقاربة السن بين الزوجين، وهو لعمري مطلب للمرأة حق عادل لابـــد منـــه لاستدامة الرابطة الزوجية والعيشة بهناء وراحة ... أتريـــد الفتـــاة الجميلـــة العاقلة التي أوتيت نصيباً من استقلال الإرادة أن تقترن بقشعم مشرف علـــى

---

١ - قصير الظهر الطويل الرجلين.

٢ - الذي يجرمه أي يقطعه من النخل.

الموت، هامة اليوم أو غد، يتركها عما قليل تقاسي الآلام، تربي أبناءها يتامى منكسرين وتبقى بقية عمرها خلية من الأزواج، تقل فيها الرغبات وتتصرف عنها الأنفس بعد أن كانت عقلة المستوفز ومهوى الأفئدة ومتعة القلوب وغذاء الأرواح ؟

عرفت سيدتنا الخنساء هذا كله، ومر على ذهنها الوقاد ذلك بسرعة التيار الكهربائي، وأدركت ما أراد أبوها وأخوها أن يسومانه إياها فأبت – وكان يتوقع أبوها إباءها - فقالت بملء فيها : لا، لا .....

وفي ذلك عبرة للرجال الذين يجبرون بناتهم أو أخواتهم على الاقتران بمن طعن في السن، أو بمن لا تميل نفوسهن إليه طمعاً بماله أو جاهه، فيختل نظام الأسرة وتتقوض أركان العائلة ونقع في اضطرابات ومحن هي شقاء الحياة وتعاستها، وهذا من جملة عيوبنا العائلية. فكم من مخاصمات بين الزوجين ترجع بأصلها لمثل هذه الخطيئة، التي لا تغتفر لأوليائها.

وبعد، أليس فيما ذكرنا دلالة ظاهرة على ما لسيدتنا الخنساء من سديد الرأي واستقلال إرادة ؟ أفلا يمكننا أن نستدل بهذا على الحرية الواسعة التي كانت المرأة العربية تتمتع بها ؟ وقد أتى الشرع الإسلامي موطداً أمر تلك الحرية فجعل للبكر أن تُستأذن وللثيب أن تُستأمر قبل زواجها.

أما دريد فمن شدة ألمه هاج بركان غضبه فقذف هجاء للخنساء بقصيدته السينية، ولكن أتظنه كما نعهد من الهجاء المقذع الذي كان بين جرير والفرزدق أو بين بشار وحماد أو كهجاء المتنبي لضبة ؟ كلا، كلا !!

ليس في الشعر الجاهلي إغراق في المدح ولا في الهجاء، فهو يقول لها بعد مقدمة قصيرة اعتاد الجاهليون تقديم مثلها "أنا وإن كنت شيخاً أفوق الشباب يوم الطعان وأكون المجلّى بين الأقران يوم الرهان. ماذا يعجبك من

شاب حقير الهمة يباشر الأعمال الدنيئة ؟ ألم يبلغك أنهم يرجعون لرأيي عند كل ملمة ؟ ألم تعلمي أنني حين أمسي أبدأ بإطعام الأرملة والفقير وأوثر جاري على نفسي ؟ ".

وتزعم أنني شيخ كبير ... وهل خبرتها أني ابن خمس
تريد شرنبث[1] القدمين شثنا ... يباشر بالعشية كل كرس[2]
وماقصرت يدي عن عظم أمر ... أهم به ولا سهمي بنكس
وما أنا بالمزجى حين يسمو ... عظيم بالأمور ولا بوهس[3]

ثم يقول :

وقد علم المراضع في جمادى ... إذا استعجلن عن حر بنهس
بأني لا أبيت بغير لحم ... وأبدأ بالأرامل حين أمسي
وإني لايهر الضيف كلبي ... ولا جاري يبيت خبيث نفس

أشبه بالفخر منه بالهجاء، حتى أن شاعرتنا لم تتأثر منه بل كان جوابها لما أتاها الذين يحملون الخطب لإضرام نيران الفتن وتأجيج النمائم قائلين ألا تجيبيه ؟ أن قالت : لا أجمع عليه أن أرده وأن أهجوه، وهذا ماكان ينتظر من عقلها، فالعاقل الكيس الذي يكفكف من غربه إذا جاشت نفسه للشر، ولو أرادت أن تكيل له صاعاً بصاع لفعلت ولكن حكمتها وذكاءها وبعد مداركها أكبر وأعلى من ذلك ؟

وفي هذا تأس للعقلاء الذين يربأون بأنفسهم عن دفع الشر بالشر مع قدرتهم، وهذا هو أدب القرآن الحكيم : قال تعالى [إدفع بالتي هي أحسن

---

١ – الغليظ الكفين والرجلين.

٢ – أن يعالج البعر والسرجين وغير ذلك.

٣ – الشرير المتطاول على العشيرة.

فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم].

الخنساء (٢)

وفي قول الخنساء (أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح) ما يستوقف النظر فهي لا تترك بني عمها ورجال عشيرتها الذين سبرت أخلاقهم، وشبّت على عاداتهم، واعتنقت منذ نعومة أظفارها تقاليدهم، إلى عشيرة بعيدة عنها تجهل أحوالها المعاشية التي هي أساس الحياة الزوجية. أفلا يعتبر شبابنا الذين لا يتخيرون لنطفهم بنات قومهم ويندسون في بيوتات لا يعرفون عن عاداتها وأخلاقها شيئاً ؟؟ كيف تعلق نفوسهم بفتاةٍ غريبة عن قوميتهم، وقد تخالفهم باللغة والدين وجميع المميزات الأخرى ويترك بنات قومه مثل عوالي الرماح، فيحرم نسله من خؤولة شريفة ويعرضهم للاستعجام والهجانة ويسيء لنسله ولأمته في سبيل شهوة نفسه البهيمية. وكان فقد قال مروان بن زنباع العبسي في وصيته : وإياكم والتزويج في العرب يدخلون النهي عن بيوتات السوء في وصاياهم إلى أولادهم،بيوتات السوء فإن له يوماً ناجثاً [١] وكانوا يمنّون على أولادهم بتخيرهم للأمهات الماجدات، قال الرياشي يخاطب أولاده :

وأول إحساني إليكم تخيري لماجدة الأعراق باد عفافها

وجاء الشرع الإسلامي ناهياً عن منابت السوء وسمّاها خضراء الدمن[٢]، وفسر ذلك بالمرأة الحسناء في المنبت السيء، وروى البخاري عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : خير نساء ركبن الإبل صالحو نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده.

فسامح الله بعض ضعاف النفوس من شبابنا الذين تغرّهم البهارج الخلابة، فيخدعون عن عقولهم ويتزوجون في غير قومهم فيقعون بما يقرعون له سن الندم ولات ساعة مندم. وخطبها بعد دريد رواحة السلمي فولدت له عبد الله ويكنّى أبا شجرة ثم خطبها عبد العزى من سادات قومها ثم خلف عليها مرداس بن أبي عامر السلمي فولدت له العباس، ويزيد، وحزن، وعمرو، وسراقة وبنتاً اسمها عمرة وجميعهم شعراء وامتاز بينهم العباس وعمرة، وسنذكر عنهما ذيلاً للبحث.

ما الذي هاج شاعريتها ؟ أخواها، مقتلهما، حزنها عليهما، معاظمتها لهند بنت عتبة.

على من يعنى في الدراسة الأدبية لشعر شاعر أن يعرف:

١ً - العوامل المختلفة التي تضافرت لإخراج شعره ويدخل في ذلك درس عصره.

٢ً - تاريخه النفسي ليتسنى له الاطلاع على شؤون حياته.

٣ً - تحليل قطعه الفنية ومحاولة فهمها ودرسها ونقدها، وأن يتذوق ما فيها من روح أدبية وبذلك يتم الحكم لها أو عليها، فيستعين بذلك على النفوذ لأسرار ضميره وإدراك ما في شعره من عواطف وميول، وأفكار وخيالات وأسلوب.

على ضوء هذه القواعد المهمة التي اتخذها أدباء العصر أساساً لأبحاثهم الأدبية، نتلمس الأسباب التي هاجت شاعرية الخنساء والوقائع التي حدثت فأججت شعلة ذكائها وأرّثت نار أحزانها ففجّرت ينابيع شعرها الوجداني الحزين، حتى صرت تسمع أنينها بكل بيت من أبياته، وحنينها متصاعد الزفرات سائلاً مع كل قصيدة وقطعة منه.

أخواها صخر ومعاوية سيدان كريمان كان أبوهما عمرو بن الشريد (وهو أحد الخطباء المداره الذين أرسلهم النعمان إلى كسرى) يأخذ بيدهما ويقول أنا أبو خيري مضر، فمن شاء أن يغير فليغير. فما يغير عليه أحد وتعترف له العرب بذلك. كان معاوية أخاها لأبيها وأمها وصخر أخاها لأبيها وكان أحبهما إليهما وكان محبوباً في العشيرة حليماً جواداً وأجمل رجل في العرب. أحسن إليها مرات عديدة وشاطرها ماله، ولنتركها تتحدث لنا عن صنائعه الجميلة، قالت :

دخلت على عائشة وعليّ صدار من شعر، فقالت لي ما هذا، فوالله لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ألبس صداراً عليه، قلت : أن له حديثاً، قالت : وما هو ؟ قلت : زوجني أبي سيداً من سادات قومي، متلافاً، معطاء، يقامر بالقداح، فأتلف فيها ماله حتى بقينا على غير شيء. فأراد أن يسافر فقلت له أقم وأنا آتي أخي صخراً فأسأله، فأتيته وشكوت إليه حالنا وقلة ذات اليد بنا. فشاطرني ماله وأعطاني خير النصفين. فانطلق زوجي فقامر به فقمر حتى لم يبق لنا شيء. فعدت إليه في العام المقبل أشكو حالنا فعاد لي بمثل ذلك فأتلفه زوجي. فلما كان في الثالثة أو الرابعة خلت بصخر امرأته فعذلته. ثم قالت : إن زوجها مقامر وهذا ما لايقوم له شيء، أما ترضى أن تقاسمهم مالك حتى تعطيهم خير النصفين ؟ فأنشأ يقول :

والله لا أمنحها شرارها وهي حَصَان قد كفتني عارها

ولو هلكت خرقت خمارها واتخذت من شعر صدارها

ثم شطر ماله فأعطاني أفضل شطريه، فلما هلك اتخذت هذا الصدار، والله لا أخلف ظنه، ولا أكذب قوله ما حييت.

هذه صنائع صخر معها، الذي مازالت تبكيه حتى عميت والذي عصت الناهين في سبيل النوح عليه وملأت الدنيا رثاءً وتفجعاً، أفلا يحق لها ذلك؟

يؤخذ من هذا الخبر أن للعرب عادات في حزنها على فقيدها، كما للأوروبيين شارات يعرف منها الحزين على من يعزّ عليه. من تلك العادات أن المفجوع كان يلبس صداراً ؛ أي ثوباً رأسه كالمقنعة يغشى الصدر، والمقنّعة ما تقنّع به المرأة رأسها، ولكن إذا عظمت المصيبة وجلّ الرزء كان يلبس على مدى الزمان كما كانت السيدة تماضر تصنع. ثم أن عادة لعب الميسر وهو القمار كانت فاشية أيضاً، حيث كانت هذه اللعبة المنكرة لا يقوم لها شيء من مال طارف أو تليد، وكم من بيوت خربت وعائلات افتقرت ورجال انتحرت من جراء هذا العمل الذي تطارده أكثر الحكومات في كل عصر ومصر. وبعد أفلا نستدل من قوله (وهي حَصَان قد كفتني عارها) على أن العرب من أحرص الأمم على عفة النساء، والعربية إذ ذاك لم تكن تعرف الزنا كما قالت هند أُم معاوية ــ لما بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء على أن لا يسرقن ولا يزنين ــ أو تزني الحرة يا رسول الله ؟ معاذ الله هذا شيء لا تعرفه العربيات الحرائر وإنما هو من أعمال الإماء. بدأت سلسلة كوارثها المدلهمة بمقتل أخويها معاوية وصخر، وانتهت بقتل بنيها الأربعة يوم حرب القادسية. فجميع حياتها إذاً من أولها إلى منتهاها مملوءة بما يدعو لتسلبها وطول عويلها، ويكفي ذلك لأن يجعلها ترن بأشعار الرثاء فقط وتحسن بلاغة القول فيها، فهي المنار الذي يهتدى به لصوغ آيات الأرنان والتلهف والتحنان واستدرار الدمع الهتان.

قتل أخوها في بعض أيام العرب، التي عقد لها صاحب العقد الفريد فصلاً طويلاً ذكر فيه هذه الأيام، وحدّث عن هذه الوقائع وأسبابها بما يكفي ويشفي، ذكر للعرب ما يقرب من تسعين واقعة جرت فيها حروب هائلة بينهم، منها حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ومنها حروب تغلب

وبكر ومنها حرب الفجار ومنها يوم حورة الأول الذي قتل فيه معاوية[1]، ويوم حورة الثاني الذي أخذ فيه صخر ثأر أخيه ويوم كلاب أو ذات الأثل[2] الذي قتل فيه صخر أخو الخنساء بعد ثلاث سنوات من مقتل أخيه معاوية. هذه الأيام هي التي كان العرب يسمرون بها ويقضون ليلهم بذكر أحاديثها صدر الإسلام، فلا سبيل لإنكارها من أصلها ولكن دخلها بعض مبالغات بما بنى عليها القصاص من القصص الطويلة التي ينشأ عنها زيادات مختلفة، ولنذكر خلاصة لليومين الذين قتل فيهما أخو الخنساء إتماماً للبحث، ليقف القارئ الكريم على كل ما من شأنه شرح العصر، الذي كانت شاعرتنا تعيش فيه والأحوال التي كانت تقع في بيئتها ومحيطها.

"للبحث صلة"

نتاج العرب العلمي والأدبي بالأندلس[3]

في الأدب المدرسي : قال صاحب نفح الطيب [الأندلس عراق المغرب عزة انساب ورقة آداب واشتغلاً بفنون العلم. وافتناناً بالمنظوم والمنثور. لم تضق لهم في ذلك ساحة ولا قصرت عنه راحة. وهم أشعر الناس فيما كثره الله في بلادهم وجعله نصب أعينهم من الأشجار والأنهار والأطيار ولا ينازعهم أحد في ذلك الشأن الخ]. افتتح العرب بلاد المغرب كلها. وعهد الوليد بن عبد الملك لموسى بن نصير بأن يكون والياً على إفريقية، فأخضع قبائل البربر وتقدم بالفتوح حتى وصل طنجة، فافتتحها وخضع أهلها ودانوا

---

١ – حورة قرية على الفرات وروى أبو عبيدة حوزة.

٢ – ذات الأثل موضع بين ديار بني أسد وديار بني سُليم.

٣ – مجلة النواعير، ج٤ م٢، الرابطة الثقافية، حماه شباط ١٩٤٦ص١٢و١٣.

للعرب. وقد علم أن الخلاف ضارب أطنابه بين أهالي بلاد الأندلس، فصمم على فتحها، واستأذن بذلك الخليفة فأذن له. فجهز طارق بن زياد سنة ٩٢ هـ وأمره بعبور المضيق، فعبره إلى بر الأندلس. وسرعان ما وقعت الواقعة الكبرى، وانتصر طارق انتصاراً لا مثيل له في تاريخ الحروب، وانتشر الإسلام في تلك الربوع انتشاراً سريعاً. وحل بلاد الأندلس الكثير من قبائل العرب العدنانية واليمانية. ومنذ ذلك الوقت. أتى على الأندلس ثلاثة أدوار. الدور الأول : دور الولاة الذين عينوا من قبل الأمويين. الدور الثاني: دور ملوك بني أمية الذين أسسوا ملكاً عظيماً في بلاد الأندلس. الدور الثالث: دور ملوك الطوائف الذين قاموا على أنقاض الدولة الأموية. أما الولاة فقد كانوا عشرين والياً تعاقبوا على حكم البلاد وكانت أيامهم أيام ثورات وحروب طاحنة بين العدنانية والقحطانية. حتى قيل ليست هناك بقية من ارض الأندلس إلا رويت بدماء العرب. وينتهي دور هؤلاء الولاة سنة ١٣٨ هـ، فتكون مدتهم ستة وأربعين عاماً انقضت باضطرابات داخلية وفتن دائمة. فانتهز هذه الفرصة عبد الرحمن بن هشام بن عبد الملك؛ الذي نجا بنفسه من يد العباسيين، ودخل بلاد الأندلس،واستولى على قرطبة بمساعدة اليمانيين، وأسس فيها دولة أموية ثانية بقيت ٣٨٤ سنة؛ أي إلى سنة ٤٢٢ هـ، تولى الخلافة فيها تسعة عشر ملكاً منهم. وقد ازدهرت المدنية وأينعت ثمار العلوم في مدتهم، خصوصاً على عهد عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر الذي بلغت العلوم والمدنية في زمنه أعلى ذروتها. ثم يبتدئ الدور الثالث بعد انقراض هذه الدولة بملوك استولوا على بعض الولايات يعرفون بملوك الطوائف. وكان هؤلاء الملوك يرغبون في تقدم العلوم وانتشارها حباً منهم بالعلم وتثبيتاً لمراكزهم. فكان منهم بنو الأفطس الذين كانوا من أحرص الناس على نشر العلوم، حتى إن الملك المظفر منهم ألف له كتاب كبير سمي

(بالمظفري) يقع بنحو خمسين مجلداً. وكانت أيـــام بنـــي المظفـــر أعيـــاداً ومواسم. وفيها قال الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون، قصيدتـــه الشهيرة. ومن هؤلاء : بنو هود ملوك سرقسطه وكانوا مـــنِ أنصـــار العلـــم وأهله. ومنهم المعتمد بن عباد. وكان شاعراً عالماً. مـــن وزرائـــه الكـــاتب الشاعر ابن زيدون. ثم تعاقبت الدول من المرابطين والموحدين إلى انتـــهى الأمر لبني الأحمر ملوك غرناطة. وبانقراضهم زالت دولة العرب من بـــلاد الأندلس في أواخر القرن التاسع الهجري.

وكانت أول قطعة أدبية ظهرت في بلاد الأندلس تلك الخطبة الرائعة التـــي ألقاها القائد الكبير طارق بن زياد على جنده يثير بـــها حماســـتهم ويرغبـــهم بالألذِّ الأرْفَهِ طويلاً، إذا صبروا على شدائد الحرب قليلاً. وقد كان لها الأثـــر العظيم في نفوسهم، فجعلهم يرغبون بالموت على قدر ما يرغـــب أعداؤهـــم بالحياة.

هذه مقدمة لآبد منها لمعرفة الأدوار التي مرت ببلاد الأندلس ثـــم نذكـــر بعدها ما للعرب من نتاج علمي وأدبي بتلك الأصقاع:

نتاج العرب العلمي :

اشتغل العرب بالعلوم بجميع أنواعها، وكان ملوك بني أمية بصفة خاصـــة يجتهدون لتقدمها وانتشارها ليضاهوا دولة بني العبـــاس بالمشـــرق. فكـــانت الدولتان تتباريان في ميدان السباق العلمي، وكان كل منهما حريصـــاً علـــى إحراز قصب السبق في هذا المضمار. وكان عبد الرحمن الثـــاني معـــاصراً للمأمون، شديد الحرص على تقدم العقول وترقية الأفكار وتقويـــة المـــدراك بالعلوم والصناعة. وجاء من بعده عبد الرحمن الثالث، فكان زمنه من أحفـــل أيام العرب بأسباب الرقي والمدنية؛ التي قلما شاهد الناس لها مثيلاً، ونمـــت المواهب العربية كما ينمو النبات بالتربة الخصبة.

ظهر أثر ذلك في علومهم وآدابهم من شعر ونثر وتأليف بشتى العلوم مما يندر مثله في غير دولتهم. فكان لهم ستون مكتبة عامة؛ أشهرها مكتبة قرطبة تحتوي على الكتب العقلية والنقلية؛ التي ترجمها وألفها العرب في الزراعة والفلك والرياضة والطب والكيميا والموسيقى وفنون الأدب؛ كالبلاغة والتاريخ والقصص والرحلات والخطب ودواوين الشعراء المختلفة، ومعاجم اللغة وأصول الدين ككتب التوحيد والفقه والحديث والتفسير. كل ذلك كان مجموعاً جمعاً منظماً في مكتبة الحكم المستنصر الذي رباه أبوه عبد الرحمن الثالث على يد أمهر الأساتذة، ووكل أمر تعليمه إلى أبي علي القالي. حتى أنه بعث في كتاب الأغاني إلى مؤلفه أبي فرج بألف دينار، فجاءه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق. وقد كان لهم في كل من قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسين جامعة كبرى لتلقي الطب، يؤمها الطلاب من جميع أقطار أوروبا لتلقي ما كان يدرس فيها من العلوم؛ التي جهزت عقولهم بالأنوار الساطعة، فبنوا عليها مدينتهم الحاضرة التي أسسها لهم العرب بمدارسهم وأساتذتهم.

كما أن العلوم العقلية والحكمية كان لها المقام الأعلى من عنايتهم واهتمامهم. كان للفنون الجميلة كالغناء والموسيقى وفن البناء القسط الأوفر من هذه العناية. فقد بنى عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر لجاريته الزهراء مدينة كانت من أحسن المدن في الأندلس وأتقنها صنعاً سماها باسمها. وكان اهتمامهم بفن التصوير والنقش عظيماً حتى أن آثارهم بذلك لا تزال ماثلة للعيان إلى يومنا هذا، تنطق بمالهم من أياد بيضاء على هذه الفنون. وقد كانت تحتوي قرطبة على (٣٨٣٧) مسجد وعلى (٧٠٠) حمام، مما لم يسمع مثله في أعظم العواصم العربية في يومنا هذا. نذكر ذلك ليتبين للقارئ الكريم ما كان لهذه الأمة العظيمة من أعمال مدنية أيام كانت أوروبا غارقة في ظلمات الجهالة وغياهب البربرية.

نقد الشعر*

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الحمد لله حمداً نستديم به النعم، وندفع به عنا النقم، والصلاة والسلام على أفصح ناطق بالضاد وأعظم من شاد دعائم الأدب العربي بما قدم إليه من (حديث) جُلّ عن نقد الناقدين، وعيب العائبين. ورضي الله عن آله وأصحابه الكرام. أخص منهم اللسن المقاول، والخطباء المصاقع، والشعراء الفحول الذين سنّوا لمن أتى بعدهم طريقاً لاحباً[1] بالكتابة والشعر والخطابة، كان من انتهجه بعدهم سالماً من وصمات القول، وإنكار المنكرين.

أما بعد، فإنه من المشاهد المحقق أن الأدب العربي سائر بطريق التقدم بخطى واسعة، مع ما يقف بطريقه من العقاب وقد رأيت أن من وسائل تقدمه أن يستكثر المؤلفون من الكتابة بأبحاثه ، وتراجم رجاله والتعريف بمزاياهم على الأسلوب اللائق بهذا العصر أسلوب (التحليل والتنقيد) وأن يكون ذلك على أجزاء متتالية، وأبحاث متسلسلة بأثمان زهيدة ليتناولها بالمطالعة كل شاد بالأدب، ويستفيد منها من له رغبة بتعلمه والإطلاع على نفائسه. لذلك عزمت (متكلاً على الله) على إصدار أجزاء (القطوف) محتوية من هذه الأبحاث الشريفة على ما تقرّ له عين المطالع اللبيب، وجعلت مقدمة الكلام على فصول في (نقد الشعر) لأننا بحاجة قصوى لهذا النوع من الأدب العالي، وقد اهتمّت له وزارة معارفنا الجليلة وجعلته ضمن برنامجها الدراسي بمدارس التجهيز، فكان ذلك سبباً لتنبه أفكار الناشئين للنظر الصحيح بما يُنشر من شعر ليس فيه إلا رصف الألفاظ وربطها بوزن

---

* الجزء الأول من كتيب القطوف، مطبعة الإصلاح، حماه ١٩٢٩ .

وقافية، وباعثها لمعرفة جيده من رديئه، والتمييز بيـــن حســنه وسفســافه، وسأجعل ما أكتبه في ذلك مطابقاً لما قصدته الوزارة فـــي برنامجــها ليعــمّ بفائدته طلاب المدارس وغيرهم. راجياً من الله العون على ما قصدت مـــن نفع أبناء الوطن وترقية أدبنا العربي، عسى أن يكون فيما أجمعـــه ضمــائم نافعة لمكتبة آدابنا العامة، إنه على ما يشاء قدير.

عموم النقد

النقد يتناول الميول والأفكار ويتناول الصناعات والأعمـــال، فــهو عــام لجميع ذلك. ينظر الإنسان لصورة مرسومة فيقول لو كان وضعها كذا لكـــان أجمل، ولإلقاء درس فلا يستحسن أصوله ولبناء فيقول : ليت هندسته كـــانت على غير هذا الترتيب، ولكتاب مؤلف فيظهر ما فيه من خطأ، ولتاريخ عـــام أو خاص فيمحصه ويبين ما فيه من الأغلاط، ولرأي ضمن مقالـــة فيفنّـده، ويسمع لموسيقيّ فيقارنه بغيره ويفضله عليه، ولقصيدة شاعر فيقــوّم زيغــها ولنثر ناثر فيصححه ، جميع ذلك يرجع لنقد ما رآه، فالنقد إذاً غربلة عامـــة للميول والأفكار والصناعات والأعمال، ينتظم الشؤون الكثـــيرة مـــن هــذه الحياة.

والنقد الذي سنتكلم عليه في أبحاثنا هذه خاص بالشعر الذي هو من أهـــم أركان الأدب.

نقد الشعر

« قِدمه، ضرورته وفوائده، نبذة عن تاريخ الكتابة فيه »

كَلُف الناس منذ القدم بمعرفة فاسد الكلام وصحيحه، وتمييز حسنه من قبيحه، ولولعهم هذا كان الجاهلية ينصبون لهم حكماً من أحذقهم وأبصرهم بجواهر الكلام وأعرفهم بأساليب البيان الخالصة من المعتّلة المدخولة كالنابغة الذبياني في الجاهلية، إذ كان يحكم بين الشعراء والخطباء بفكرته الوقّادة ويوازن بينهم بنظره الصائب النقّاد، فيصدرون عنه نازلين على حكمه راضين بقضائه، علماً منهم أنه الحكم الذي لا يداري ولا يصرفه عن قول الحق صارف. وكم لهذا النقد وهذه الموازنة من فوائد على الشعر والأدب، إذ يبقى الشاعر ردحاً يقوّم سناد كلامه فيزف للأدب العربي من الفوائد ما يزيّن به جيد اللغة، ومن ثمار الشعر الجيد ما يتناوله العربي بلذة واشتهاء.

أجل، إن هذا النقد من أهم أركان اللغة والأدب بل هو ملاك الأمر فيهما وعموده وذروة سنامه، إذ لا يخفى ما للأدب من الأدعياء الذين يقوّضون صروحه بخروجهم عما رسم له من الطرق والقواعد، فصار من الضروري وضع حد لفوضى أدبية عامة لا تلبث أن تأتي على اللغة فتطمس محاسنها وتعفي آثارها، ويصبح الآخر لا يفهم كلام الأول ولا يدرك مراميه فتُهجر القوانين اللغوية وتُترك القواعد الموضوعة لحفظ كيانها، فنصبح غرباء بلسانها مستعجمين ببيانها.

لذلك صار من آكد الواجبات وضع أسس قويمة يقوم عليها علم النقد، النقد الشعري، النقد اللغوي، النقد النثري، لتبقى اللغة محفوظة المفردات والتراكيب متينة الأساليب.

وانظر إلى النقد كيف يجعل الشاعر قائماً على تثقيف شعره، عاملاً على تقويم ميله فقد قال ذو الرُمة :

وشعر قد أرِقــت لــه طريــف أجنبــه المســاند والمحــالا[1]

وقال اسحق بن ابراهيم الموصلي وذكر قصيدة :

فلما أقمت الميل منــها ولــم أدع بها أوداً مما يعــاب ولا كســرا

أتيتــك أهديــها إليــك تقربــاً وشكراً لنعمى منك تستوجب الشكرا

وقال عدي بن الرقاع :

وقصيدة قد بــت أجمــع بيتــها حتى أقــوم ميلــها وسـنادها

نظر المثقف في كعــوب قناتــه حتــى يقيــم ثقافــه منآدهــا

أول من كتب فيه

انتقلت اللغة بفضل الإسلام من دور البداوة إلى دور الحضــارة، ولكــن الشعر لم يزل عريقاً في البلاغة، سالماً من الركاكة، بل كــان يعــد الشــعر والنثر الإسلاميين أعلى طبقة من الشعر والنثر الجاهليين لما زاد في الخيــال الشعري من التأثيرات الاجتماعية بتنوع نظام الاجتماع وتقليد أسلوب القــرآن الحكيم، وهو أرقى أسلوب ظهر في اللغة العربية.

وقد هجر هؤلاء الألفاظ الوحشية التي كان الجاهليون يكثرون اســتعمالها مع تحدي الأسلوب الجاهلي بالنظم، ولم يكن لنقد الشعر آثار تذكر في ذلــك العصر سوى ما كانوا يتطارحونه بمجالس الأدب ويتذاكرون فيه نقد بعــض الأشعار، وسوى ما كان يجري من الجدل والمناظرة في العصــر الأمــوي فيمن هو أشعر ؟ أجرير أم الفرزدق أم الأخطل مثلاً ؟ فلمــا جــاء الــدور

---

١ – المساند ما فيه عيب السناد والمحال ما كان ممتنعاً مستحيلاً .

العباسي واتسع الخيال الشعري باتساع مناحي الحضارة والاجتماع بدأوا يتبرمون من طريقة الجاهليين، وينتقدون أسلوبهم، ويطلبون مخرجاً لما يلائم بيئتهم ويواكب الحرية التي كان في العباسيين من هو من أشد أنصارها.

من أولئك المتبرمين مطيع بن إياس وأبو نواس وغيرهما انتقدوا التمسك بالخيال القديم مع حدوث خيال واسع جديد، من ذلك قول أبي نواس :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند ... واشرب على الورد من حمراء كالورد
كأساً إذا انحدرت من حلق شاربها ... أجْدَتْه حمرتها في العين والخد
فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة ... في كف جارية ممشوقة القد
تسقيك من يدها خمراً ومن فمها ... خمراً فمالك من سكرين من بد
لي نشوتان وللندمان واحدة ... شيء خصصت به من بينهم وحدي

وجرى على ذلك أبو العتاهية وغيره من الشعراء. إذ لم يروا من اللائق بساكن بغداد المتقلب بين الحور والقصور، المتمتع بلذائذ الحياة، أن يصف الخيام ويتغنى بالإبل والشيآء.

ونحن نعذر هؤلاء الشعراء لعدم جمودهم على معان قدمت، واقتضت غيرها سنة الكون القائمة في كل عصر، ومن يعاند مجاري السنن الطبيعية وتياراتها يبوء بالفشل والخذلان. فالحضارة لها معان والبداوة لها غيرها، والحضارة تفتّق الأذهان بما يتولد فيها من الإبداع والاختراع تبعاً لسنة الارتقاء .

أول من قام من الجهابذة للتأليف بانتقاد الشعر محمد بن سلام الجمحي المتوفي سنة ٢٣٢ هـ في كتابه طبقات الشعراء، وأبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي بكتابه جمهرة أشعار العرب، وضع في صدر كتابه مقدمة انتقادية في الشعر واللغة والمقابلة بين لغة القرآن وأقوال الشعراء، وفي كتاب قواعد الشعر لثعلب شيء من النقد، وفي كتب الأدب التي ألّفها

الجاحظ، وابن قتيبه، وابن عبد ربه جمل صالحة بـــالنقد الشـــعري نخـــص بالذكر عبد الله بن مسلم بن قتيبه الدينوري المولود سنة ٢١٣ هـــ في كتابـــه الشعر والشعراء ويسميه بعضهم طبقات الشعراء أو أخبار الشـــعراء، وهـــو أيضاً صاحب كتاب أدب الكاتب الذي انتقد في صدره المنشئين، ثم أتى مـــن بعد هؤلاء قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب البغدادي، وكان أديبـــاً شـــاعراً توفى ٣١٠ هـــ ، فأفرد لذلك كتاباً سماه "نقد الشعر"، وله كتاب آخر ســـماه "نقد النثر"، ولم يكد يفرد بعده علم النقد بكتاب خاص. غير أن الحسين بـــن بشر الآمدي المتوفى ٣٧١ هـــ وضع كتاباً في الموازنـــة بيـــن أبـــي تمـــام والبحتري؛ يشتمل على قواعد عامة بالنقد وهو مفيد جداً، وفي كتاب علـــي بن عبد العزيز الجرجاني الشاعر الكاتب المتوفى سنة ٣٩٢ هـــ الوســـاطة بين المتنبي وخصومه أبحاث في الشعر والشعراء لا تخلو من النقـــد، وفـــي كتاب يتيمة الدهر للثعالبي وهو أربعة مجلدات انتقادات وملاحظـــات علـــى بعض الشعراء .

جميع ما تقدم من المؤلفات كان من قبيل المقدمة والتمـــهيد حتـــى جـــاء الحسن بن رشيق القيرواني المتوفى سنة ٤٦٣ هـــ فوضع كتابه "العمدة فـــي صناعة الشعر ونقده"، وهو أجلّ كتاب في هذا الموضوع وفيه بحث تحليلـــي في الشعر ومعانيه على طريق الانتقاد، وقد شهد له ابن خلدون بأنه لم يكتـــب بهذه الصناعة أحد قبله ولا بعده مثله، وله كتاب آخر سماه "قراضة الذهـــب في نقد أشعار العرب" وقد وضعت بعد ذلك كتب عديدة لم تصلنا ككتاب نقـــد الشعر لأبي عبد الله محمد بن يوسف الكفرطابي المتوفى ســـنة ٥٠٠ هـــ ولمحمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي.

أما في عصرنا هذا، فهب العلماء والأدباء لتمحيص الشـــعر والإنشـــاء ونقدهما وتصفية تراكيبهما كجماعة المجمع العلمي بدمشـــق وطـــه حســـين

والعقاد والمازني وزكي مبارك في كتبهم، وأخص كتاب الموازنة بين الشعراء لزكي مبارك فإن فيه أبحاثاً نافعة في النقد وأسرار البيان، ولا نزال نقرأ كل يوم مقالات انتقادية على بعض شعراء العصر وكتّابه، يذكر فيها الناقدون ما يرونه خطأ ينقد وزائفاً يمحّص، فجزاهم الله عن اللغة والأدب خير الجزاء.

إننا اليوم في عصر الحقائق والعلوم، عصر التدقيق والتحليل، لذلك ينبغي أن يتخذ النقد منحى مستكملاً بشروطه المعتبرة، مبنياً على (تحليل) نفسية الشعراء، وأن تكون الكتب الموضوعة لذلك ملائمة للرقي العصري، المملوء بآثار الجد والحياة، وهذا ما ننتظره من علمائنا وأدبائنا. فالشاعر كالطيار يسبح بعلياء الخيال الواسع، فيعلو تارة حتى يسمع تسبيح الأملاك ويسفل أخرى حتى يصل لمستقر الأسماك، وهو صائغ يصطنع الجواهر فقد تكون ذهباً إبريزاً وقد يغلب عليها النحاس فتكون مغشوشة، وهو كالشجر يحتوي على الزهر والورق والخشب اليابس والثمر فلا يفرق بين خياله العالي وإسفافه، ولا يخلص ذهبه الصافي من نحاسه، ولا يفرق ثمره من خشبه وزهره من لحائه، إلا ذلك المسبك العادل نقد الشعر. إذ به يتبين الشاعر الفنان الخبير بأسرار البيان، العارف بروائع الإبداع ذو المعاني الفياضة والديباجة المشرقة، الذي يحق لنا أن نجعله بصف جبابرة الفكر وأساطين الفن ممن يدعي الشعر وهو ليس منه ولا قلامة ظفر، ويظهر الشاعر المفلق من الشعرور الملفّق .

سبكناه ونحسبه لجينا فأبدى الكير عن خبث الحديد

نعوت النقاد

ينبغي لمن يتصدى لنقد الشعر أن يكون متّصفاً بصفات لابد منها لتتبيّن صحة نقده من فساده .

فأول هذه النعوت أن يكون من بلغآء الكتاب أو فحول الشعراء ممن تضلّع من علوم البلاغة وإدراك ما في الكلام من أسرار ولطائف، فكما أنه لا يسأل الفقيه عن مسألة حسابية كذلك لا يُسأل الحاسب عن مسألة فقهية، إذ لا يعلم أسرار كل علم إلا صاحبه الذي قتله درساً وبحثاً، فالنقد فرع من علوم الأدب، فيجب أن يكون الناقد ممن رسخت قدمه في هذه العلوم ونال منها قسطاً وافراً، ودرسها دراسة تفهم وتذوق حتى حصل منها على ملكة أدبية تصحح له أن يكون حاكماً على كلام الناس وليكون حكمه يرضي الحقيقة ويفوز بإقرار العلماء.

قلنا أن يكون راسخ القدم في علوم الأدب وما أدراك ما هي ؟

هي أعز أن تُنال باليسير الهيّن إذ هي مؤلفة من عدة زمر علمية أدبية، يصرف الإنسان جهداً في الزمرة الواحدة ليحصل منها على ملكة علمية تخوله أن يكتسب ويباحث ويناظر، ولن يتأتى له هذا الرسوخ إذا لم يكن بعيد الأناة والصبر على مطالعة الكلام البليغ، مع حفظ طائفة صالحة من منظوم كلام الفحول المبّرزين، ومنشور جهابذة الكلام وأمراء البيان، ليقيس الأسلوب الذي ينقده على ما عهده من أساليب هؤلاء الأساطين ، فيجيد الميز ويحسن النقد .

<u>ثانياً</u> :

أن يكون خالياً من شائبة كل هوى وغرض غير نصرة الأدب والعلم، وقديماً تحاشى العلماء من قبول جرح أو تعديل من المعاصرين لأن المعاصرة حجاب كثيف يتولد منها الحسد والمنافسة فتأتي بنتائج بعيده عن

الصواب لا يقام لها وزن لدى صيارفة النقد، فقد حكي عن أبن الأعرابـــي، وكان من مشاهير العلماء أنه عرض عليه أرجوزة أبي تمام اللاميّـــة، التـــي مطلعها :

وعاذل عذلته في عذله.. إلخ

وقيل له هذه لفلان من شعراء العرب فاستحســـنها غايـــة الاستحســـان، وقال: هذا هو الديباج الخسراواني، ثم استكتبها فلما أنهاها قيل له هذه لأبـــي تمام، فقال : من أجل ذلك أرى عليها أثر الكلفة، ثم ألقى الورقة من يده وقال يا غلام : خزّق، خزّق.

فانظر كيف أن المعاصرة حجبت أبن الإعرابي مع أنه حكم بأن ما سـمعه من أروع ما قيل. فعلى الناقد أن ينظر إلى الكلام من غير أن يخضع لنزعـة من النزعات التي تجعله على غير بصيرة في تمحيصـــه وتميـيزه، ســواء أكانت تلك النزعة دينية أم جنسية أم حزبية أم نزعة شغف لقديم أو جديـد أو غير ذلك ليكون بنقده من أولي التثبت والإنصاف .

ثالثاً :

على الناقد أن يدرس نفسية الشاعر الذي يتصدى لنقد شعره، وينظر فـــي أي محيط نشأ، وماذا كان يكتنفه مـــن المؤثـــرات الاجتماعيـــة والسياســـية، فالشاعر الذي ينشأ في بيئة حرة ومحيط اجتماعي راقٍ ليـــس كـــالذي ينشـــأ والكمائم موضوعة في فمه واللجم قرحت أشداقه لا بقدر أن ينم على شـــيء من مبدئه الاجتماعي ومذهبه السياسي مثلاً. وليس الذي يعيش فـــي ســـوريا كمن يعيش بأوروبا وأميركا، فإن لكل من هـــذه البـــلاد أحـــوالاً خاصـــة، ومشاهد ومناظر وشؤوناً اجتماعية ليست كالأخرى، توحـــي للشـــاعر مـــن الخيالات أموراً متغايرة متمايزة. من هنا، يمكننا أن ننتقد بقاء رسم الـــهودج في خيال شوقي بقوله :

ارفعي الستر وحيي بـــا لجبيـــن وأرينا فلـــق الصبـــح المبيـــن
وقفـــي الـــهودج فينـــا ســـاعة نقتبس من نـــور أم المحســـنين
واتركي فضـــل زماميـــه لنـــا نتناوب نحن والـــروح الأميـــن

فشوقي وإن كان كثير الدراسة للشعر القديم فعليه أن ينتبـــه إلـــى أن أم المحسنين كانت تركب سيارة تنهب الأرض نهباً لا ناقة تسرع بوخذٍ وإرقال. فعلى الناقد أن يتعمق بمعرفة ما لكل شاعر من شـــخصية وخواطـــر قلـــب ونوازع وجدان عندما قال شعره، وأن يدرس شعره من ديوانه بقراءته مـــن أوله إلى أخره بتمعن، وتفهّم، لئلا يحكم حكماً ناقصاً لمجرد اطلاعـــه علـــى بيت أو قصيدة.

رابعاً :

وضوح النقد والاستدلال عليه لئلا يكون الحكم مطلقاً غير مميز ومبـهماً غير محدود ولا معين، فلا تتبين حقيقة شعر الشاعر وتحدد شاعريته بكلمـــة تقال عنه ، كما يروى ذلك عن بعض علماء الأدب.

فقد سئل الجاحظ وهو الخبير بأسرار الكلام وجمال البيان عن شعر أبـــي العتاهية فقال :

إنه أملس المتون، ليس له عيون[1] فهذه العبارة لا يكاد يفهم منها الســـامع ما يحدد شعر أبي العتاهية تحديداً واضحاً. وسئل أبو عمرو بن العلاء عـــن الأخطل ، فقال لو أدرك يوماً واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً، وهـــذا الجواب غريب في تحديد شاعرية الرجل إذ لا دخل للإعصـــار فـــي قـــوة

---

١ - الذي فهمناه من هذه العبارة هو أن قوله أملس المتون كناية عن أن الفاظـــه كثـــيرة الاستعمال، مفرطة في اللين وما كان مثله من الشعر يسمى مغسولاً، وقوله ليس له عيون أي كله متناسب ليس له عيون مختارة بالغة حد الكمال، وفي رواية قليل العيون.

الأشعار، وهكذا فإنك تجد بكلام كثير من العلماء وصفاً لشعر شاعر أو نقداً له لا يزيدك معرفته شيئاً مذكوراً.

خامساً :

على الناقد أن يحترز من غلط النقد وربما كان فيما انتقده مجاز أو توجيه حسن، وربما تأوّل الناقد غير ما ذهب إليه الشاعر أو الناثر، وربما كان للنسخ أو الطبع مدخل عظيم في بعض الأغلاط، فليس من الإنصاف أن ينتقد الشاعر بما يمكن تأويله وتوجيهه ولا سيما ضرائر الشعراء مشهورة، ويُغتفر لهم مالا يغتفر لغيرهم. مثال ذلك ما استدركه المبرد في كتاب الروضة على الحسن بن هانئ في قوله :

وما لبكر بن وائل عصم إلا لحمقائها وكاذبها

فظن المبرد أنه أراد بحمقاء (هبنقة القيسي) فانتقد عليه أن يقول في الرجل حمقاء ، ولكن الشاعر أراد [دغة] العجلية، وبها يضرب المثل في الحمق، وهي من بني عجل وهم من بني بكر.

سادساً :

لا يحق للناقد أن يتعرض لشخص من يتصدى لنقده أو لأموره الخاصة به، لأن شخصية كل إنسان ملكه، فلا يجوز التجاوز عليها لأحد، أما آثاره فبعد أن نشرها بين الناس خرجت عن ملكه وأصبحت حقاً مشاعاً بين كل من يقرؤها، فكأن الشاعر الذي يخرج للناس ديوانه يجعل لكل من يقرؤه فيه حقاً شائعاً، فالمنتقد إنما ينتقد بما له من الحق وجواز الأمر ولما كان الأمر كذلك فيجب على الشاعر المنتقد أن يكون واسع الصدر لكل ما من شأنه ترقية الأدب وإعلاء شأن اللغة، لا أن يختلق كل فريه ويلصقها بالناقد المخلص للأدب والعلم . فعلى الناقد أن يخلص النية، وعلى المنقود تحمّل إنكار المنكرين لأغلاطه وخطياته ، وأن يحمل أمرهم معه على أحسن

المحامل لا على أسوئها فيثير حرباً عواناً ربما جرّت الوبال عليه قبل غيره بسقوطه من أعين العقلاء. فباب النقد الأدبي يجب أن يكون مفتوحاً على مصراعيه من غير أن ينتظر رضى المنتقد .

أعود فأقول أنه لا خصومه بين الناقد والمنقود لأن قصد الناقد تمييز الصحيح من الفاسد وإظهار الحسن والقبيح والفرق بين الخطأ والصواب. وبعد كل هذا، فهو بشر يجوز عليه الخطأ والنسيان، فإذا أخطأ فحسناته ونيته الصادقة يشفعان له في قليل خطئه والعصمة لله ولأنبيائه. فالناقد بما أوتي من دقة الذوق ورقة الشعور والقدرة على البيان والملكة الأدبية يضع قيمة لديوان الشاعر، ويزنه وزناً قريباً من الصحة، وليس عليه أن يكون ميزانه مسجلاً عند جبريل وميكائيل عليهما السلام، فطلب ذلك من الناقد محال وسد لباب النقد الأدبي .

وليس الناقد إلا دليلاً يُبيّن للمغرور طريق الصواب، فقد يميت شاعراً تجاوز حدّه بردّه إلى حقيقته ، وقد يحيي ذكر شاعر بنبشه من بين دفائن الماضي وتعريفه للناس وبيان مزاياه الأدبية وقيمته الشعرية. وانتقاد الشعر أصعب من نظمه، فقد قال أبو عمرو : انتقاد الشعر أشد من نظمه، واختيار الرجل الشعر قطعة من عقله .

مذاهب الناس في النقد

يختلف نظر الناس بنقد الشعر جل الاختلاف، فمنهم من يميل إلى ما سهل فيقول : خير الشعر مالا يحجبه شيء عن الفهم، ويقول أيضاً : خير الشعر ما معناه إلى قلبك أسرع من لفظه إلى سمعك، ومنهم من يؤثر الألفاظ الجزلة المتينة والأساليب الفخمة الرصينة كأبي عبيدة ويونس بن حبيب وأبي عمرو الشيباني وابن الأعرابي، ذلك لأن أذواقهم توافق اختصاصهم

وهو البحث بمادة اللغة وألفاظها. ومنهم من يؤثر المعنى الطريف في اللفظ المستعذب الرقيق الذي لا ينحط إلى لغة السوقة كالجاحظ وأمثاله من الكتاب والشعراء ورواة الأدب لأن أذواقهم تلائم اختصاصهم أيضاً، وهو البحث بمعاني الشعر المستملحة اللابسة من ثوب اللفظ أرقّه وأشفّه وأعذبه، لذلك كان للفرزدق وابن مقبل عند علماء مادة اللغة المقام الأول ولجرير عند الشعراء والأدباء كبشار بن برد وأبي نواس المكانة العظمى، ولهذا السبب كان ثعلب يفضل مسلم بن الوليد والبحتري يفضل أبا نواس، ولذلك حكاية خلاصها أنه سئل بشار عن سبب إيثاره جريراً فقال :

إنما يعرف الشعر من يضطر إلى أن يقول مثله. وبمثل ذلك أجاب البحتري لما ذكر له أمر ثعلب ، ومنهم من يقول : ما كان مطابقاً للصدق وموافقاً للوصف كما قيل :

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

أما طريقة النقد عند أدباء هذا العصر فهي مستمدة من طريقة المعاصرين من النقاد الأوربيين، وخلاصتها أن يبنى النقد على اللذة الفنية، ويُنظر للفظ الشاعر ومعانيه ويستدل بذلك على نفسيته وشخصيته، وينتقل من ذلك إلى معرفة عواطف أبناء عصره وميولهم، إذ الشاعر جزئي من جزئيات زمنه يستدل به على كلياته، فنتيجة النقد الأدبي أن تنتقل من نقد الشعر إلى معرفة الشاعر وتحديد شخصيته ومنها إلى معرفة صبغة عصره وأذواق جماعته المعاصرين وأحوالهم الاجتماعية والسياسية والعمرانية، ومنها إلى التأثير في نفسك فيبعث فيها العواطف على اختلاف أنواعها من رضى أو سخط أو إعجاب أو مقت وهذه النتائج هي التي توخّى مجموعها (سانت بوف) و(تين) و(جول كمتر)(١) في طريقة انتقادهم لشعر شعرائهم.

---- (١) تشالرز أوجستين سانت بوف(١٨٠٤ - ١٨٦٩) وتلميذه هيبوليت أدولف تين(١٨٢٨ - ١٨٩٣) من كبار النقاد الفرنسيين في عصر النهضة.

يتوقف النقد الشعري على استكمال العلوم الأدبية التي لابد منـــها ليكـــون الإنسان أديباً كاملاً، وللنقد صلة بجميع هذه العلوم، إذ قد يكون النقد لمخالفـــة علم الصرف كقول أبي نواس:

كأن صغرى وكبرى من فواقعـــها حصباء در على أرض من الذهـــب

فقوله صغرى وكبرى لا يجيزه علم الصرف لأن فعلى أفعل إذا لم يكـــن مضافاً لا يجوز حذف (أل) منها، وقد غلّطوا أبا تمام بقوله :

بالقائم الثامن المستخلف اطّأدت قواعد الملك ممتداً لهل الطـــول

والصواب [اتّطدت] لأن أصلها [اوتطدت] فأبدلت التاء من الواو على القاعدة الصرفية.

وقد يكون النقد لمخالفته قواعد النحو كقول أبي نواس في الأمين :

يا خير من كان ومـــن يكـــون إلا النبـــي الطـــاهر الميمـــون

فرفع في الاستثناء من الموجب، وكذلك لما انشد العماني الرشيد يصـــف فرساً :

كـــأن أذنيـــه إذا تشـــوفا قادمـــة أو قلمـــاً محرفـــا

ولَحَن، فهمّ ذلك أكثر من حضر، فقال الرشيد : اجعل مكان [كأن] تخال فعجبوا لسرعة بديهته .

ويتوقف النقد أيضاً على علمي العروض والقوافي لكـــون البيـــت كثـــير الزحافات حتى يُظنّ أنه خارج عن الأوزان الشعرية، إذ الذوق ينبوعن بعض الزحافات ويكون ذلك جائزاً في العروض وقد ورد للعرب مثله. وقد تشتمل القافيـــة على عيب من عيوبها، أما علوم البلاغة فهي قطب رحى النقد الذي عليه يدور وإليـه يرجع، إذ لا تُعرف فصاحة الكلام وبلاغته ولا يُســتدل على مواقع الحسن

منه إلا بها، وهل تعرف سراً لتلك الهزّة التي تـأخذك عندمـا تنشـد قـول الشريف الرضي :

أمرابع الغزلان غيّرك البلـى حتى غدوت مراتـع الغـزلان

إلا بمعرفة الاستعارة ووجوه حسنها وشروط قبولها ، وهل تنكر الألفـاظ الغليظة الفظة كقول أبي تمام :

قد قلت لما اطلخمّ الأمر وانبعثت عشواء تاليـة غبسـاً دهاريسـا

إلا بمعرفة تلك العلوم، وسيمر عليك في الجزء الثاني، إن شاء الله، أمثلة للقصائد التي تجمع الألفاظ الكريمة والمعاني المستملحة، وإنني أدلّك مـذ الآن على قصيدة السموأل المشهورة (إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه) فـإن ألفاظها في غاية السهولة ومعانيها بمنتهى الحسن.

وخلاصة القول : إن فن النقد يحتاج لمعرفة علـوم الأدب بأسـرها، ولا يخفى أنه يدخل تحت علوم الأدب بعض العلوم الاجتماعية كالتاريخ ووصـف الأرض وعلمي الاجتماع والنفس، فله إذاً صلة وثيقة بكل ذلك .

نماذج أبيات لبعض الشعراء انتقدها العلماء

أردت في هذا المبحث أن أقدم نموذجاً عملياً لنقد الشعر، بـأن أعـرض أبياتاً عديدة لبعض الشعراء، وأبيّن رأي العلماء فيها وما انتقـدوه عليـها، ليعلم كيف يكون النقد ومن أي الطرق يسلك إليه، ويمكننا حينئذ أن نتصـور بعض جهات النقد فنقيس عليها ما يعرض لنا من شعر ونتمرن على معرفـة الأصول التي اعتمد عليها العلماء معرفة إجمالية، وبذلك نتمكن من تصـور هذا العلم أفضل تصور، ومن تصور علماً هان عليه الخوض فيه والاطـلاع على قواعده. وسأفرد جزءاً خاصاً لبيان القواعد التي بني عليها النقد بعـد أن أمهد لك الطريق إلى ذلك بهذا الفصل، فهذا البحث أشبه شيء بالأمثلة تقـدم

أمام الدرس لينتقل بها من المثال إلى القاعدة، ومن المحسوس المشاهد إلى المجرد المعقول، ليستنير السبيل للسالكين.

نقد للفظ لم يقع موقعه

(١)

تلاحى مسلم بن الوليد وأبو نواس فقال : ما أعلم بيتاً لك يخلو عن سقط، فقال أبو نواس : ذكر شيئاً من ذلك، فقال : بل أنشد أنت أي بيت شئت، فأنشد أبو نواس :

ذكر الصبوح بسحرة فارتاحا وأمَلّه ديك الصباح صياحا

فقال مسلم : قف عند هذا : لمَ أمله ديك الصباح وهو يبشر بالصبوح وهو الذي يرتاح إليه، فقال أبو نواس فأنشدني أنت، فأنشده.

عاصى الشباب فراح غير مفند وأقام بين عزيمة وتجلد

فقال أبو نواس : ناقضت فذكرت أنه راح والرواح لا يكون إلا بالانتقال من مكان إلى مكان، ثم قلت : وأقام فجعلته متنقلاً مقيماً في حال وهذا متناقض.

قلت : كلا البيتين جيدان ويمكن أن يوجد لهما توجيه حسن، فتوجيه بيت أبي نواس أن شوقه لازدياده صار يملّ حتى من تطويل صياح الديك ولو كان بشير الصباح، وهذا معنى جيد. وأما بيت مسلم فليس فيه من التناقض شيء لأن كلمة راح بالشطر الأول معناها صار، وليس المراد الرواح الذي هو الانتقال من مكان إلى مكان والبيت لا غبار عليه، ولكن من أراد عيباً وجده ولو صورة .

(٢)

شخص اسحق الموصلي إلى الواثق بـ (سر من رأى) وأهله ببغداد، فتصيّد الواثق وهو معه إلى نواحي عكبراء، فلما قرب من بغداد قال :

طربت إلى الأصيبية الصغار وهاجك منهم قرب المزار

وكل مسافر يزداد شوقاً إذا دنت الديار من الديار

ولحّنه وغناه للواثق فاستحسنه وأطربه، فصرفه إلى بغداد على ما أحب، وكان اسحق قال أولاً :

وكل مسافر يشتاق يوماً إذا دنت الديار من الديار

فعابوا قوله (يوماً) وقالوا هي لفظة قلقة في هذا الموضع لم تحل بمركزها ولا لها هنا موقع، قال : فضعوا مكانها مثلها لا خيراً منها فما استطاعوا ذلك، فغيّرها إلى ماأنشدته أولاً.

إن لفظة (يوماً) بالبيت الأصلي لا معنى لها بل ربما غيّرت المعنى إلى ما لا يراد فيصير وكل مسافر يشتاق إذا قربت داره في يوم من الأيام، على أن عادة المسافر أنه يشتاق إذا قرب كل يوم لا يوماً من الأيام ، لذلك كان إقحام هذه الكلمة موجباً للنقد .

(٣)

حدّث عبد الأعلى الشيباني عن أبيه قال : قال مروان لبشار لما أنشده هذا البيت :

وإذا قلت لها جودي لنا خرجت بالصمت من لا ونعم

جعلني الله فداءك يا أبا معاذ هلاّ قلت (خرست) بالصمت ؟ فقال إذاً أنا في عقلك فض الله فاك : أتطير على من أحب بالخرس ؟

النقد لغلط الرواة

روى المفضل قول امرئ القيس : (نمسّ باعراف الجياد أكفنا) وما هو إلا (نمشّ) أي نمسح والمَشوش المنديل. وكذلك روى المفضل

وإذا ألم خيالها طرقت عيني فماء شجونها سجم[1]

وإنما هو (طرفت).

ولذلك كان ذو الرمة يقول لموسى بن عمرو: اكتب شعري فالكتاب أعجب إلي من الحفظ لأن الأعرابي ينسى الكلمة، قد تعب في طلبها ليلة فيضع في موضعها كلمة في وزنها ثم ينشدها الناس والكتاب لا ينسى.

وكثيراً ما تقع الأغاليط في القصائد، فيكون ذلك سبباً لنقدها، ويُظنّ أن قائلها هو المخطئ والخطأ في راويها.

نقد المعنى

قال الأعشى يحدّث عن امرأة:

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

ولا أدري أي نكرة تكون أنكر عند الغانيات من الشيب والصلع؟

ومن نقد المعنى ما تراجع به الأخطل وفتى من بني تميم قال الأخطل: أخطأ الفرزدق حيث قال:

أبني غِدانة إنني حررتكم فوهبتكم لعطية بن جعال

لولا عطية لاجتدعت أنوفكم من بين الأم أوجه و سبال

كيف يكون وهبَهم له وهو يهجوهم هذا الهجاء، فانبرى له فتى من بني تميم فقال: وأنت الذي قلت في سويد بن منجوف:

---

(١) سجم أي عزيز .

فما جذع سوء خرّق السوس بطنه لما حملته وائل بمطيق

أردت هجاءه فزعمت أن وائلاً تعصب به الحاجات وقدر سويد لا يبلغ ذلك عندهم، فأعطيته الكثير ومنعته القليل، وأردت أن تهجو حاتم بن نعمان الباهلي وأن تصغّر من شأنه وتضع من قدره فقلت :

وسود حاتماً أن ليس فيها إذا ما أوقد النيران نار

فأعطيته السؤدد من قيس الجزيرة ومنعته ما لا يضر منعه وأردت أن تمدح سماكاً الأسدي فقلت :

نِعم المجير سماك من بني أسد بالطفّ[1] إذ قتلت جيرانها مضر

قد كنت أحسبه قيناً فأنبئه فالآن طير في أثوابه الشرر

فانصرف الأخطل خجلاً .

وجميع الأبيات التي في هذه الحكاية منقودة من جهة المعنى، أما قول الفرزدق فقد أبان الأخطل عن وجه نقده، وبقية الأبيات ذكر الفتى التميمي أيضاً وجه نقدها، وأما البيتان الأخيران، فإن سماكا الأسدي كان يعيّر بالقيّن، فقال له الأخطل كنت أحسبه قيناً غير أن شرر الحدادين قد تطاير عنه ؛ أي ظهر أنه ليس حداداً . فذِكر القيّن على هذه الصورة مما يكرهه الممدوح ولا يحب سماعه. ومن نقد المعنى ما حدّثه اسحاق بن ابراهيم الموصلي قال:

قالت امرأة لكثير أأنت القائل :

فما روضة بالحزن[2] طيبة الثرى يمج الندى جثجاثها[3] وعرارها

بأطيب من أردان عزة موهنا إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها

---

١ - الطف ماأشرف من أرض العرب على ريف العراق .

٢ - روضة الحزن أطيب وأحسن من روضة الأرض السهلة .

٣ - الجثاث والعرار نبتان طيبا الرائحة .

قال نعم : قالت فضّ الله فاك : أرأيت لو أن ميمونة الزنجية بُخّرت بمندل رطب أما كانت تطيب ؟ أما قلت كما قال سيدك امرؤ القيس :

ألم تـر أني كلما جئـت طارقاً رأيـت بها طيباً وإن لم تطيـب

ومن الأبيات التي زادت قريحة قائليها على عقولـهم فصـارت فاسـدة المعنى قول كثير:

ألا ليتنا يا عَزّ كنا لـذي غنـى بعيرين نرعى في الخلاء ونعـزب

كلانا به عرّ فمـن يرنـا يقـل على حسنها جرباء تُعدي وأجـرب

نكون لذي مـال كثـير مغفـل فلا هو يرعانا ولا نحـن نطلـب

إذا ما وردنا منهلاً هـاج أهلـه إلينا فلا ننفـك نرمـى ونضـرب

فقالت عَزّة: لقد أردت بي الشقاء الطويل ومن المنية ما هو أوطأ من هـذه الحال .

ومن فساد المعنى في شعر أبي تمام قوله :

تكاد عطـأيـاه يُـجن جنونـها إذا لم يـعوّذها بـنغمة طـالب

فما بالها يحوجها إلى الجنون ويلتمس لها العوذ والرقى، هلاّ فك أسـرها وقدم خلاصها ولم ينتظر بها نغمة الطالب ،ففعل ما قاله أبو الطيب :

وعـطاء مال لـو عداه طـالب انفقتـه في أن تـلاقي طالبـاً

نقد التشبيه

قال ثعلب : مما يعاب على قيس بن الخطيم قوله :

كأنها عود بانة قَصِف[1]

لأن المرأة إنما تشبه بالعود المنثني لا بالمتقصف

---

١ – القصف على وزن كثف ما انقصف نصفين .

نقد الخيال

لما أنشد الراعي عبد الملك بن مروان قصيدته المشهورة فبلغ إلى قوله :

أخليفـــة الرحمـــن إنـــاّ معشـــرٌ حنفاء نســـجد بكـــرة وأصيـــلا

عـــرب نـــرى لله فـــي أموالنـــا حـــق الزكـــاة مـــنزلاً تـــنزيلا

فقال له عبد الملك : ليس هذا شعراً، هذا شرح إســـلام وقـــراءة آيـــة، ومقصد عبد الملك إن خيال هذين البيتين ليس خيال شعراء بل خيال فقـــهاء.

ومثله قول أبي تمام :

جـــهمية[1] الأوصـــاف إلا أنـــهم قـــد لـــقبوها جـــوهر الأشـــياء

في كونه خيال المتكلمين الذين عظم خطبهم بزمنه .

نقد تكرار الكلمات بلفظها ومعناها

ومن سخيف قول أبي تمام :

المجد لايرضى بأن ترضى بأن يرضى المؤمل منك إلا بالرضى

بلغنا أن اسحق بن إبراهيم سمعه ينشد هذا البيت، فقال له يـــا هـــذا لقـــد شققت على نفسك، إن الشعر لأقرب مما تظن.

وكذلك قوله وفيه غرابة :

قد قلت لما اطلخمّ[2] الأمر وانبعثت عشـــواء تاليـــة غبســـاً دهاريســـا

إذ أراد أن يتشبه بالبدو وأُنسي أنه حضري متأدب.

---

١ – الجهمية فرقة من المعتزلة منسوبة لجهم بن صفوان تقول بفناء الجنة وجهنم ومـــن رأيها أن الله تعالى لا يوصف بالوجود وينكرون بقية الصفات فراراً من تعـــدد القدمـــاء، والمعنى في البيت أنه لم يبق للخمرة التي يصفها قبل هذه الأبيات سوى صفة الوجود .

٢ – اطلخمّ الأمر اشتد وغبساً مظلمة والدهاريس الدواهي .

وانظر إلى بعض أبيات من شعر المتنبي السخيف التي لو أسقطها من كلامه لخلا مما فيها من ضعف وركاكة واختلال وإحالة وتعسف وغثاثة، فمنها قوله :

ومن جاهل بي وهو يجهل جهله ... ويجهل علمي أنه بي جاهل

وقوله :

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا ... قلاقل عيش كلهن قلاقل

وقوله :

قسا فالأسد تفزع من يديه ... ورق فنحن نفزع أن يذوبا

وقوله :

فكلكم أتى مأتى أبيه ... فكل فعال كلكم عجاب

وانظر إلى تعقيد المعنى بقوله :

أنى يكون أبا البرية آدم ... وأبوك والثقلان أنت محمد

وقد رأيت أن أكتفي الآن من هذا النوع من النقد الأدبي بما أسلفت من الأبيات ، وخلاصة ما فيها من النقد يرجع إلى اللفظ أو إلى المعنى أو إليهما جميعاً أو إلى الخيال أو إلى التشبيه . وهنالك نوع آخر من النقد يدعى بالموازنة الشعرية أو النثرية ، فتعمد إلى قصيدة أنشأها صاحبها لغرض معين، وأخرى أنشأها غيره للغرض نفسه ، فتعقد بينهما موازنة بتحليل معنييهما وبيان ما بينهما من التفاوت، فتنظر ما اتفقا فيه من المعاني وما اختلفا، ثم تبين الفاضل من المفضول . وهذا نوع من النقد يشحذ القريحة، وينبه الذهن، ويقوي ملكة النقد وينمي الذوق الدبي. وإني أعرض عليك موازنات عديدة، متدرجاً من البيت الواحد إلى القطعة الشعرية إلى القصيدة.

[١]

قال امرؤ القيس :

من القاصرات الطرف لو دب مُحوِل من الذر فوق الإتب[1] منها لأثّرا

وقال حسان بن ثابت :

لو يدب الحولي من ولد الذر ر عليها لأندبتها الكلوم

يصف في البيت الأول إحدى الغواني الرقيقات الحواشي، بأنها لو مشت فوق إتبها الذّر الذي أتى عليه حول لأثّر عليها، وفي البيت الثاني أتى بالمعنى الأول إلا أنه قال لو مشى عليها الذّر المحول لظهرت آثار جروحه في جسمها ، فالبيت الأول أفضل من بيت حسان، إذ أنه زاد عليه بوصفها بأنها من ربات الخدور القاصرات طرفهن على أزواجهن ، ثم بالغ بوصف رقّتهن ولطفهن حتى لو مشى الذّر فوق ثيابهن لأثّر على أجسامهن، أما البيت الثاني فقصّر عن الأول بعدم التعرض لهن إنهن من القاصرات الطرف ، ثم لم يقصد للمبالغة التي في البيت الأول. نعم هنالك مبالغة من جهة ثانية ، وهي أن الذر لو مشى على جسمها لجرحه وظهرت ندوب الجروح أي آثارها،والجرح أبلغ من مطلق التأثير المذكور في البيت الأول. ولكن هذه المبالغة وحدها لا تقوم بوجه الوصف والمبالغة في بيت امرئ القيس، فبقي الحكم بالأرجحية له.

[٢]

قال الحجاج للفرزدق وجرير وبين يديه جارية أيكما مدحني ببيت فضّل فيه، فهذه الجارية له فقال الفرزدق :

من يأمن الحجاج والطير تتقي عقوبته إلا ضعيف العزائم

وقال جرير :

---

1 - الإتب قميص بلا كمّين .

من يـــأمن الحجاج أمـــا عقابـــه فـــمُرّ وأمـــــا عـــهده فـــــوثيق

فقال الحجاج : والطير تتقي عقوبته كلام لا خير فيه، لأن الطير تتقي كـل شيء الثوب والصبي وغير ذلك. خذها يا جرير.

فقد وازن الحجاج بينهما ورجّح جريراً على صاحبه، وهو ترجيـــح جيـــد مبني على معرفة بكلام العرب لأن بيت جرير نوّع أسباب عدم الأمن مـــــن الحجاج، حيث جعل عقابه مراً صارماً على أعدائه وعهده وثيقاً، وفياً بـــه، لا يغدر ولا يفجر، فهذه الأوصاف بلا ريب أرجح من وصف الفرزدق له بـــأن الطير تتقي صولته وتخشى عقوبته، ولكن أليس للفرزدق حق السبق بابتكـــار أسلوب الوصف، وجرى على إثره جرير، حتى استعمل ببيته قسماً من شـطر بيت الفرزدق ومشى عل وزنه ؟ بلى له ذلك.

موازنة

بين أمرئ القيس والنابغة في وصفهما طول الليل

كان الشعراء يشكون طول الليل لتضاعف بلائهم به، وشدة كَلَفـــهم لقلـــة المساعد وفقد المجيب ، وتقييد اللحظ عن أقصى مرامي النظر الذي لابـــد أن يؤدي إلى القلب بتأمله سبباً يخفف عنه أو يغلب عليه فينســـى مـــا ســـواه ، ولامرئ القيس (صورة شعرية) في وصف طول الليل وللنابغـــة صـــورة أخرى مثلها، ولنوازن بين هاتين الصورتين لنتبين فرق مـــا بينـــهما. أمـــا الصورة التي وضعها أمرؤ القيس فهي :

وليل كموج البحر أرخى ســـدوله علـــي بـــأنواع الـــهموم ليبتلـــي

فقلت لـــه لمـــا تمطـــى بصلبـــه وأردف أعجـــازاً ونـــاء بكلكـــل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلـــي[1] بصبح وما الإصباح منك بـــأمثل
فيالك مـــن ليـــل كـــأن نجومـــه بكل مغار الفتـــل شـــدت بيذبـــل
كأن الثريا علقت فـــي مصامـــها بأمراس كتان إلى صبـــم جنـــدل

والصورة التي وضعها النابغة الذبياني هي :

كليني لهم يـــا أميمـــة نـــاصب وليل أقاســـيه بطـــيء الكواكـــب
تطاول حتى قلت ليس بمنقـــض وليس الذي يرعى النجـــوم بـــآيب
وصدر أراح الليل عازب همـــه تضاعف فيه الحزن من كل جـانب

معاني امرئ القيس

شبه امرؤ القيس الليل بموج البحر وقد أرخى ستوره عليه بأنواع الـــهموم ليختبر ما عنده من صبر أو جزع. فلما امتـــدت أوســـاطه وأردف أعجـــازاً وتثاقل بصدره خاطبه بقوله (أصبح ليلُ) وما الإصباح بخير لي منك .

كأن نجوم هذا الليل (لطوله) شدت بجبل يذيل بكل حبل محكـــم الفتـــل، وكأن الثريا علقت في مقامها بأمراس كتان إلى حجارة صلاب .

معاني النابغة

بدأ كلامه بخطاب محبوبته أميمة على عادة العرب ببدء قصائدهم بذلـــك، فقال : اتركيني لهم، متعب أيتها المحبوبة، ولليل أقاسي فيه شتى المصـــاعب، بطيء الكواكب تطاول عليّ حتى قلت ليس بمنقض ! ثم جعل صدره مراحـــاً للهموم فشبّهها بالنعم السارحة الغادية، تسرح نهاراً ثم تأوي إلى صدره ليـــلاً،

---

١ – أثبت الياء في (انجلي) على لغة طيء .

ثم جعل الهموم متضاعفة مترادفة عليه بالليل لتقيد الألحاظ عما هي مطلقة فيه بالنهار واشتغالها بتصرف اللحظ عن استعمال الفكر.

تحليل معاني امرئ القيس

١ – تشبيه طول الليل بموج البحر المصطخب الرهيب لإرسال أمواج ظلمته وتكاتفها وتدافعها.

٢ – استعارة الصلب والإعجاز والصدر لليل.

٣ – تسويته بين ليله ونهاره، بأن الهموم لا تفارقه ولا تنفك عنه ، فالصبح عليه بثقل الليل.

٤ – تشبيه ثبات نجومه بشدها بالجبال الراسية.

٥ – تشبيه وقوف الثريا بشدها بصم الجنادل ففيه ثلاثة تشابيه واستعارة وتسوية بين الليل والصبح .

تحليل معاني النابغة

١ – الكناية عن طول الليل ببطء كواكبه.

٢ – تشبيه الصبح بالراعي يخشى عدم أوبته، والنجوم بالأنعام على طريق الاستعارة.

٣ – استعارة الأنعام السارحة للنجوم أيضاً وجعل صدره مراحاً لها، ففيه كناية بديعة عن طول الليل واستعارتان مبنيتان على تشبيهين.

كلمة الحكم

تشبيه امرئ القيس الليل بأمواج البحر الزاخرة بديع مبتكر من رائع الخيال ، واستعارة الصلب والإعجاز والكلكل له (الليل) تقريراً لطوله وبياناً له من أعلى طبقات البلاغة في الاستعارة، وتسويته بين الليل والنهار بتضاعف الهموم فيهما عليه مبالغة شعرية مقبولة لتصوير استيلاء الحزن والمكاره عليه، وفيه شكوى أليمة من جور الزمن وتراكم المصائب. وما أجمل إلحاحه ببيان طول الليل حيث جعل نجومه مشدودة بالجبال فهي لا تكاد تزول وتغرب، ثم زاد هذا المعنى تأكيداً وتقريراً بأن جعل الثريا معلقة بأمراس كتان مربوطة إلى صم الجنادل، فالصورة الشعرية التي رسمها امرؤ القيس لطول الليل أبدع تشبيهاً، وأروع استعارة ، وأشد وضوحاً، وأزيد تقريراً لها في الأذهان. أما النابغة فقد استثار معنى بديعاً بتشبيهه صدره بمأوى والهموم بالأنعام، فهو أول من ابتكر هذا المعنى اللطيف غير أن أمرأ القيس يرجّح بالميزان عليه لأن صورته أحفل بالأغراض. ولكن لا تنس أن الكمال بهذه الصورة أتاها من زيادة بيتين فيها على صورة النابغة، على أن هذا لا يقع عذرا للنابغة، إذ لا مانع له من جعلها صورة تامة مشتملة على البديع الرائع ، كما تمّمها امرؤ القيس وزاد في توثيقها وتوكيدها .

موازنة

" بين قصيدة المتنبي وقصيدة البحتري في وصف الأسد"

خرج بدر بن عمار إلى أسد فهرب الأسد منه، وكان قد خرج قبله إلى أسد آخر فهاجه عن بقرة افترسها بعد أن شبع وثقل، فوثب إلى كفل فرسه فأعجله عن استلال سيفه فضربه بالسوط ولم يلبث أن دار به الجيش، فقال أبو الطيب المتنبي بذلك قصيدة مطلعها :

في الخد أن عزم الخليط رحيلاً مطر تزيد به الخدود محولا

يمدح فيها بدراً ، ويصف قتاله للأسد بهذه الصورة الشعرية :

أمعفر الليث الهزبر بسوطه لمن ادخرت الصارم المصقولا

وقعت على الأردن منه بليّة نضدت بها هام الرفاق تلولا

ورد[1] إذا ورد البحيرة شارباً وردَ الفرات زئيره والنيلا

متخضب بدم الفوارس لابس في غيله من لبدتيه الغيلا

ما قوبلت عيناه إلا ظنتا تحت الدجى نار الفريق حلولا

في وحدة الرهبان إلا أنه لا يعرف التحريم والتحليلا

يطأ الثرى مترفقاً من تيهه فكأنه آسٍ يجس عليلا

ويرد عفرته[2] إلى يافوخه حتى تصير لرأسه إكليلا

وتظنه مما يزمجر نفسه عنها لشدة غيظه مشغولا

قصرت مخافته الخطى[3] فكأنما ركب الكمي جواده مشكولا

ألقى فريسته وبربر[4] دونها وقربت قرباً خاله تطفيلا

---

١ – ورد جزئ .

٢ – العفرة شعر القفا .

٣ – أي قصر خوفه خطى الفرسان حتى كأن خيلهم تمشي مقيدة .

٤ – بربر زمجر.

فتشـــابه الخلقـــان فـــي إقدامـــــه ... وتخالفـــا فـــي بذلـــك المـــــأكولا

أسد يرى عضويـــه فيـــك كليـــهما ... متنـــــا أزل وســـــاعدا مفتـــولا

في سرج ظامئة الفصوص طمـرة[1] ... يـــأبى نفردهـــا لـــــها التمثيـــلا

نيالـــة الطلبـــات لـــــولا أنـــــها ... تعطي مكان لجامـــها[4] مـــا نيـــلا

تتدى ســـوالفها إذا اســـتحضرتها[2] ... ويظـــن عقـــد عنانـــها محلـــــولا

مـــازال يجمـــع نفســـه فـــي زوره ... حتى حسبت العرض منـــه الطـــولا

ويـــدق بـــالصدر الحجـــار كأنـــه ... يبغي إلى ما في الحضيض ســـبيلا

وكأنـــه غَرّتـــه عيـــــن فـــــادنى ... لا يبصر الخطـــب الجليـــل جليـــلا

أنف الكريم مـــــن الدنيئـــة تـــارك ... فـــي عينـــه العـــدد الكثـــير قليـــلا

والعار مضـــاض وليـــس بخـــائف ... من حتفه مـــن خـــاف ممـــا قيـــلا

ســـبق التقاءكـــه[3] بوثبـــة هـــاجم ... لـــو لـــم تصادمـــه لجـــازك ميـــلا

خذلتـــه قوتـــه وقـــــد كافحتـــــه ... فاســـتنصر التســـليم والتجديـــــلا

قبضـــت منيتـــه يديـــه وعنقـــــه ... فكأنمـــــا صادفتـــــه مغلـــــولا

ســـمع ابـــن عمتـــه بـــه وبحالـــه ... فنجا يهرول أمـــس منـــك مـــهولا

وأمـــر ممـــا فـــر منـــه فـــــراره ... وكقتلـــــه أن لا يمـــــوت قتيـــلا

تلِف الـــذي اتخـــذ الجـــراءة خِلـــة ... وعِظ الذي اتخـــــذ الفـــرار خليـــلا

وأما البحتري فقد مدح الفتح بن خاقان وزير المتوكل بقصيدة مطلعها :

أجدّك ما ينفـــك يســـرى لزينبـــا ... خيـــال إذا آب الظـــــلام تأوبـــــا

---

١ – ظامئة الفصوص : دقيقة المفاصل وطمرة : وثابة.

٢ – أي أنها لسرعتها تنال ما تطلب ولارتفاع رأسها لولا أنها تعطيه وتخفضه للجام مـــا ناله أحد.

٣ – أي سبق لقاؤك أياه بوثبته عليك.

٤ – أي أنها لسرعتها تنال ما تطلب ولارتفاع رأسها لولا أنها تعطيه وتخفضه للجام مـــا ناله أحد.

وقد ذكر فيها مبارزة الفتح بن خاقان للأسد بهذه الصورة الشعرية فقال :

وما نقم الحساد إلا أصالة ... لديك وفعلا أريحياً مهذبا
وقد جربوا بالأمس منك عزيمة ... فضلت بها السيف الحسام المجربا
غداة لقيتَ الليث والليث مخدر ... يحدد نباباً للقاء ومخلبا
يحصنه من نهر نيزك معقل ... منيع تسامى روضه وتأشبا
يرود مغاراً بالظواهر مكثباً ... ويحتل روضاً بالأباطح معشبا
يلاعب فيه أقحوانا مفضضاً ... يبص وحوذانا[٣] على الماء مذهبا
إذا شاء غادى عانة[١] أو عدا على ... عقائل سرب أو تقنص ربربا
يجر إلى أشباله كل شارق[٢] ... عبيطاً مدمى أو رميلا مخضباً
ومن يبغ ظلماً في حريمك ينصرف ... إلى تلف أو يثن خزيان أخيبا
شهدت لقد أنصفته يوم تنبري ... له مصلتاً عضباً من البيض مقضبا
فلم أر ضرغامين أصدق منكما ... عراكاً إذا الهيابة النكس كذبا
هزبر مشى يبغي هزبراً وأغلب ... من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا
أدل بشغب ثم هالته صولة ... رآك لها أمضى جناناً وأشغبا
فأحجم لما لم يجد فيك مطمعاً ... وأقدم لما لم يجد عنك مهربا
فلم يُغْنِه أن كرّ نحوك مقبلاً ... ولم ينجه أن حاد عنك منكبا
حملت عليه السيف لا عزمك انثنى ... ولا يدك ارتدت ولا حده نبا
وكنت متى تجمع يمينك تهتك الضـ ... ـريبة أولا تبق للسيف مضربا

---

١ - العانة : قطيع حمر الوحش .

٢ - الشارق : اليوم تشرق فيه الشمس .

٣ - الحوذان : نبت .

ولنحلل أولاً معاني كلتا القصيدتين لتسهل الموازنة :

ابتدأ أبو الطيب قطعته ببيت فضّل فيه شجاعة الممدوح على الأسد، إذ جعله مما يعفره بسوطه لا بصارمه ، وفي ذلك من الاستهانة به وتحقير شأنه مالا يخفى ، ثم وصف الأسد بكونه بليّة نازلة بالأردُن تكدست من هولها هام الرجال كالتلال، وصوّر صوت الأسد وقوته بأنه إذا زأر حول بحيرة طبريا أسمع من بوادي النيل والفرات ، وأنه متخضب بدم الفوارس ذو لبدة عظيمة، كأنه جالس منها في أجمة داخل أجمة ، ثم شبّه عينيه بتوقدهما بنار القوم النازلين ، وذكر انفراده في جنسه وهيئة مشيته وحركاته وزمجرته حتى أنه ليذهل عن نفسه من شدّة تغيظه، ثم صوّر المعركة التي نشبت بينهما وشابه بين أقداميهما، وفضّل الممدوح بسخائه وبذله، ثم وضع صورة لوصف فرس الممدوح على عادة العرب في تحولهم إلى المعنى الاستطرادي الطارئ، كما أنتقل طرفة بن العبد من تشبيه قباب محبوبته يخلايا السفن إلى وصف السفن وكانتقاله أيضاً من الحديث عن نفسه إلى وصف ناقته في أكثر من ثلاثين بيتاً، ثم يعود فيحدثك عن نفسه بعد أن تظن أنه نسي المعنى الأصيل ، وهذا أسلوب جاهلي جرى عليه المخضرمون وقلدّهم المولدون .

وهكذا عاد المتنبي لوصف الأسد وتحفزه للوثوب وبيان أن عينه غرّته فلم تُرِه حقيقة الهول الذي أقدم عليه، ولكنه رجع إلى نفسه فذكر أن الأسد أحس بالخطر غير أن أنَفَه من العار هوّن عليه الإقدام، ثم وصف وثبته بأنها لولا ملاقاة الممدوح لها لجازه ميلاً من شدتها، وصرح بعد ذلك بارتباكه ودهشته واستيلاء الحيرة عليه حتى كأن يديه غُلّت إلى عنقه، وبعد هذا ذكر أن الأسود أضحت تحسب لممدوحه حساباً فتفر من وجهه خائفة مما حل

بغيرها، ثم عاب الفرار وجعله أمرّ من القتل. أخرج جميع هذه المعاني أحسن مخرج في أشرف معنى .

وأما المعاني التي أتى عليها البحتري فهي قوله إن حساد ممدوحه جربوا شجاعته وعزمه حينما لقي الليث المخدر، ذا الأنياب المحددة والمعقل الحصين والمغار المكثب والروض المعشب المزين بالأقحوان المفضض والحوذان المذهب. ثم وصف الأسد بأنه يغادي إذا شاء عانة بقر الوحش أو أسراب الغزلان ، فيصطاد منها ويحمل كل شارق لأشباله فرائس منها مخضبة بالدماء ، معفرة بالرمال. ثم يبدأ بوصف المعركة وصولة الممدوح على الأسد واصطدامهما صدمتين صادقتين يفر من هولهما النكِس الجبان ، ووصف مشيه إليه، وأنه ليث أغلب مشى لليث أغلب، ووصف حيرة الأسد واندهاشه وتردده بين الإقدام والإحجام ، إلى أن ضربه الفتح بعزم لا ينثني ويد لا ترتد وحد سيف لا ينبو .

كلمة الحكم

تفوّق أبو الطيب في هذه الصورة تفوقاً عظيماً لم يشق له البحتري فيه غباراً، ولك أن تلقي نظرة على خطاب أبي الطيب لممدوحه :

أمعفر الليث الهزيز بسوطه لمن ادخرت الصارم المصقولا

وعلى بيتي البحتري خطاباً لممدوحه أيضاً :

وقد جرّبوا بالأمس منك عزيمة فضلت بها السيف الحسام المجربا

غداة لقيت الليث والليث مخدر يحدد ناباً للقاء ومخلبا

لرأيت بيته الفذّ خير معنى وأرشق لفظاً وأسدّ مقصداً من توأمي البحتري، ثم انتقلت إلى وصف المتنبي للأسد تجد البون شاسعاً بينه وبين وصف البحتري الضعيف الذي لا قيمة له. وأي قيمة لوصف الأسد بأنه يتقنص من عانة حمار وحش أو من سرب غزالاً يأتي بهما أشباله، مما يقدر

عليه أخسّ الحيوانات ككلاب الصيد، ثم لا أدري ما الفائدة من ذكر احتلال الأسد معقلاً عند نهر نيزك في روض معشب فيه الأقحوان المفضض إلخ.. أين هذا من قول أبي الطيب عن الأسد أنه يزمجر حتى يذهل عن نفسه، ويتحفز حتى تحسب العرض والطول منه سواء، أين هذا الخيال الرائع البديع والكلام الجزل الذي يجعلك كأنك تشاهد المعركة بعينك من ذلك الخيال الضعيف الذي يذكر الروض المعشب وأقحوانه، وما إلى ذلك مما هو بخيال وصف الرياض أعلق منه بخيال وصف الأسود الكاسرة ؟ وأضعف من هذا جداً قوله لم أر أصدق منكما ضرغامين، إذا كذبت نفس الجبان ونفس الجبان تكذب، أي تحدثه بالفرار من أهون الأشياء، ألا قال إذا كذبت نفس الكمي الشجاع ؟ ليكون فيه من المبالغة التي يقتضيها الحال ما هو مقبول وعلى العينين محمول.

نعم أجاد البحتري بوصف ارتباك الأسد واندهاشه وإقدامه وإحجامه أيما إجادة، غير أن أبا الطيب أتى بهذا المعنى بصورة أبدع وأروع. وإذا تأمل العارف بهذه الصناعة أبيات الرجلين عرف ببديهة النظر ما أشرت إليه، واستبان له فيها فضل المتنبي في الغوص على المعاني، ومما يدلك على ذلك أنه – المتنبي – لم يعرج على معاني قصيدة بشر بن عوانة في قصيدته الرائية التي مطلعها :

أفاطم لو شهدت ببطن خبت وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا

لعلمه أن بشرا قد ملك رقاب تلك المعاني واستحوذ عليها ولم يترك لغيره شيئاً يقوله فيها، ولفطانة أبي الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحتري من الانسحاب على ذيل بشر لأنه قصّر عنه تقصيراً كثيراً، ولمّا كان الأمر كذلك عدل أبو الطيب عن سلوك الطريق وسلك غيرها فجاء مبرزاً.

ولولا خوف الإطالة لأتيت بقصيدة بشر وأبنت ما فيها من الحسن الرائع. وأظن أن السبب في إجادة أبي الطيب أنه شجاع صنديد لاقى الأهوال والمعارك العظيمة، لذلك كان تصويره لمواقف الأبطال أصدق من تصوير البحتري الذي قد لا يعرف تلك المواقف إلا بالسماع. وإلا فالبحتري له طبع شعري فياض وهو في حوك الألفاظ الكريمة وحسن صياغتها لا يجارى، ولكن أبا الطيب أنفذ في المضيق وأقدر على استخراج المعنى الدقيق. والله أعلم بالصواب.

القول الوافي في العروض والقوافي *

المقدمة

في مصطلحات عروضية لابد منها

علم العـروض :

هو علم يعرف به صحيح وزن الشعر من سـقيمه ومـا يعتريـه مـن الزحافات والعلل. وواضعه : الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفي سنة ١٧٠ هجرية، وضعه بمكة المسماة بـ (العروض).

والذوق السليم غير كاف في التمييز بين الأوزان الصحيحـة والفاسـدة، لأن بعض المواضع تتقارب فيها الأوزان فيختلط نوع بنوع، ولا يُشعر بـه لعدم الكسر وربما ظُن الزحاف الجائز ممتنعاً . ثم إن الأذواق مختلفة وليس ذوق أحد حجة على الآخرين، فوجب وضع قانون عام يرجع إليـه جميـع أرباب الطبائع والأذواق وهذا القانون العام هو قواعـد العـروض والأوزان الشعرية.

تقسيم الشعر

من حيث عدد أبياته

إن كان الشعر بيتاً واحداً سمي (يتيماً) وإن كان بيتيـن أو ثلاثـة سـمي (نتفة) (وإن كان أربعاً أو خمساً أو ستاً سمي قطعة) وإن كان سبعة أبيـات فأكثر سمي (قصيدة).

---

* كتيب صدر عن مطبعة الإصلاح ط١، حماه ١٩٢٩.

أجزاء البيت :

النصف الأول من البيت يسمى (صدراً) والنصف الثاني سمي (عجزاً).

ونصف البيت لا باعتبار كونه أول وثانياً يسمى (مصراعاً) و(شطراً).

والجزء الأخير من الصدر يسمى (عروضاً) ويجمع على (أعاريض).

والجزء الأخير من العجز يسمى (ضرباً).

والعروض مؤنثه والضرب مذكر.

وما عد العروض والضرب يسمى (حشواً).

صـــــــــــــــــــــــــدر

حشـــــــــــو عـــــــــروض

إذا كنت مظلوماً فلا تـــلف راضيـــاً

المصـــــــراع أو الشـــــــــطر الأول

عجـــــــــــــــــــــــــز

حشـــــــــــو ضـــــــــرب

عن القوم حتى تأخذ النصف واغضب

المصراع أو الشطر الثاني

التقطيع :

تجزئة البيت وجعله قطعاً بمقدار قطع ميزانه ليعلم أهي موافقة لـــها فـــي الوزن فيكون البيت صحيحاً أم غير موافق فيكون مكسوراً، وبذلـــك يعـــرف كونه من أي أبحر الشعر ويقابل بالتقطيع : المتحرك بالموزون، بـــالمتحرك بالميزان، والساكن بالساكن.

ولا يضر اختلاف نوع الحركة فيقابل بلفظ فعولن مثلاً : عليـــمٌ، قلـــوبٌ، وبلفظ فاعلن : قلبه، حُبه.

ويعتبر في الوزن اللفظ فقط لا الرسم والكتابة، فتنوين عليم يعتبر نوناً ساكنة، ومد الهاء بلفظ (حبه) و (قلبه) يعتبر واواً، وألف هذا و(الرحمن) تعتبر حرفاً لأن ذلك يتلفظ به، وألف (مائة وقالوا وألفات الوصل) لا يعتد بها لأنها لا تلفظ، والحرف المشدد يعتبر حرفين أولهما ساكن وثانيهما متحرك.

وقطع الميزان مثل : فعولن، مفاعيلن، متفاعلن، تسمى أجزاء وتفاعيل. وتتألف حروفها من حروف (لمعت سيوفنا) العشرة فقط.

الأسباب والأوتاد والفواصل :

تتركب التفاعيل من الأسباب والأوتاد، فالحرف المتحرك وبعده ساكن يسمى (سبباً خفيفاً) كـ (قد) و (لم) ؛ والحرفان المتحركان (سبباً ثقيلاً) كـ (بك) و (لك) ؛ والمتحركان بعدهما ساكن (وتد مجموع) كـ (بكم) و(لكم) ؛ والمتحركان بينهما ساكن (وتد مفروق) كـ (قام) و (أمس).

وإذا اجتمع سببان أولهما ثقيل وثانيهما خفيف أُطلق على مجموعهما (الفاصلة الصغرى) مثل كتبتْ.

وإذا اجتمع سبب ثقيل ووتد مجموع وكان السبب مقدماً أُطلق على مجموعهما (الفاصلة الكبرى) نحو : عجلة وشجرة .

ويجمع ذلك قولهم : لم أرَ على ظهر جبل سمكة . ومن الأسباب والأوتاد والفواصل تتألف التفاعيل وهي أجزاء البحور الآتية ؛ وهذه الأجزاء ثمانية لفظاً عشرة حكماً اثنان خماسيان وثمانية سباعية، وهي كما ترى بالصفحة التالية :

وتد مجموع	فعو	وتد مفروق	فاع	سبب خفيف	فا
سبب خفيف	لن	وتد مجموع	لات	وتد مجموع	علا
				سبب خفيف	تن
		سبب خفيف	فا	سبب ثقيل	متـ
وتد مجموع	مفا	سبب خفيف			
سبب خفيف	عيـ	وتد مجموع	علن	سبب خفيف	فا
				وتد مجموع	علن
وتد مجموع	مفا	سبب خفيف	مسـ	سبب خفيف	مفـ
سبب ثقيل	علـ	سبب خفيف	تفـ	سبب خفيف	سعو
سبب خفيف	تن	وتد مجموع	سعلن	وتد مفروق	لات
				سبب خفيف	علن
				وتد مفروق	سـتفع
				سبب خفيف	سلن

الباب الأول

في أنواع الزحاف والعلل

أولاً – الزحاف :

هو تغيير مختص بثواني الأسباب مطلقاً (سواء أكانت خفيفة أم ثقيلة، في حشو أم في غيره) بلا التزام له في جميع القصيدة بعد دخوله في بيت منها .

ولا يدخل الحرف الأول والثالث والسادس لأنها ليست ثواني أسباب.

وهو نوعان : مفرد ومزدوج .

الزحاف المفرد : هو الذي يكون بحل واحد من الجزء، وأنواعه ثمانية:

١ – الخبْن : وهو حذف ثاني السبب ساكناً، كحذف سين مستفعلن وألف فاعلن وفاعلاتن.

٢ – الطّي : وهو حذف رابعه ساكناً، كحذف فاء مستفعلن وألف متفاعلن، (ولكن بشرط إضماره أي إسكان ثانية لئلا يتوالى خمس متحركات وهو ممتنع في الشعر)، وكحذف واو مفعولاتن.

٣ – القبض : وهو حذف خامسه ساكناً، كحذف النون من فعولن والياء من مفاعيلن.

٤ – الكفّ : وهو حذف سابع الجزء ساكناً، كحذف نون مفاعيلن وحذف نون فاعلاتن.

٥ – الوقص : وهو حذف الثاني متحركاً، كحذف التاء من متفاعلن.

٦ – العقل : وهو حذف الخامس متحركاً، كحذف اللام من مفاعلتن.

٧ – الإضمار : وهو إسكان الثاني متحركاً، كإسكان التاء في متفاعلن.

٨ – العصب : وهو إسكان الخامس متحركاً، كإسكان اللام في مفاعلتن.

ملاحظة : يفهم من هذا الترتيب أن الزحاف إما أن يكون واقعاً بثاني السبب الخفيف، أو بثاني السبب الثقيل . فإن كان الأول فزحافه بالحذف فقط أي حذف الثاني والخامس والسابع، وإن كان بالثاني فزحافه بالحذف أو الإسكان أي حذف الثاني والخامس أو إسكانهما.

الزحاف المزدوج :

هو الذي يكون في موضعين من الجزء، وهو أربعة أنواع :

خبل ، خزل ، شكل ، نقص

١ – الخبل : اجتماع الطي مع الخبن في تفعيلة واحدة، كحذف سين وفاء مستفعلن مجموع الوتد وحذف فاء وواو مفعولاتُ. ولا يدخل غير هذين الجزئين.

٢ – الخزل : اجتماع الطيّ مع الإضمار، وينحصر في إسكان تاء متفاعلن وحذف ألفها.

٣ – الشكل : اجتماع الكف مع الخبن، وينحصر في حذف الأولى والنون في فاعلاتن مجموع الوتد، وحذف السين والنون من (مستفعلن) مغروق الوتد.

٤ – النقص : اجتماع الكفّ مع العصب، ويدخل مفاعلتن فقط فيصير مفاعيلُ.

ملاحظات :

الأولى : الزحاف يكون حسناً ومتوسطاً وقبيحاً. فما كثر استعماله ولم يكن عدمه عند أرباب الذوق السليم خيراً من وجوده فهو (الحسن) كقبض فعولن في بحر الطويل. والمتوسط ما كان بين الحالين ولم يلتحق بالنوعين كقبض مفاعيلن في الطويل أيضاً. والقبيح ضد الحسن ككف مفاعيلن في الطويل. ومن القبيح الزحاف المزدوج بأجمعه .

الثانية : قدمنا أن الزحاف يدخل الجزء ولا يلزم، وأحياناً يدخل العروض والضرب ويلزم كخبن فاعلن في العروض الأولى للبسيط وضربها الأول، وحينئذ لا يطلق عليه مطلق الزحاف بل يقال فيه (زحاف جرى مجرى العلة).

الثالثة : إذا دخل الجزء زحافٌ أو علّة وبقي على وزن مألوف لهم لم ينقل إلى غيره كما إذا قبض مفاعيلن فإنه يصير مفاعلن وهو وزن مألوف، وأما إذا دخل الحذف مفاعلين فيصير مفاعي، وهو ليس على زنة كلمة من كلماتهم وغير مألوف لذلك ينقل إلى فعولن، وهذا النقل مستحسن لا واجب في الصناعة.

الرابعة : إن مصطلحات الزحاف لها معان لغوية أخذت عنها لنوع مناسبة، فالخبن مأخوذ من خبنت الثوب إذا عطفته فقصر، والإضمار من قولك أضمرت كذا في نفسي أي أخفيته، والوقص كسر العنق فكأنك كسرت عنق الكلمة بحذفك ثانيها، والقبض ضد البسط لانقباض الصوت في الجزء الذي يدخله، والعصب والعقل والكف معناها المنع، والخبل معناه فساد الأعضاء والخزل قطع السنام ونحوه، والشكل مصدر شكَلت الدابة إذا قيّدتها.

جدول الزحاف

أسماء الزحاف	الأجزاء التي يحل بها	ما يصير إليه بالزحاف	ما ينتقل إليه	البحر الذي يكون فيه الجزء
الخبن	فاعلاتن مستفعلن مفعولات فاعلن	فعلاتن متفعلن معولات فعلن	فعلاتن مفاعلن مفاعيل فعلن	مديد، رمل، خفيف، مجتث، مقتضب بسيط رجز سريع منسرح خفيف مجتث منسرح بسيط متدراك
الطي	مستفعلن مفعولات	مستعلن مفعلات	مفتعلن فاعلات	بسيط، رجز، سريع، مقتضب، منسرح، منسرح
القبض	فعولن مفاعيلن	فعول مفاعلن	فعول مفاعلن	طويل، متقارب هزج، مضارع
الكف	فاعلاتن مفاعيلن مستفع لن	فاعلات مفاعيل مستفع ل	فاعلات مفاعيل مستفع ل	مديد، رمل، خفيف، مجتث طويل، هزج، مضارع مجتث، خفيف
الإضمار	متفاعلن	متفاعلن	مستفعلن	كامل
العصب	مفاعلتن	مفاعلْتن	مفاعيلن	وافر
الوقص	متفاعلن	مفاعلن	مفاعلن	كامل
العقل	مفاعلتن	مفاعتن	مفاعلن	وافر
الخبل	مستفعلن مفعولات	متعلن معلات	فعلتن فعلات	بسيط، رجز، سريع، منسرح، منسرح
الخزل	متفاعلن	متفعلن	مفتعلن	كامل
الشكل	فاعلاتن مستفع لن	فعلات متفع ل	فعلات مفاعل	مديد، رمل، خفيف، مجتث، خفيف، مجتث
النقص	مفاعلتن	مفاعلت	مفاعيل	وافر

ثانياً – العلل :

العلة : تغير يلحق آخر الجزء ويلزم إذا عرض وهي قسمان : قسم يكون بالزيادة وقسم يكون بالنقص، فما يكون بالزيادة ثلاثة أنواع الترفيل والتذييل والتسبيغ.

الترفيل : زيادة سبب خفيف على ما آخره وتد مجموع ولا يقع إلا في مجزوء المتدارك والكامل، فيصير بذلك فاعلن بمجزوء الأول فاعلاتن ومتفاعلن في مجزوء الثاني متفاعلاتن.

التذييل : أن يزاد حرف ساكن على ما آخره وتد مجموع، وهو خاص بمجزوء الكامل والبسيط والمتدارك فيصير بذلك متفاعلن بمجزوء الأول، متفاعلان ومستفعلن في مجزوء الثاني مستفعلان، وفاعلن في مجزوء الثالث فاعلان.

التسبيغ : زيادة حرف ساكن على ما أخره سبب خفيف وهو خاص بمجزوء الرمل،

فيصير فاعلاتن فيه فاعلاتان.

ملاحظة :

علل الزيادة هذه خاصة بالبحر المجزوء كما رأيت لأنها عوض عن النقص الذي وضع فيه، وتختص بضربه فلا تدخل في عروضه إلا مع التصريع.

وعلل النقص تسع :

الأولى : الحذف، وهو ذهاب سبب خفيف كاسقاط (تن) من الضرب الثالث للرمل فتصير فاعلاتن (فاعلا) وينقل إلى فاعلن، وإسقاط (لن) من ضرب الطويل الثالث فتصير فعولن (فعو) وينقل إلى فعل .

الثانية : القطف، وهو الحذف مع العصب، وهذا خاص بالوافر فتصير مفاعلتن فيه مفاعلْ وينقل إلى فعولن.

الثالثة : القطع، وهو حذف ساكن الوتد المجموع وإسكان ما قبله ويختص بثلاثة أبحر : البسيط والكامل والرجز، فيصير فاعلن في الأول فاعلْ، ومتفاعلن في الثاني متفاعلْ ، ومستفعلن في الثالث مستفعلْ.

الرابعة : البتر، وهو القطع مع الحذف، ويدخل بحري المتقارب والمديد فيصير فعولن، في الأول فعْ و فاعلاتن، في الثاني فاعلْ.

الخامسة : القصر، وهو حذف ساكن السبب الخفيف وإسكان متحركه، ويدخل الرمل والمتقارب والمديد والخفيف ، كحذف نون فاعلاتن وإسكان تائه فيصير فاعلاتْ وحذف نون فعولن وإسكان لامه فيصير فعول. . . وهكذا.

السادسة : الحدذ، وهو حذف وتد مجموع، ولا يدخل إلا الكامل فهو حذف علن من متفاعلن فيصير متفا وينقل إلى فعلن.

السابعة : الصلم، هو حذف وتد مفروق، ولا يدخل إلاّ بحر السريع بحذف لات من مفعولات فيصير مفعو وينقل إلى فعلن.

الثامنة : الوقف، وهو إسكان السابع المتحرك كإسكان مفعولاتُ فتصير مفعولاتْ.

التاسعة : الكسف، وهو حذف السابع فتحذف تاء مفعولات من بحري السريع والمنسرح.

ملاحظات :

(١) إن العلل تلحق الأعاريض والضروب ولاتدخل الحشو بخلاف الزحاف.

(٢) أما معاني مصطلحات العلل فالترفيل إطالة الثوب، والتذييل أن يجعل للشيء ذيل، والتسبيغ من أسبغ الثوب إذا طاله، والقطف قطع الثمـر، والبتر قطع الذنب، والقصر المنع، والكسف والحذذ من غير إدغـــام معناهما القطع، والصلم قطع الأذن.

جدول يوضح أنواع العلل

أسماء العلل	الأجزاء التي تحل بها	ما تصير إليه العلة	ما تنقل إليه	البحر الذي يوجد فيه الجزء
الحذف	فعولن مفاعيلن فاعلاتن	فعو مفاعي فاعلا	فعلْ فعولن فاعلن	متقارب طويل ٢ هزج مديد٢ رمل ٣ خفيف
القطف	مفاعلتن	مفاعل	فعولن	وافر
القطع	فاعلن متفاعلن مستفعلن	فاعلْ متفاعلْ مستفعلْ	فعلن فعلاتن مفعولن	بسيط كامل رجز، بسيط
البتر	فاعلاتن فعولن	فاعلْ فعْ	فَعِلن فَعْ	مديد متقارب
القصر	فاعلاتن فعولن	فاعلاتُ فعولُ	فاعلاتْ فعول	مديد ٢ رمل ٣ خفيف متقارب
الحذذ	مفتاعلن	متفا	فعلن	كامل
الصلم	مفعولاتُ	مفعو	فعلن	سريع
الوقف	مفعولاتُ	مفعولاتْ	مفعولاتْ	سريع ٢ منسرح في منهوكه
الكسف	مفعولاتُ	مفعولا	مفعولن	سريع ٢ منسرح في منهوكه
الترفيل	متفاعلن فاعلن	متفاعلن ن فاعلن تن	متفاعلاتن فاعلاتن	كامل متدارك
التذييل	متفاعلن مستفعلن فاعلن	متفاعلن تن مستفعلن ن فاعلن ن	متفاعلان مستفعلان فاعلان	كامل بسيط متدارك
التسبيغ	فاعلاتن	فاعلاتن ن	فاعلاتان	رمل

الباب الثاني

في أسماء البحور وأعاريضها وضربها

هذا الباب هو المقصود بالذات من فن العروض، وعدد البحور التي نظم عليها العرب خمسة عشر بحراً على ما جمعه الخليل، وزاد تلميذه الأخفش بحر المتدارك فصارت ستة عشر، وهناك أبحر لم ينظم عليها العرب بل نظم عليها المولدون، وهناك الفنون السبعة أيضاً وستأتي الإشارة إليها.

أسماء البحور :

الطويل . المديد . البسيط . الوافر . الكامل . الهزج . الرجز . الرمل . السريع . المنسرح . الخفيف . المضارع . المقتضب . المجتث . المتقارب . المتدارك.

✦ *البحر الطويل* :

بدأنا قبل الكلام على البحر ببيت من منظومة لصفي الدين الحلي تحتوي على اسم البحر وأجزائه، وهذا أولها :

طويل له بين البحور فضائل فعولن مفاعيلن فعولن مفاعل

وله عروض واحدة مقبوضة (أي حذف خامسها الساكن وهو نوع من أنواع الزحاف المتقدم).

وأضربها ثلاثة، الأول صحيح وبيته :

وعش خالياً فالحب راحته عناً وأوله سقم وآخره قتلُ

وتقطيعه :

وعش خا لينفلحبُ بُراح تهوعنن وأوْ لهو سقمن وآخِ رهو قتلو

فعولن مفاعيل فعولُ مفاعلن فعولُ مفاعيلن فعولُ مفاعيلن

الضرب الثاني مثلها، وبيته :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويــأتيك بالأخبار من لم تــزود

وتقطيعه :

ستبدي لكلأ بيا مُماكن تجـــاهلن ويأتي كبلأ خبا رمَن لم تـــزوودي

فعولن مفاعيلن فعولن مفــاعلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلـــن

الضرب الثالث محذوف، والحذف علة بالنقص تكــون بذهــاب الســبب الخفيف من آخر الجزء كما تقدم، وبيته :

تعيــّرنا أنــا قــليل عديــدنـــا فــقلــت لها إن الكــرام قـــليل

وتقطيعه :

تعيي رنا أننـــا قليلــن عديدنــا فقلتُ لها إننل كرام قـــــليلو

فعولُ مفاعيلن فعولن مفـــاعلن فعولُ مفاعيلن فعولُ فعولـن

وخلاصة وزن الطويل هكذا :

(١) فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

(٢) = = = = = = = =

مفاعلن

(٣) = = = = = = = = فعولن

ومحل لزوم قبض عروضه ما لم يصرَّع البيـــت - والتصريــع جعــل عروض البيت مثل وزن ضربه وقافيته - أما إذا صرِّع فيصـــيران علـــى وزن واحد وقافية واحدة كما في قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفانِ وربع عــفت آيــاته منذ أزمان

وتقطيعه :

قــفانبْ كم ذكرى حبيبن وعرفاني وربعن عفت آيا تهوُ مــن ذأزماني

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

تنبيه :

قطّعنا أمثلة هذا البحر ليقاس عليها أمثلة بقية البحور وتمارينها .

تمرين : قطّع هذه الأبيات وبيّن أنواع أعاريضها وأضربها :

ولي صارم فيه المنايا كوامن فما يُنتضى إلا لسفك دماء

ترى فوق متنيه الفرندَ كأنه بقية غيم رق دون سماء

ابن المعتز

أخاك أخاك إنّ من لا أخا له كساع إلى الهيجا بغير سلاح

وإن ابن عم المرء فاعلم جناحه وهل ينهض البازي بغير جناح

مسكين الدارمي

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر تحميس صفوه إن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

النابغة الجعدي

هو الحب فاسلم بالحشا ماالهوى سهل فما اختاره مضنى به وله عقل

ابن الفارض

✦ ***البحر المديد*** :

لمديد الشعر عندي صفاتُ فاعلاتن فاعلن فاعلات

أجزاؤه : فاعلاتن فاعلن اربع مرات، فتكون مفصلة ثمانية، غير أنه لايستعمل إلا مجزوءاً فترجع إلى ستة، وله ثلاثة أعاريض وستة أضرب

العروض الأولى صحيحة ولها ضرب واحد مثلها، وبيته :

إنما الدنيا بلاء وكد واكتئاب قد يسوق اكتئابا

العروض الثانية محذوفة وأضربها ثلاثة :

(١) مقصور (أي حذف ثاني سببه الخفيف وسكّن ما قبله فتصير فاعلاتن فاعلاتْ وتنقل إلى فاعلان) وبيته :

لايـغـرنَّ امـرأ عـيشـه كـل عـيـش صائر للـزوالْ

(٢) مثلها (أي مثل عروضه في الحذف) وبيته :

إعـلمـوا أنـّي لكم حـافـظ شـاهـداً ما كنـتُ أو غـائبا

(٣) أبتر (أي اجتمع فيه الحذف والقطع فيحذف من فاعلاتن سببه الأخير وهو – تن – ثم تحذف الألف من فاعلا وتسكّن اللام، فيصير فاعل وينقـل إلى فعلن) وبيته :

إنـما الـذلـفاءُ يـاقـوتـة أُخـرجت من كيـس دهـقـان

العروض الثالثة محذوفة مخبونة (أي حذف منها السبب الأخير – وهـو تن – وحذف ثانيها الساكن وهو الألف من فاعلاتن فتصير فعلا وتنقل إلـى فعلن) ولها ضربان:

الأول مثلها، وبيته :

للفتى عـقل يـعيـش بـه حـيـث تـهدي سـاقه قـدمه

والثاني أبتر، وبيته :

رب نـار بـت أرمـقـها تـقـضم[1] الـهندي والـغـارا

ملاحظات :

١ً – لم ينظم العرب كثيرا من بحر المديد، والظاهر أنهم لـم يسـتملحوا النظم عليه ولم يألفوه.

٢ً – الظاهر أن عروض الضرب الأبتر قد تكون بتراء إذا كان البيـت مصرّعاً، كما ترى في تقطيع هذا البيت :

يا لبـيـنى أوقـدي النـارا إن مـن تـهوين قـد حـارا

فتزاد عروض أخرى لهذا البحر، ولم أر من نبّه عليه من العروضيين.

---

١ – أي تشتعل بالهندي والغار وهما من النبت الطيب الرائحة .

(٣) قلنا إن البحر المديد لم يستعمل إلا مسدساً لأنه مجزوء وجوباً، وقد نظم بعض المولدين منه مثمنا، مقلداً بذلك شعراء الفرس فقال :

من لصبٍ هائم من غزال ناعم شفّ قلبي في الهوى بين حور نُهدِ

ويمكن أن يجعل هذا البيت بيتين ويكون حينئذ مجزوء المسدس، إلا أن حرف الروي في البيتين مختلف ويكتب البيتان هكذا :

من لصب هائم من غزال ناعمِ

شفّ قلبي في الهوى بين حور نُهدِ

(٤) يجوز في فاعلاتن من هذا البحر الكفّ فتصير فاعلات، غير أنهم اشترطوا إذا دخلها الكف سلم فاعلن من الخبن وبالعكس، أي إذا دخل الخبن لفاعلن يشترط أن يسلم فاعلاتن من الكف، وهذا يسمى المعاقبة.

خلاصة وزن المديد :

١- فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن

٢- = = فاعلن = = فاعلان

٣- = = = = = فاعلن

٤- = = = = = فاعل

٥- = = فِعلن = = فعلنْ

تمرين : قطّع هذه الأبيات وبيّن أعارضها وأضربها :

ليس عندي ما أقدمه غير روح أنت تملكها

ولقد أمست على رمق فعسى بالوصل تدركها

البهاء زهير

يالبيني أو قدي النارا إن من تهوين قد خارا

رب نار بت ارمقها تقضم الهندي والغار

عندهـا ظبـــي يؤرثـــها[1] عـاقد فـي الجيـد تقصـارا[2]

عدي ابن زيد العبادي

إن يكن تركـي لقصـدك ذنبـا فكفـــي أن لا أراك عقابـــا

كـل شـيء منـك مقبـــولُ وعلـى العينيـــن محمـــولُ

والـذي يرضيـك مـن تلفـي هيـــن عنـــدي ومبـــذول

البهاء زهير

✦ ***البحر البسيط*** :

إن البسيط لـديه يبـسط الأمل مسـتفعلن فاعلن مستفعلن فعلُ

أجزاؤه : مستفعلن فاعلن أربع مرات وله ثلاث أعاريض وستة أضرب .

العروض الأولى مخبونة ولها ضربان الأول مثلها، وبيته :

مـا كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

الضرب الثاني مقطوع، وبيته :

إن تـبتدر غـاية يوماً لمكرمة تـلق السـوابق منا والمصـلينا

والذي يظهر (ولم أر من نبّه عليه) أن العروض أيضاً تكون مقطوعـة بالأبيات المصرّعة، كمطلع قصيدة (بانت سعاد) وكمطلع قصيدة لعبيد بـن الأبرص :

طال الخيال علينا ليلة الـوادي من أم عمـرو ولم تـلمم بميعاد

ويدل على هذا تقطيعهما .

العروض الثانية مجزوءة صحيحة ولها ثلاثة أضرب الأول مجزوء مـذال، وبيته :

إنا ذممنـا على مـا خيـلت سـعد بن زيد وعمرو من تميـم

---

١ - يؤثرها : يوقدها.

٢ - تقصار : المخنقة.

الضرب الثاني صحيح مثلها، وبيته :

ماذا وقــوفي على ربــع عــفا مخــلولــق دارس مســـــتعجم

الضرب الثالث مجزؤ مقطوع، وبيته :

ســيروا معــاً إنــما ميعــادكم يوم الثــلثــاء بــطن الـــوادي

العروض الثالثة مجزؤة مقطوعة وضربها مثلها ، وبيته :

ما هــيّج الشــوقَ مــن أطلالِ أضحت قفاراً كــوحي الــواحي

وأحياناً يستعملون بدلاً من وزن مستفعلْ (فعولن) المساوي إلى متفعــلْ ويسمى حينئذ (مخلع البسيط) كقول البهاء زهير :

إن كان قد سار عنــك شــخصي فــإن قلبــي أقـــام عنـــدك

وحيثمــا كنــتَ كنــت مولـــى وإينمــا كنــتُ كنــتُ عبـــك

ملاحظة - جعل بعض المغاربة للبسيط مشطوراً فقال :

أورد قلبـــي الـــــردى لأم عـــــذار بـــــدا

أســـود كـــالغيّ فـــي أبيـــض مثـــل الـــهدى[1]

وخلاصة وزن البسيط هكذا :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن

= = = = = = = = فعلن[2]

= = = = (. . .) = = مستفعلان (. .)

= = = = مستفعلن

= = = = مستفعلْ

---

١ - فيه تشبيه محسوس وهو سواد العذار وبياض الخد بمعقول وهو الغي والهدى، وهذا تشبيه قليل.

٢ - صحيح.

= = مستفعلْ = = مستـفعل[1]

= = فعولن = = فعولن[2]

تمرين :

طال الخيال علينا ليـلة الوادي من أم عمـرو ولم تـلمم بميعاد

ومنها :

الخير يبقى وإن طال الزمان بـه والشر أخبث ما أوعيت من زاد

مـن يسـأل النـاس يحرمـوه وسـائل الله لا يخيـبُ

بـالله يـدرك كـل خـير والقول في بعضـه تلغيـب[3]

عبيد

ونحـن قـوم لنـا رمـاحٌ وثـروة مـن مـوال وصميـمْ

لايعجبن مضيما حسـن بزتـه وهل تروق دفينا جـودة الكفـنِ

المتنبي

✦ ***البحر الوافر*** :

بحور الشـعر وأفـرها جميل مـفاعـلتن مـفاعـلتن فـعولُ

وأجزاؤه مفاعلتن ست مرات، وله عروضان وثلاثة أضرب.

الأول مقطوفة (أي اجتمع فيها حذف السبب الخفيف، والعصـب وهـو إسكان الخامس فيصير مفاعلتن مفاعلْ وينقل إلى (فعولن)، ولـها ضـرب واحد مثلها، وبيته :

ألستِ أقـرّ من يمشي لعينـي وأنـت الـهمّ في الدنيا وذكري

الثانية مجزوءة صحيحة ولها ضربان الأول مثلها، وبيته :

---

١ - مجزوء.

٢ - مخـلّع.

٣ - التلغيب : التعب.

لـقـد عـلمـت ربـيعـة أن ن حـبـلـك واهـن خَـلـقُ

الثاني مجزؤ معصوب، وبيته :

غـداة جـلت عـلى عـجل شـتـيتا بـارد الظَّـلـم[1]

وخلاصة وزن الوافر :

مفاعلتن مفاعلتن فعولن مفاعلتن مفاعلتن فعولن

= = (. . .) = = (. . .)

= = = = مفاعلْتن

تمرين : قطّع هذه الأبيات وبيّن أعاريضها وأضربها :

نفى عن عينك الأرق الـهجوعا وهم يمـتري منـها الدموعـا

أجـاع الله مـن أشـبعتموه وأشبع من بجوركـم أُجيعـا[2]

...

أرى قومـاً بُليـتْ بـهم نصيبـي منـهمو نصبـي

فمنـهم مـن ينـافقني فيحلـف لـي ويكـذب بـي

ويلزمنـي بتصديـق الـ لذي قـد قـال مـن كـذب[3]

ملاحظة :

البيت الذي يكون آخر نصفه بعض كلمة وتمامها في أول النصف الثـاني يسمى (مدرَجا) أو (مداخلاً) أو (مدوراً)

✦ ***البحر الكامل :***

كمل الجمال من البحور الكامل متـفاعـلن متفـاعـلن متفاعلُ

---

١ - وقد تكون العروض أيضاً معصوبة في الأبيات المصرّعة كقوله :

أرقت وأبني همي لنأي الدار من نعم

٢ - هذا والذي قبله للكميت.

٣ - للبهاء زهير.

أجزاء هذا البحر متفاعلن ست مرات، ولـــه ثـــلاث أعـــاريض وتســـعة أضرب .

العروض الأولى تامة ولها ثلاثة أضرب، أولها مثلها وبيته :

تمسي وتصبح فوق ظهر فراشـــها وأبـــيت فـــوق ســـراة أدهم ملجـــم

الضرب الثاني مقطوع (أي حذف ساكن وتده وسكن ما قبله) وبيته :

ريان من ماء الجمال مهفـــهف أرأيت غصن البان كيف يميـــل؟

الضرب الثالث أحذّ (أي ذهب وتده المجموع) مضمر (أي سُـــكّن ثانيـــه المتحرك) .

وبيته :

لـــمن الديـــار برامتين فـــعاقل درســـت وغـــير آيـــها القـــطرُ

العروض الثانية حذّاء ولها ضربان، الأول مثلها وبيته :

الحســـن يـــرحل كـــلما رحلوا مـــعـــهم ويـــنزل حـــيثما نزلوا

والثاني أحذّ مضمر، وبيته :

ولأنـــت أشـــجع من أسامة إذ دعـــيت نـــزالِ ولـــج في الذعر

العروض الثالثة مجزوءة صحيحة وأضربها أربعة، الأول مجـــزوء مرفّـــل (أي زيد سبب خفيف على وتده المجموع) وبيته :

كـــم قـــال قـــائـــلـــكم لـــعـــاً لـــك عـــند عشـــرته لـــعـــاثـــرْ

الضرب الثاني مجزوء مذال، وبيته :

ولقـــد نزلـــت بـــــهم فلـــــم أرهـــم يراعـــون الضيـــــوفْ

وبلوتـــــــهم فوجدتـــــــــهم لما ســـبـــكـــتهـــمو زيـــوف[1]

الضرب الثالث مثلها، وبيته :

إصـــبر علـــى كيـــد الحســـــو د فـــــإن صـــــبرك قاتلـــــــهْ

---

١ – للبهاء زهير .

كالنـــار تـــأكل بعضـــها إن لـــم تجـــد مـــا تأكلـــه

الضرب الرابع مقطوع (أي حذف ساكن وتده المجموع وسكّن ما قبلـــه) وبيته :

وإذا هـــمـــو ذكـــروا الإســـا ءة أكـــثـــر الحســـنـــات

ملاحظة : يدخل الإضمار أجزاء هذا البحر فينقلب فيـــه متفـــاعلن إلـــى مستفعلن، وقد يعمّ الأجزاء كلها نحو قول عنترة :

إني أمرؤ من خير عبس منصباً شطري وأحمي سائري بالمنصُلِ

ويشتبه حينئذ بالرجز، وزوال اللبس بالنظر إلى غيره من الأبيات، فـــإن وجد في أحد أجزائها متفاعلن عدّ من الكامل، وإلا حمل علـــى كونـــه مـــن الرجز لأصالة مستفعلن فيه.

وخلاصة ميزان البحر الكامل :

مفتاعلن	متفاعلن	متفاعلن	متفاعلن	متفاعلن	متفاعلن
=	=	=	=	=	متفاعلْ
=	=	=	=	=	فـــعْلن
=	=	فعِلن	=	=	فـــعلن
=	=	=	=	=	فـــعْلن

والمجزوء :

متفاعلن	متفاعلن	متفاعلن	متفاعلاتن
=	=	=	متفاعلان
=	=	=	متفاعلن
=	=	=	متفاعلْ

تمرين : قطّع هذه الأبيات وبيّن أعاريضها وأضربها :

أرأيت نصـــر الله كيـف يـؤوبُ أرأيت كيف قوى الكذوب تـذوب
أرأيت كيـف ينكّسـون رؤوسهم أرأيت كيف يجمجم المحروب[1]

...

وإذا الأمانة قسّمت في معشـر أو فى بـأوفر حظنـا قسّـامها
مـولاي مـا أخلفـت وعـد ك باختيـار كـان منـي
فعسـاك تسـمح لـي كمـا عودتنـي بـالصفح عنـي

...

وإذا رأيت أخاك فـي غضـب فـدع العتـاب وراضـه قُبـلا

✦ ***بحر الهزج*** :

عـلى الأهـزاج تسـهيـل مـفـاعـيلـن مـفـاعـيـلُ

أجزاؤه مفاعيلن ست مرات، إلا أنه لايستعمل إلا مجزوءاً فتصير أربعـاً وله عروض واحدة صحيحة وضربان، الأول مثلها كقوله :

نراكـم قـد بـدا منكـمْ أمـور مـا عـهدناها
وعرّضتـم بـأ قـوال ومـا نجـهل معناهـا

الثاني محذوف كقوله :

وما ظـهري لبـاغي الضـيـم بالظهـر الذلـولِ

وقد يرد تاماً على شذوذ كقوله :

تـرفـق أيـها الحادي بعشـلق نشاوى قد تعـاطو كأس أشـواقِ

ولا بأس إذا كان مفعماً بخيال شعري.

ملاحظة : يجوز في هذا البحر كفّ مفاعيلن فتصير مفـاعيلُ وقبضـها فتصير مفاعلن، وقد ورد الخرم والخرب في هذا البحر عن العرب، والخـرم

---

١ - من قصيدة للكاتب.

هو حذف ميم أول الوتد المجموع كحذف ميم مفاعلن فيبقى فاعيلن وينقل إلى مفعولن، والخرب هو اجتماع الخرم والكفّ فيصير مفاعيلن به فاعيلُ وينقل إلى مفعولُ، والخرم والخرب من العلل التي أُجريت مجرى الزحاف ومحلها الابتداء. وشاهد الخرم قول الشاعر :

أدوا ما استعاروه كذاك العيش عاريةْ

وشاهد الخرب قوله :

لو كان أبو موسى أميراً ما رضيناهُ

وقد نظم البهاء زهير قصيدة من ذلك، حيث قال :

يا من لعبت به شمول ما ألطف هذه الشمائلْ

خلاصة ميزان الهرج :

مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن

= = = فعولن

تمرين : قطّع هذه الأبيات :

أبا يحيى وما أعر ف من أنت أبا يحيى

فحدثني وقل لي أي ي شيء أنت في الدنيا

من الجن من الإنس من الموتى من الأحيا

بعيد منك أن تفلـ ـح في شيء من الأشيا

فلا أهلاً ولا سهلاً ولا سقياً ولا رعيا

البهاء زهير

✦ بحر الرجز :

في أبحر الأرجاز بحر يسهل مستفعلن مستفعلن مستعفلُ

أجزاؤه مستفعلن ست مرات وله أربعة أعاريض وخمسة أضرب.

الأولى تامة ولها ضربان الأول مثلها وبيته :

ولـيـلة من الليـالي الصالحـهْ بـاتت بها الهـموم عني نازحـهْ

والثاني مقطوع ، وبيته :

القـلب منها مسـتريح سـالم والقـلب منـي جاهد مجهـودُ

العروض الثانية مجزؤة صحيحة وضربها مثلها، وبيته :

قـد هـاج قـلبـي مـنـزل مـن أم عـمـرو مـقـفـرُ

العروض الثالثة مشطورة (أي حذف من البيت نصف تفاعيلـه فصـارت التفعيلة الثالثة هي الضرب، فيكون الجزء الثالث عروضاً وضرباً) والفـرق بين البيت المشطور المركب من ثلاث تفاعيل وبين نصف البيـت المركـب من ثلاث أيضاً هو أن الأبيات المشطورة تكون أعاريضـها - التـي هـي أضربها - قافية أيضاً لها، وأما نصف بيت الرجز فلا يطلق على عروضـه قافـية، مثال ذلك :

وليلـة كأنـها يـوم أغـر[1] ظلامها أشرقُ مـن ضـوءِ القمـر

كأنها في مقلـة الدهـر حـوَر ما قصرت لو سلِمت مـن القصـر

وأكثر الرجاز، كالعجاج وولده رؤبَة والأغلب العجلي وأبي النجم العجلـي وبشار بن برد، يلتزمون الرجز المشطور، بحيث يخيل للإنسان أن البيتيـن من المشطور كأنهما بيت تام من الرجز مصرّع .

الرابعة منهوكة (أي حذف ثلثا بيتها) وتتحد بالضرب أيضـاً والقافيـة كقوله :

يا ليتني فيها جذعْ

أخبّ فيها وأضعْ

---

١ - كل من كلمة أغر والقمر وحور والقصر في هذه الأبيات صارت عروضاً وضربـاً وقافية وهي أربعة أبيات من مشطور الرجز.

وخلاصة ميزان الرجز :

مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن

= = = = مستفعل

وللمجزوء :

مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن

وللمشطور :

مستفعلن مستفعلن مستفعلن

وللمنهوك :

مستفعلن مستفعلن

قطّع هذه الأبيات وبين أعاريضها وأضربها :

ياظبية أشبه شيء بالمها ترعى الخزامى بين أشجار النقا

إما تريْ رأسيَ حاكى لونه طرة صبح تحت أذيال الدجى

...

إني لقد جربت أخلاق الورى حتى عرفت ما بدا وما اختفى

...

سلمتَ من كل ألمْ ودمت موفور النعم

في صحة لا ينتهي شبابها إلى هرم

...

الحر يُلحى والعصا للعبدِ وليس للملحف مثل الرد

ابن الأمة ما ألأمه

بحر الرمل :

رمل الأبحر ترويه الثقاتُ فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتْ

أجزاؤه : فاعلاتن ست مرات، وله عروضان وستة أضـــرب، الأولـــى محذوفة وأضربها ثلاثة، الأول تام وبيته :

مثل سَحق البُرد عفى بعدكَ الـــ قطر معناه وتأويب الشـــمال [1]

الثاني مقصور وبيته :

مالـــها عـــنديَ من هـــجر ولا سـرها عـندي بالفاشي المبـاحْ

الثالث مثلها وبيته :

ليـت هـنداً أنـجزتـنا ما تعدْ وشفت أنفسـنا ممـا تـــجدْ[2]

العروض الثانية مجزؤة صحيحة، وأضربها ثلاثة، الأول مجزؤ مسبغ وبيته

يـا خـليـليَّ اربَـعا واســـ تخبرا ربـعـــاً بعَســـفان[3]

الثاني مثلها وبيته :

ليـت هـذا الليـــل شـــهر لا نـــرى فيـــه غريبـــا

مقمـــر غُيّـــب عنـــا مـــن أردنـــا أن يغيبـــا

الثالث مجزؤ محذوف وبيته :

مـا لمـا قـرّت به العـيـــ نـان فـي الـدنـيا ثـــمنْ[4]

١- مثل بالنصب حال من المنزل في البيت قبله، وسحق البرد معناه : البرد المســحوق أي البالي وتأويب الشمال رجوعها وعودها مرة بعد أخرى، والشمال بفتح الشـين هـي الريح البحرية، والبيت من قول بن الأبرص.

٢ - تكون العروض أيضاً مقصورة وأكثر ما يكون ذلك بالأبيات المصرّعة، كقول عمـو بن أبي ربيعة : حيا أثـلة إذ جد رواحْ وسلاها هل لـعان من سـراح

٣ - أربعاً قفا وانتظرا، وعسفان مكان قريب من مكة.

٤ - قد يكون للعروض المجزؤة ضرب رابع مقصور، وقد انتبهت إليه من الأبيات الآتية التي أردت نظمها على سبيل المثال فكان ضربها مقصوراً، ولا مانع من ذلك لأننـا فـي طريق التجدد حتى بالأوزان وهي :

أمة العـــرب أفـيقي فلقد سـار الـرفاقْ

بلغوا في العلم أقصـى غايـة في ذا السبـاق

فـإذا ظـللتم نيـامـا فـمتى كيف اللحـاق

ملاحظة : استعمل بعضهم هذا البحر مثمناً ونظم عليه قوله :

ياخلي البال قد بلبلت بالبلبال بالْ بالنوى زلزلتني والعقل بالزلزال زال[1]

وخلاصة ميزان هذا البحر هكذا :

فاعلاتن	فاعلاتن	فاعلن		فاعلاتن	فاعلاتن		فاعلاتن
–	=	–		=	=		فاعلان
=	=	=		=	=		فاعلن

✦ ***المجزوء*** :

فاعلاتن	فاعلاتن	فاعلاتن	فاعلاتان
=	=	=	فاعلاتن
=	=	=	فاعلن

تمرين : قطّعوا هذه الأبيات وبيّنوا أعراضها وأضربها :

يا شباب القـــوم لولاكـم لمـا ساغ لي النظم وما إن لـــذّ لـــي

إننـــي أبصـــر منكـم أنجمـــا لامعـات فـي ظـلام الأمـــل

...

خففي عنـــي قليـلا واعلمـــي أنني يـــا عبـدَ مـن لحـم ودم

إن في بـــرديّ جسـما نـاحلاً لـو توكـأتِ عليـه لانـــهدم

...

أنا لـــولا أن لـــي مـن أمتـــي خاذلاً مـا بـت أشـكو النوَبـا

وطنـــي قبـــل انتفـــاعي أمتـــي قبـــل الأمـــمْ

---

١ – لا يخفى ما في هذا البيت من تنافر الحروف مجتمعة.

✦ البحر السريع :

بحـــر ســـريع مالـــه ســـــاحلُ مســـتفعلن مســـتفعلن فـــــاعل

وأجزاؤه ، مستفعلن مستفعلن مفعولاتُ مرتين، وأعاريضه أربـــع وأضربـــه ستة :

الأولى : مطوية مكسوفة وأضربها ثلاثة ، الأول مطوي موقوف وبيته :

أزمان سلمى لا يرى مثلها الرا ؤون في شام ولافـــي عـــراق

الثاني مثلها وبيته :

يا أيـــها العـــاذل في حـــــبها لست مطاعاً أيـــها العـــاذل[1]

الثالث أصلم وبيته :

قالت ولم تقصد لقـــيل الخنـــــا مهلا لقـــد أبلغـــت أســـماعي

تمرين : للتقطيع وبيان الأعاريض والأضرب .

يا أيـــها البـــاذل مجهـــوده فـــي خدمـــة أف لـــها خدمـــة

إلى متى في تعـــب ضـــــائع بـــدون هـــذا تـــــأكل اللقمـــة

تشقى ومن تشقى لـــــه غـــافل كأنك الراقـــص فـــي الظلمـــة

✧ ✧ ✧

لو نظـــر النـــاس لأحـــــوالهم لاشتغل النـــاس عـــن النـــاس

✧ ✧ ✧

مولاي وافـــاني الكتاب الـــذي ذكـــرت فيـــه ألـــم البعـــد

فكل مـــا عنـــدك من وحشـــة فإنـــها بعـــض الـــذي عنـــدي

ماحلت عن عهد ولاخنت فـــي ود ولا قصـــرت مـــن جـــهد

---

١ - لعمر بن أبي ربيعة .

✦ *البحر المنسرح* :

منسرح فيــه يضــرب المثــل مستفعلن مفعــولاتُ مفتعــلُ

أجزاؤه : مستفعلن مفعولات مســتفعلن مرتيــن ، و أعاريضــه ثــلاث كأضربه .

الأولى : صحيحة وضربها مطوي وبيته :

إن ابن زيــد لازال مســتعملاً للعرف يفشي في مصره العرُفــا

الثانية : موقوفة منهوكة ، وهي عين الضرب ، والردف لازم لها لدفــع التقاء الساكنين ، مثاله قول هند بنت عتبة يوم أحد :

صبراً بني عبد الــدارْ

صبراً حمــاة الأدبــارْ

ضرباً بــكل بــتــارْ

الثالثة : مكسوفة منهوكة ، وهي عين ضربها، كقول أم سعد بن معاذ لمــا مات ابنها سعد :

ويل أم سعد سعداً

وخلاصة ميزانه :

مستفعلن مفعولات مستفعلن مستفعلن مفعولات مفتعلن

المنهوك

مستفعلن مفعولاتْ

= مفعولن = مفعولا

تمرين :

لاتسأل المــرء عــن خلائقــه في وجهه شاهد مــن الخــبر

✧ ✧ ✧

قوم إذا أملولح الرجال علــى أفواه مــن ذاق طعــم عذُبــوا

إن نزلـوا فـالغيوث بـــاكرة والأسد أسد العريـن إن ركبـوا
لأهـم مفـاريج عنـد نوبتـهم ولا مجـازيع إن همـوا نكبـوا

✧ ✧ ✧

والأمـر لله رب مجـتهـد مـا خاب إلا لأنـه جـاهـدْ

✧ ✧ ✧

كأن تلك الدموع قطـر نـدى يقـطر مـن نرجس علـى ورد

✦ **البحر الخفيف :**

يا خفيفا خفّت بـه الحركـات فاعلاتن مستفعلن فـاعلاتُ

أجزاؤه ، فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن مرتيـن . ولـه ثـلاث أعـاريض وخمسة أضرب ، الأولى صحيحة ولها ضربان الأول مثلها، وبيته :

من رسولي إلى الثريـا فـإني ضافني الهم واعترنني الغمـوم
يـعلم الله أنني مسـتهـام بـهواكـم وإنـني مـرحـوم

ويلحق هذا الضرب علة تسمى (التشعيث) وهي جارية مجرى الزحـاف في عدم اللزوم ، وتكون بإسقاط أحد متحركي الوتد، فيصير فيه فـاعلاتن أو فالاتن فينقل إلى مفعولن ، كقول الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميـت إنما الميـت ميـت الأحيـاء
إنما الميت مـن يعيـش كئيباً كاسـفاً بـاله قليـل الرجـاء

الضرب الثاني محذوف وبيته :

ليت شعري هل ثم هل آتينـهم أم يحولن من دون ذاك الـردى

العروض الثانية محذوفة ولها ضرب واحد مثلها، وبيته :

إن قدرنا يوما على عامر ننتصف منه أو ندعه لكم

العروض الثالثة مجزوءة صحيحة ولها ضربان الأول مثلها ، وبيته :

ليت شعري ماذا تـرى أم عمـرو فـي أمرنـا

الثاني مخبون مقصور، وبيته :

كل خطب إن لـــم تكـــو ـــنوا غضبتـــم يســـير[1]

وخلاصة ميزان هذا البحر :

فاعلاتن مستفع لـــن فـــاعلاتن فاعلاتن مستفع لن فـاعلاتن[2]

= = = = = فـــــــاعلن

= = = = فاعلن

والمجزوء

فـــاعلاتن مســـتفع لـــن فـاعلاتن مســـتفع لـــن

= = = = فعولن

تمرين[3] :

أيـــها المتحفـــي بنظـــم ونـــثر كـــلآلٍ قـــد زانـــها الـــترصيعُ

بل هوايَ الذي أجـــن وأبـــدي لنبـــي هاشـــم فـــروع الأنـــامِ

قلـــــت إذ راح غارقـــــاً فـــي بحـــــار تلاطمـــــهُ

عـــن قريـــب تـــرون حـــا ســـده وهـــو راحمـــه

ردّ منـــا القلـــوب منكســـرات عندمـــا زاح كاســـراً أجفانـــهْ

عذبـــيني فمهجتـــي في يـــديكِ ومريـــني فالقـــلب عبـــد لديكِ

✦ البحر المضارع :

تعـــد المضارعـــات مفـــاعيلن فـــاع لات

---

١ - وزنها مفعولن .

٢ - أو مفعولن .

٣ - يجوز في هذا البحر خبن فاعلاتن فتصير فعلاتن وخبن مستفعلن فتصـــير متفعلـــن وطيها فتصير مستعلن وتنقل إلى مفتعلن.

أجزاؤه، مفاعيلن فاع لاتن مفاعيلن مرتيـــن، ولكنـــه مجـــزوء وجوبـــاً وعروضه واحدة صحيحة وضربها مثلها، وبيته :

دعـــاني إلـــى ســـــعادا دواعـــي هـــوى ســـــعادا

ملاحظة : قد يستعمل هذا البحر تاماً مسدساً على شذوذ كقوله :

رمت قلبي يوم حزوى بعينـــها فأصمتـــه نـــافذات مـــن النبـــلِ

وقد يستعمل تاماً مثمنا أيضاً مثاله وقد دخل أوله الخرب :

لاتنح بالملام أخا الوجد والـهوى يكفيه ماعراه من السقم والجوى

✦ **البحر المقتضب :**

إقتضـــب كمـــا ســـألوا مفعـــولاتُ مفتـــعلُ

أجزاؤه ، مفعولات مستفعلن مستفعلن مرتين، غير أنه مجـــزوء وجوبـــاً وعروضه واحدة مطوية وضربها مثلها، وبيته :

أقبلـــت فـــلاح لـــها عارضان كالســـبج[1]

<u>ملاحظة :</u> قال الزجاج : إن بحري المضارع والمقتضب قليلان حتى إنـــه لا يوجد منهما قصيدة لعربي، وإنما يروى من كـــل واحـــد منـــهما البيـــت والبيتان.

✦ **البحر المجتث :**

اجتـــــثت الحركـــــاتُ مســـتفع لـــن فـــاعلاتُ

أجزاؤه ، مستفع لن فاعلاتن فاعلاتن مرتين، وهو مجزؤ أيضـــاً وجوبـــاً وعروضه واحدة صحيحة وضربها مثلها وبيته :

البطـــن منـــها خميـــص والوجـــه مثـــل الـــهلالِ

ويلحق هذا الضرب التشعيث كقوله :

لـــمْ لا يعـــي مـــا أقـــولُ ذا الســـيد المـــأمول

---

١ – خرز أسود براق .

تمرين : على الأبحر الثلاثة : المضارع والمقتضب والمجتث

ولا تـــــر النـــــــاس إلا عينـــاً ونفســـــا أبيـــــهْ

واقنـــع بكســـرة خبـــز وهـــــمة كســـــــرويه

حـــف كأســـها الحبـــــبُ فـــهي فضـــــة ذهـــــبُ

يـــا نـــديم خـــــف بـــها لا كبـــابـــــك الطـــــرب

شوقي

فجـــدد وصـــال حـــب متـــى تعصـــه أطـــاعـــا

وفـــي ثغرهـــا أقـــاحٌ وفـــي الوجنتيـــــن وردُ

✦ **البحر المتقارب :**

عن المتقـــارب قـــال الخليـــل فعولن فعولـــن فعولـــن فعـــولُ

أجزاؤه ، فعولن ثمان مرات وله عروضان وستة أضرب،الأولى صحيحة وأضربها أربعة [الأول] مثلها وبيته :

ونحن ، إذا القوم ولوا ســـراعاً من الموت ، جئنا إليه عجـــالا[1]

[الثاني] مقصور وبيته :

كريم الخصال لطيـــف المقـــالِ جزيل النـــوال جميـــل الفعـــالْ

[الثالث] محذوف وبيته :

وأروي من الشعر شعراً عويصاً ينسي الرواة الـــذي قـــد رووا

[الرابع] أبتر وبيته :

خليلي عوجا علـــى رســـم دارٍ خلت من ســـليمى ومـــن ميّـــهْ

العروض الثانية مجزوءة محذوفة ولها ضربان، الأول: مثلها وبيته :

---

١ - البيتان لجامع الكتاب .

أمـــن دمنـــه اقفـــــرت لســـلمى بـــذات الغضـــا

والثاني أبتر وبيته : تعفف ولاتبتئس فما يقضِ يأتيكا[1]

وخلاصة ميزان المتقارب :

فعولن فعولن فعولـــن فعولـن فعولن فعولـــن فعولـن فعولـن

= = = = = = = = فعولْ

= = = = = = = فعَل

= = = = = = = فع

والمجزوء :

فعولـن فعولـــــن فعَـــلْ فعولـن فعولـــــن فعَـــلْ

= = = = = فغْ

تمرين : للتقطيع وبيان الأعاريض والأضرب :

فقلـت أغثنـي أبـا مـــالك وإلاّ فـهبني امـــرءاً هالكـــا

تلـق الأمـور بصـبر جميـلٍ وصدر رحيب وخـــل الحـرجْ

تذكـرتَ هنـدا وأعصارهـــا ولم تقض نفســك أوطارهـا[2]

تذكرت النفس ما قـــد مضـى وهاجت على العين عوّارهـــا[3]

---

١ – جواب الشرط ورفعه جائز على وجه ضعيف لكون الشرط مضارعاً .

٢ – العروض والضرب في هذين البيتين على وزن فعل وهما غير مجزوء ين ولم يذكـر ذلك علماء العروض في الأعاريض.

٣ – العوار ماعار في العين من قذى ورمد فأوجعها.

✦ البحر المتدارك :

حركـــات المحـــدث تنتقـــــل فعلن فعلن فعلن فعـــلُ

هذا البحر تدراك به الأخفش على الخليل حيث تركه ولم يذكره من جملـة البحور، ويسمى [المخترع] و[المحدث] و[الخبب] أيضاً . وأجزاؤه [فـــاعلن] ثمان مرات. وله عروضات وأربعة أضرب .

الأولى تامة وضربها مثلها وبيته :

جاءنا عـــامر ســـالماً صالحـــاً بعدما كان ما كان مـــن عـــامرِ

الثانية مجزوءة صحيحة وأضربها ثلاثة [الأول] مخبون مرفل وبيته :

دارُ ســـعدى بشـــحر[١] عُمـــانِ قد كســـــاها البلـــى الملـــوانِ[٢]

الثاني مذال وبيته :

هـــــذه دارهـــــم أقفـــــــرت أم زُبـــور محثـــها الدهـــــور[٣]

الثالث صحيح مثلها وبيته :

قـــف علـــى دراهـــم وابكيـــنْ بيـــن أطلالـــــها والدِمـــــنِ

ملاحظة :

الخبن في هذا البحر حسن بل صرح ابن الحاجب بأن وروده غير مخبون شاذ،ومثاله قوله :

كرة طرحـــت بصوالجـــة[٤] فتلقفـــــها رجـــل رجـــــلُ[٥]

---

١ – بكر الشين وفتحها : ساحل البحر

٢ – العروض في هذا البيت حقها أن تكون صحيحة كما ذكرنا ولكنها جـــاءت مخبونـــة مرفلة لأجل التصريع في البيت .

٣ – زبور بضمم الزاي جمع زبر بكسرها وهو الكتاب بمعنى المكتوب .

٤ – جمع صولجان وهو عصا في أرسها اعوجاج .

٥ – رجل الثانية معطوفة على الأولى بحذف العاطف أي رجل فرجل .

والقطع في حشو هذا البحر وعروضه وضربه جائز وبيته :

مـــالي مـــال إلا درهـــمْ أو برذونـــي ذاك الأدهـــم

وقد اجتمع الخبن والقطع في بيت واحد كقوله :

زمّـت أبـل للبيـن ضحـــى في غـور تهامـة قـد سـلكوا

وخلاصة ميزانه :

فاعان فـاعلن فـاعلن فـاعلن فاعلن فـاعلن فـاعلن فـاعلن

وللمجزء :

فـاعلن فـاعلن فـاعلن فـاعلن فـاعلن فعِلاتـن

= = = = فعلان

= = = = فاعلن

تمرين : من القصيدة الشهيرة للحصري التي مطلعها:

يـاليل الصـب متـى غـدهُ أقيـام السـاعة موعـده ؟

« ملاحظات هامة »

[١]

يتيسر للشاعر العربي أن ينظم سبعاً وستين قصيدة كل قصيدة ليست من نوع الأخرى ، وذلك أنه يسبب العلل تنوعت الأعاريض والضروب وتكثرت . وغاية عدد العروض في البحر الواحد أربعة كالرجز والسريع ولا ثالث لهما ، وقد تكون واحدة كما في الطويل . ومجموع الأعاريض في جميع الأبحر ست وثلاثون وغاية عدد الضرب في البحر اواحد تسع كالكامل ولاثاني له ، وقد يكون واحداً كالمصارع والمقتضب والمجتث ولا رابع لها .

وكل ما كان ضربه واحد فعروضه بالضرورة واحدة، ومجموع الضروب في جميع الأبحر سبعة وستون وإذا شرع الناظم في عروض أو

ضرب فعليه أن يحافظ عليهما في كل القصيدة، لذلك يتمكن الناظم أن ينظم سبعاً وستين قصيدة بعدد الأضرب على ما ذكرنا . فاختلاف القصيدتين قد يكون بالجنس كما إذا اختلف بحرهما ، وقد يكون بالنوع كما إذا كانتا من بحر واحد، لكن خالف عروض أحداهما عروض الأخرى أو ضربها ضربها، أو خالف عروضها وضربها عروض الأخرى وضربها .

[٢]

علم مما تقدم أن الجزء[١] واجب في خمسة أبحر وهي : المديد والهرج والمضارع والمقتضب والمجتث، وممتنع في ثلاثة وهي : الطويل والسريع والمنسرح ، وجائز فيما عدا ذلك . ويمتنع الشطر[٢] فيما عدا بحري الرجز والسريع ، وأما فيهما فيجوز .

ولايجوز للشاعر أن يجمع بين مشطور وغيره ، بل إن التزم الشطر لزمه إلى آخر القصيدة، وكذلك الحكم في المنهوك .

ولايجوز دخول النهك[٣] فيما عدا بحري الرجز والمنسرح وهو فيهما قليل جداً . وذهب أناس إلى عدم عد المنهوك والمشطور شعرا .

[٣]

الأبحر التي نظم عيها عرب الجاهلية وصدر الإسلام هي التي تقدم لنا ذكرها، أما التي نظم عليها المولدون وأحدثوه فهي تزيد على ذلك .

فالبحور المحدثة هي :

الوسيط ، الوسيم ، المعتمد ، المنسرد ، المطرد ، الفريد، العميد، السلسلة وهي مشتقة من أوزان البحور الأصلية السابقة .

---

١ - بفتح الجيم وهو حذف إحدى التفاعيل كما علمت .

٢ - حذف نصف البيت كما مر .

٣ - وهو حذف ثلثي البيت كما سلف .

البحور المحدثه

✧ **الوسيط :**

ويسميه بعضهم بالمستطيل ، أجزاء شطره مفـــاعلين فعولــن مفــاعلين فعولن[1] وبيته :

لقد هاج اشتياقي عليل الطرف أحورْ أدير الصدغ منه على مسك وعنبرْ

وقد يستعمل مربعا كقوله :

أيســـلو عنـــــك قلـــــب بنـــار الحـــبُ يصلـــــي

وقد ســددت نحــوي مــن الألحاظ نصــلا

وبعضهم جعل هذا من مجزوء الهرج بأن استدرك له عروضاً محذوفـــة وضرباً مثلها .

✧ **الوسيم :**

أجزاء شطره ، فاعلاتن فعولن مرتين وهو مثمن ومربع وبيت مثمنه :

قد شجاني حبيب واعتراني أدّكـارُ ليتني إذ شجاني ما شجتني الديـار

وبيت مربعه :

مــن لقلب معنـــى بـــالذي يتـــمنى

✧ **المعتمد :**

أجزاء شطره ، فاعلاتك ثلاث مرات وبيته :

طال وجدي بالطوائف في المطـارفْ وارتماضي بالعواطف للمعـاطفْ

ويجوز فيه الخبن والتخفيف وهو تسكين الكاف.

✧ **المنسرد :**

وزنه ، مفاعيلن مفاعيلن فاعلاتْ مرتين ومثاله :

على العقل فعوّل في كل شـــان ودن كلاّ بمـــا شـــئت أن تـــدانْ

---

١ - عكس أجزاء الطويل .

ويدخله الكف فتصير مفاعيلن مفاعيلُ

✧ **المطرد :**

أجزاء شطره ، فاعلاتن مفاعيلن مفاعيلن ومثاله :

ما على مستهام ريـــع بـالصد فبكى وشكى من ألـــم الوجـدِ؟

✧ **الفريد :**

وهو نوع من الهرج ووزنه :

مفعول مفاعيل مفاعيل فعولـــن فعول مفاعيل مفـــاعيل فعولـن

ومثاله :

القطر كسا الأرض من الحسن فنونا وفتّـح للنّـور ثـوراً وعيونـــا

✧ **العميد :**

وهو قريب من الفريد ومثاله :

وهو قريب من الفريد مثاله :

ياقوم أنا الصب الـــ مفعـول مفـــاعيلن

معنى وحـــ دي مفاعيلن فعْ

ماعند كمو من الـــ هوى ماعنـــ دي

مفعول مفاعلن مفاعيلن فعْ

✧ **السلسلة :**

وزنه ، فعْلن فِعلاتن مستفعلن مرتين ومثاله :

يا بحرلآلٍ وياغمام نـــوالِ طوبى لموال دنـــا اليـك ووالاكْ

فعلن فعلاتن متفعلن فعلاتـــن فعلن فعلاتن متفعلن فعلاتـــان

فنون الشعر

فنون الشعر المشهورة عند الناس سبعة وهي :

القريض . الموشح . الدوبيت . الزجل . المواليات . الكان وكان . القوما

وهذه الفنون السبعة منها ثلاثة معربة أبداً، لا يغتفر اللحن فيها، وهي الشعر القريض والموشح والدوبيت .

ومنها ثلاثة ملحونة أبداً ، وهي الزجل والكان وكان والقوما .

ومنها واحد وهو البرزخ بينهما يحتمل الإعراب واللحن وهو المواليا .

أما الشعر القريض فقد تقدمت أبحره وأوزانه .

وأما بقية الفنون فقد نظمت في العصور المتأخرة، ولا سيما زمن بني قلاوون وبرقون ، حيث أثابوا على الزجل حتى كاد ينسخ الشعر الفصيح .

✧ **الموشح :**

أول من اخترعه المغاربه الاندلسون . وهو كالشعر يلزم فيه الإعراب والوزن غير أن وزنه قد يأتي على خلاف المعهود في الشعر العربي، فقد تكون أجزاؤه : مستفعلن فاعلن فعولْ ،

وقد تكون : فاعلاتن فاعلن مستفعلن فاعلن .

وقد تكون من بحر الرمل : فاعلاتن فاعلاتن فاعلن أو غير ذلك من الأوزان .

وسمي موشحاً لأن خرجاته وأغصانه كالوشاح له، وتكون هذه الخرجات والأغصان في بعض أنواعه .

وله نوع مشهور، ضابطه أن ينظم الشاعر بيتين عروضاهما على قافية وضرباهما على قافية أخرى، ثم ينظم بعدهما دوراً مؤلفاً من خمسة أبيات؛ الثلاثة الأولى متفقة القوافي والأعاريض والأضرب والبيتان الأخيران عروضاهما وضرباهما كالبيتين الأولين . مثاله " للوزير أبي عبد الله لسان

الدين محمد بن عبد الله المعروف بابن الخطيب شاعر الاندلس والمغرب لعصره من موشحه المشهور" :

جادك الغيث إذا الغيث همى ... يازمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك إلاّ حلما ... بالكرى أو خلسة المختلس

وأول أدواره قوله :

إذا يقود الدهر أسباب المنى ... تنقل الخطو على ما يرسمُ
زمراً بين فرادى وثنى ... مثلما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا ... فمنا الأزهار فيه تبسم

وروى النعمان عن ماء السما ... كيف يروي مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبا معلما ... يزدهى منه بأبهى ملبسِ

وقد جرى على منوال هذا الموشح معروف الرصافي العراقي في موشح له فقال :

أدب العلم وعلم الأدبِ ... شرف النفس ونفس الشرفِ
بهما يبلغ أعلى الرتب ... كل رام منهما في هدف

ومن أدواره قوله :

يابني يعرب ما هذا المنامْ ... أوَما أسفر صبح النوَمِ؟
أين من كان بكم يرعى الذمام ... ويلبي دعوة المهتضم
أفلا يلذعكم مني الملام ... فلقد ألفظ جمراً من فمي

خارجاً في نفس كاللهب ... محرقاً مهجة قلبي الدنفِ
أنا لولا فيض دمعي السكب ... لتحرقت بنار الأسفِ

ومن أنواع الموشح نوع يسمى [المستزاد] وهو ما يقع فيه إثر كل مصراع أو بيت زيادة قليلة موزونة ولعله من نوع الموشح مثاله :

يامن جعل الصد مباحاً من غير جناح
والصبر عن الصب مزاحاً ماذا بمزاح

صل ذا شغف مثل خلال مع لطف خلالِ
قد صار مناويهُ مراحا مع فرط مراحِ

وأنواع الموشح كثيرة يعسُر حصرها فليراجعها من يرومها في مجاميع الأدب .

✧ **الزجل :**

لما شاع فن التوشيح نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً واستحدثوه فناً وسموه الزجل، وهناك رجال مشهورون بالزجل بين المشارقة والمغاربة يدعون بـ [الزجالين] ولا حد لأوزانه وأشهرها ، مستفعلن فعِلن فعِلن أربع مرات لكل دور . وربما قالوا فعِلان بدل فعلن الأخيرة ومثاله [من زجل لصفي الدين الحلي]

أنت يا قبلة الكرامْ زينة المال والبنينْ
الله يعطيك فوق ذا المقام ويعيدك على السنين

دور

أنت شامة بين الأنام الله يحرس شمايلكْ
ويزيدك بالدوام كي نعيش في فواضلك
ماينطوي ذكر الكرام لما تنشر فضايلك

ونـــهنيك لكـــل عـــام والخلايـــق تقـــول آميـــن
قد بقينـا بـك فـي أمـــان الله يحييـك طـــول الســـنين

إلى آخره ...

✧ **القوما :**

نوع من الزجل كان يوقظ الناس به للسحور ي رمضان وزنه: مستفعلن فعلان أربع مرات لكل دور. من ذلك ما نظمه بعضهم ليسحر بـــه لبعـض الخلفاء في رمضان :

لازال ســـعدكْ جديـــدْ دائـــم وجـــدك ســـعيد
ولا برحت مهنا بكل صوم وعيد

فـي الدهـر أنـت الفريـد وفـي صفـاتك وحيـدْ
والخلق شعر منقحْ وأنت بيت القصيد

إلى آخره ...

✧ **كان وكان :**

هو أيضاً من الزجل ودوره مركب من أربعـة شـطور، الأول وزنـه : مستفعلن فعِلاتن والثاني : مستفعلن مستفعلن (او مستفعلان) والثـالث مثـل الأول، والرابع : مستفعلن فعلان مثاله ماقيل في الوعظ :

ياقسـي القلـب مـالكْ تسـمع ومـا عنـدك خـبرْ
ومـن حـرارة وعظـي قـد لانـت الأحجـارْ

إلى آخره ...

✧ **المواليا :**

هو من بحر البسيط على بيتين مقفيين يغنى به على رؤس النخل وعلى سقي المياه، ووزن كل شطر غالباً : مستفعلن فاعلن مستفعلن فعِلان . وكثيراً ما يجعلونه ملحونا مثاله [لصفي الدين الحلي] :

ياطاعن الخيل والأبطال قد غارت والمخصب الربع والأمواه قد غارت
هواطلُ السحب من كفيك قد غارت والشهب مذ شاهدت أضواك قد غارت[1]

✧ **الدوبيت :**

ويسمى الرباعي لاقتصارهم فيه على أربع مصاريع أي بيتين ويجعلونهما على قافية واحدة . ووزنه الأصلي : مفاعيلن . ويدخله كثير من أنواع الزحاف فيصير : مفعول ، مفعولن مفاعيلُ إلى غير ذلك . مثاله قول بن الفارض :

إن كان عهود وصلنا قد درست فالروح إلى سواكمو ما أنست
أغصان هواكمو بقلبي غرست جودوا بوصلكم وإلاّ يبست
مفعولُ مفاعلن مفاعيل فعلْ مفعولُ مفاعلن مفاعيلُ فعلْ

التشطير والتخميس والتاريخ

✧ **التشطير :**

هو أن تعمد إلى بيت فتجعله بيتين ، بأن تضم للشطر الأول منه شطراً آخر بعده وللشطر الثاني شطراً آخر قبله ، كقول السراج القفصي في تشطيره للبردة :

"أمن تذكر جيران بذي سلم" باح اللسان بما في القلب من ألم

---

١ – غارت الأولى من غارة الحرب ، والثانية من غور الماء، والثالثة من الغيرة ، والرابعة من غار النجم إذا سقط .

وإذ نأى عنك من تهواه مرتحـلا "مزجت دمعا جرى من مقلة بـدم"

✧ **التخميس :**

هو أن تعمد إلى بيت فتقدم عليه ثلاثة أشطر على قافيـة الشـطر الأول، مثاله من قصيدة السمؤل التي خمسها صفي الدين الحلي :

قبيح بمن ضاقت عن الرزق أرضـه وطول الفلا رحب عليـه وعضـهُ

ولم يبلِ سربال الدجى منه ركضـه "إذا المرء لمَ يدنس من اللؤم عرضـه"

(فكل رداء يرتديه جميلُ)

✧ **التاريخ :**

يستعمل في تاريخ حادثه مامن الحوادث التي يسر لها الإنسان أو يسـاء، ويستخدمونه على نصائب[1] القبور، ويكون بحساب حروف (أبجد) المسـماة بـ "حساب الجمل" ويحسبون من الألف إلى ياء [حطي] عشرة ومابعدها كـل حرف بعشرة إلى الصاد بكلمة [سعفص] وما بعدها كل حرف بمئة إلى آخـر حرف فيها وهو الغين في [ضظغ] حيث تكون قيمته ألفاً، ويعتبر فـي ذلـك التاريخ الهجري وتحسب قيمة التاريخ من بعد كلمـة [أرخ] أو [أرخـت] أو [أرخوا] وينظر في كلمات التاريخ إلى صور حروفـها المنظـورة لا إلـى لفظها، فإذا لفظنا حرفاً دون أن نكتبه لا نحسبه كالف هذا وذلك والألف التـي بعد واو الجمع، والألف التي بصورة الياء نحسبها ألفاً نظراً للفـظ والنطـق [وقد تحسب ياء اضطراراً].

مثاله : [ماقله العلامة عبد الغني النابلسي في تاريخ بديعيته]

وقلت للربع لما الفكـر أرخـها يا ربع قد تم مدحي سيدَ الأمـم

١٠٧٥هـ

---

١ - جمع نصيبه : الأحجار التي تنصب على القبور .

ومثاله أيضاً :

فلم ترض عيشاً فانياً أرخوه [يـــل أوت روحها لله في جنة المـــأوى][1]

١٣٤٦هـ

---

١ - هذا البيت آخر قصيدة مطلعها :

أأم الصغار الرزء جل عن السلوى وكنت صبورا إن ألمت بي البلوى

لجامع هذا الكتاب .

العلم الثاني مما يتعلق بالشعر :

علم القوافي

وفيه خمسة مباحث :

○ **المبحث الأول : القافية**

هي من آخر حرف في البيت إلى أول حرف متحرك يتلوه ساكن، ، فعلى هذا قد تكون القافية كلمة، وقد تكون بعض كلمة وقد تكون كلمتين، وقد تكون كلمة وبعض أخرى .

مثال كونها كلمة [قول عبيد بن الأبرص] :

ذا أنت حمّلت الخؤون أمانة فإنك قد أسندتها شرُ مسندِ

ومثال كونها بعض كلمة [قول أبي العلاء المعري] :

لقد يخطئ الرأي أمرؤ وهو حازم كما اختل في وزن القريض عبيد[1]

إذ هي من الباء إلى الواو.

ومثالها من كلمتين [قول النابغة الذبياني] :

مهلا فداء لك الأقوام كلهم وما أثمر من مال ومن ولد

ومثال كونها كلمة وبعض أخرى [قول النابغة أيضاً] :

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لبد

إذ هي من لام على إلى الياء .

---

١ - مبنى على أن في بعض معلقة عبيد أبياتاً على أوزان غير جائزة في بحر البسيط ولكن الأغلب أن ذلك من سوء الرواية وإلا فعبيد أجل من أن يقع في مثلها .

○ المبحث الثاني : أحرف القافية وأجزاؤها

أحرف القافية التي لاتخلو عن مجموعها ستة ، وأعظمها :

[١] الروي[١] ــ لأنه لابد منه في القافية و إليه تنسب القصيدة، وهو حرف بنيت عليه القصيدة ونسبت إليه من كاللام في قصيدة كعب بن زهير [بانت سعاد] ولا تقع حروف المد روياً إلا الألف المقلوبة عن واو نحو: (هدى) و(عدا)، ولا تقع روياً أيضاً النون التي ليست في بنية الكلمة، كنون التوكيد وجمع النسوة ،وأما الضمير فيكون روياً ويكون وصلاً كما سيأتي.

[٢] الوصل ــ وهو إما حرف مد ناشئ عن إشباع حركة الروي أو هاء تلي الروي أو ضمير غير الهاء، وسمي بذلك لوصله بالروي، فمثال الألف قوله :

أذا اطلع الغراب على تميم وما فيها من السوءآت شابا

ومثال الواو بعد ضمة قوله :

لاترقب النجم في أمر تحاوله فالله يفعل لا جديٌ ولا حمل

مع السعادة ما للنجم من أثر فلا يضرك مريخ ولا زحل

ومثال الياء بعد كسرة قوله :

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وحلية الفضل زانتني لدى العطل

وأما الهاء فتكون ساكنة و متحركة ، مفتوحة و مضمومة و مكسورة ، مثال الساكنة قوله:

وكنا إذا الجبار صعر خده مشينا إليه بالسيوف نحاربه

---

١ - الروي مأخوذ من الرواء _بالكسر و المد _ وهو حبل يشد بة الرحل على ظهر البعير فكأن الشاعر شد حروف قصيدتة بحبل ، و قال بعضهم : هو مأخوذ من الرواية وهي الفكرة لأن الشاعر يتفكر فيه .

ومثال المفتوحة [قول لبيد] :

إنا إذا التقت المجامع لـــم يــزل منــا لــزاز عظيمــة جشـــامها

ومثال المضمومة قوله :

فيا لائمي! دعني أغالي بقيمتـــي فقيمة كل النـــاس مـــا يحســـنونه

ومثال المكسورة "قول الحكم بن نهشل" :

كل امرئ مصبـــح فـــي أهلـــه والموت أدنى من شـــراك نعلـــه

ومثال الضمير غير الهاء [قول البها زهير]:

يا رب قد أصبحت أرجو كرمـك يا رب ما أكـــثر عنـــدي نعمـــك

يا رب عن إساءتي ما أحلمك يا رب سبحانك بي مـــا أرحمـــك

[٣] الخروج _ وهو حرف ناشىء عن حركة هاء الوصل ، ويكون ألفـــاً كألف جشامها، وواواً كيحسونهو، وياء كنعلهي .

[٤] الردف_ وهو حرف مد قبل الروي، فالألف كقول المتنبي :

لاخيل عندك تهديـــها ولا مـــال فليسعد النطق إن لم يسعد الحـــال

والياء كقول علقمة الفحل :

طحا بك قلب الحســـان طـــروب بعيد الشباب عصر خان مشـــيب

و الواو كقول الفرزدق :

وقد علمت معـــد الفضـــل أنـــا ذووا الحسب المكمـــل و الحلـــوم

[٥] التأسيس _ وهو ألف بينه وبين الروي حرف . ويكـــون مـــن كلمـــة الاروي كقول الفرزدق :

وما من أحد كان المنايـــا وراءه ولو عاش أيامـــاً طـــوالاً بســـالم

ومن غيرها إن كان الوري ضميراً أو بعض ضمير كقوله :

وأنت أخي ما لم تكن لي حاجـــة فإن عرضت أيقنت أن لا أخا ليـــا

فالروي هنا الياء وهي ضمير و الألف في كلمة "أخا"تأســـيس، ومثـال كون الروي بعض ضمير قوله :

فأن شئتما ألحقتمـــا أو نُتجثمـا وإن شئتما مثلاً بمثل كما همـا[1]

وأن كان عقلاً فاعقلا لأخيكمـا بنات مخاض والفصال المقادمـا

فالروي الميم في "هما" وهي بعض ضمير بناء علـى أن الضمـير هـو مجموع [هما].

[٦] الدخيل_ وهو حرف متحرك بعد التأسيس كالكلام من [سالم] فـي البيت السابق.

ملاحظة :الردف و الدخيل لا يجتمعان فـي قافيـة واحـدة لأن الدخيـل متحرك و الردف ساكن. وكذا لا يجتمع الردف والتأســيس فيـها لأن كـلا منهما ساكن والساكنان لا يجتمعان.

تمرين : بيّن القافية وأجزاءها الستة في الأبيات التالية :

ألاليت شعري هل يرى الناس مـلأرى من الأمر؟ أو يبدو لهم ما بدا ليـا

بدا لي أن النـاس تفنـى نفوسـهم وأموالـهم ولا أرى الدهـر فانيـا

زهير بن أبي سلمى

واعلم علماً ليـس بـالظن أنـه إذا ذل مولـى المـرء فـهو ذليـل

وأن لسان المرء _ مالم تكن لـه حصـاة _ علـى عوراتـه لدليـل

وظلم ذوي القربى أشد مضاضـة على المرء من وقع الحسام المـهند

ولا أغير على الأشعار أسـرقها غنيت عنها ، وشر الناس من سـرقا

---

١ – خير الشاعر الخاطبين وهما وليا الدم بين أخذ اللقاح وهي الإبل الحلـوب أو الإبـل ذات النتاج ،أ أن يقتصوا مثلاً بمثل : اليد باليد والعين بالعين أو أن يأخذوا العقـل وهـو الدية من بنات المخاض والفصال ومعنى المقادم أي التقدمة .

وإن أحسن بيـــت أنـــت قائلـــه بيـــت يقـــال إذا أنشـــدته صدقـــا[1]

وقد أغتدي والطير في وكناتـــها بمنجـــرد قيـــد الأوابـــــد هيكـــــل

مكـــر مفرمقبـــل مدبـــر معـــــاً كجلمود صخر حطه السيل من عـــل

وكنت أذا عاديت قوماً حملتـــهم على الجمر حتى يحسم الداء حاسمه

الفرزدق

○ **المبحث الثالث : حركات القافية**

حركات القافية اللائي إذا أتى بها الشاعر في مطلع شعره وجـــب عليـــه التزامها في بقيته – ست

[١]المجرى[٢]: وهو حركة الروي المطلق – أي المتحـــرك – كحركـــة اللام في قول المتنبي السابق "الحال".

[٢] النفاذ[٣] : وهو حركة هاء الوصل كحركة الهاء في (جشامها) وفـــي (يحسنونه) و(نعله) في الأبيات السابقة.

[٣] الحذو[٤] :وهو حركـــة مـــا قبـــل الـــردف كحركـــة بـــاء [البـــالي] وشين[مشيسب] وحاء [الحلوم] في الأبيات السابقة .

---

١ – هذان البيتان والثلاثة التي قبلهما لطرفة بن العبد ، غير أننـــي لا أرى روح طرفـــة ترفرف فوق هذين البيتين.

٢ – بفتح الميم وضمها، من جرى وأجرى، وسيمي بذلك لأن معروضـــها يجـــري بـــه الصوت ولا ينحبس.

٣ – بالذال لأن المتكلم نفذ بحركة هاء الوصل إلى الخروج وهو الألف مثلاً التي بعدها، وقيل هو بالدال المهملة ومعناه الإنقضاء لأن بهذه الحركة وقع تمام الحركات وانقضاؤها.

٤ – سميت بذلك لأن الشاعر يحذوها أي يتبعها في القوافي لتتفـــق الأرداف لزومـــاً أو رجحانا.

[٤] الإشباع[١] : وهو حركة الدخيل ككسرة لام [سالم] في البيت السابق، وضمة فاء [التدافع] في قول النابغة : يزرن إلالاً سيرهن التدافع[٢]

وفتحة واو[تطاولي] من قول الراجز :

يانخل ذات السدر والجراول[٣] تطاولي ماشئت أن تطاولي

انا سنرميك بكل بازل

[٥] الرس[٤] : وهو حركة ماقبل التأسيس كفتحة سين [سالم]

[٦] التوجيه[٥] : وهو حركة ماقبل الروي المقيد كقوله :

وقاتم الأعماق خاوي المخترق مشتبه الأعلام لماع الخفق

وتنقسم القافية أيضاً باعتبار الحركات التي بين الساكنين إلى خمسة أقسام:

[١] المتكاوس[٦] : كل قافية توالت فيها أربع حركات بين ساكنيها كقول العجاج من أرجوزة : قد جبر الدين الإله فجبر

[٢] المتراكب[٧] : كل قافية توالت فيها ثلاث حركات بينهما كقوله:

ياليتني فيها جذع أخبّ فيها وأضع

---

١ – سميت بذلك لإشباعها الدخيل وتقويته على أخويه في الوقوع قبل الروي وهما التأسيس والردف بسكونهما والتحرك أقوى من الساكن .

٢ – إلال اسم جبل بعرفات والتدافع العجلة وإن يدفع بعضها بعضاً .

٣ – الجراول الحجارة العظام ويريد بطن نخلة بطريق مكة.

٤ – مأخوذ من قولهم : رسست الشيء أي انتدأته على خفاء لأن حركة ماقبل التأسيس أول لوازم القافية وفيها خفاء لأنها بعض حرف خفي وهو الألف .

٥ – سميت بذلك لأن الحركة قبل الساكن كالحركة عليه فكأن الروي موجه بها أي مصير ذا وجهين سكون وتحرك.

٦ – أخذ من تكاوس البيت أي ميل بعضه على بعض لتمايل الحركات فيها وانضمام بعضها إلى بعض . وجبر الأول متعد والثاني مطاوعه لازم .

٧ – لأن حركتها بتواليها كأن بعضها يركب بعض .

[٣] المتدارك[١] : كل قافية توالت بينهما حركتان كقول امرئ القيس :

تسلت عمايات الرجال عن الهوى وليس فؤادي عن هواها بمنسلي

[٤] المتواتر[٢] : كل قافية بين ساكنيها حركة كقول الخنساء :

يذكرني طلوع الشمس صخراً واذكره بكل مغيب شمس

[٥] المترادف[٣] : كل قافية اجتمع ساكناها كقوله :

هذه دراهم أقفرت أم زبور محتها الدهور ؟

ولابد أن يكون التقاء الساكنين على حده وتعريفه المجوز له ، وهو أن يكون الأول منهما حرف لين ، وإلا فلا يكونان من القوافي .

○ المبحث الرابع : أنواع القوافي

أنواع القافية تسعة ، ستة مطلقة ، وثلاثة مقيدة فالست المطلقة :

[١] أن تكون مجردة – من التأسيس والردف موصولة باللين وهو المسمى ، [الوصل] كقول خويلد بن مرة وقد قتل أخوه عروة ونجا ابنه خراش :

حمدت إلهي بعد عروة إذ نجا خراش، وبعض الشر أهون من بعض[٤]

[٢] أن تكون مجردة موصولة بالهاء كقول النابغة :

المرء يأمل أن يعيـــــــــــ ـش وطول عيش قد يضره

[٣] أن تكون مردوفة موصولة باللين كقول عروة بن الورد :

دعيني للغنى أسعى فإني رأيت الناس شرهم الفقير

---

١ – لأن بعض الحركات أدرك بعضها البعض ولم يعقه عنه اعتراض ساكن بينهما.

٢ – لأن الساكن الثاني جاء بعد الأول بتراخ بينهما بسبب توسط الحرف المتحرك فاشبه تواتر شيء آخر مع انقطاع بينهما .

٣ – لأنه ردف أحد الساكنين فيها الآخر .

٤ – كلمة بعض هي القافية وهي مطلقة لأن الضاد متحركة ومجردة من التأسيس والردف وموصولة بالياء من إشباع الضاد من المتواتر.

[٤] أن تكون مردوفة موصولة بالهاء كقول لبيد :

عفت الديـــار محلـــها فمقامـــها بمنىً تأبد غولـــها فرجامـــها

[٥] أن تكون مؤسسة موصولة باللين كقول النابغة الذبياني :

كليني إليهم يـــا أميمـــة نـــاصب وليل أقاسيه بطـــيء الكواكـــب

[٦] أن تكون مؤسسة موصولة بالهاء كقول عدي بن يزيد :

في ليلـــة لا تـــرى فيـــها أحـــداً يحكـــى علينـــا إلا كواكبنـــــا

وأما الثلاثة المقيدة فهي:

١ً – مجردة كقول الثقب العبدي :

لا تقولـــن إذا مـــا لـــم تـــــرد أن تتم الوعد فـــي شـــيء نعـــم

٢ً – مردوفة كقولنا :

كريم الخصـــال لطيـــف المقـــال جزيل النـــوال جميـــل الفعـــال

٣ً – مؤسسة كقول الحطيئة :

أغررتني وزعمت أنـــــــــــ نـــــك لابن في الصيف تـــامر

أي ذو لبن وتمر

تمرين : بين في الأبيات الآتية أسماء حركات القافية ونوعـــها، باعتبـــار الحركات التي بين الساكنين وباعتبار إطلاقها وتقييدها :

أعلمـــتَ أنـــي فـــي دمشـــــ ـــق أجـــرا أذيـــال الســـرور[١]

بيـــن الغطارفـــة اللذيـــــ ـــن تخافهم غـــير الدهـــور

ففاضت دموع العين مني صبابـــة على النحر حتى بلّ دمعيَ محملـــي[٢]

---

١ – البيتان للرصافي والقافية فيهما مقيدة : لإنها ساكنة – وهي مردوفة بالواو ومـــن نـــوع المترادف – أي اجتمع ساكناها – وحركة الهاء تسمى الحذو لإنها حركة ماقبل الردف .

٢ – القافية مطلقة مجرده : أي من التأسيس والردف – موصوله باللين – وهي اليـــاء – من نوع المتدارك وتسمى حركة اللام (المجرى) لإنها حركة الروي المطلق .

حرام علي الـــراح بعـــدك أو أرى دماً بدم يجري على الأرض مـــائره

البحتري

وبنـــوا الريـــــان لايـــأتون "لا" وعـــل ألســـنهم خفـــــت [نعـــــم]

زيـــــنت أحـــــلامهم أحســـــابهم وكـــذاك الحلم زيـــــن للـــــكرم

لبيد

فاقنع بما قســـم المليـــك فإنمـــا قسم الخلائـــــق بيننـــا علامـــها

لبيد

يا أيـــها الســـائل عـــن مجدنـــا إنـــك عـــن مســـعاتنا غـــــافلُ

إن كنـــت لـــم تســـمع بآبائنـــا فســـل تنبـــأ أيـــــها الســـــائل

عبيد بن الأبرص

ولاتظهرن ود أمرئ قبل خبره وبعد بلاء المرء فاذمم أو أحمدِ

عبيد أيضاً

○ المبحث الخامس : عيوب القافية

عيوب القافية سبعة وهي : الإيطاء . التضمين . الإقواء . الإصـــــراف . الإكفاء . الإجازة . السناد

الإيطاء[1] : إعادة كلمة الروي لفظاً ومعنى من غـــير أن يفصـــل بيـــن اللفظين المكررين سبعة أبيات فأكثر، كقول النابغة :

أوأضعُ البيت في سوداء مظلمـــة تقيد العير لايسرى بها الســـاري

ثم قال بعد أربعة أبيات :

---

١ – سمي إيطاء لتواطوء الكلمتين أي نوافقهما لفظاً ومعنى وهو مع كونه قبيحـــاً جـــائز للمولدين كما جاز لغيرهم على أن بعضهم زعم أن الإيطاء ليس بعيب.

لا يخفض الرّزعن أرض ألم بـها ولايضل على مصباحه الســاري[1]

وأما تكرير كلمة الروي لفظاً فقط أو معنى فقط ، كالعلم مــع الصفــة أو المعرف مع المنكر فلا يعد إيطاء ، وكذا إذا فصل بينهما بسبعة أبيات فأكثر، إذ اللفظ المكرر بعد ذلك يصير كأنه مذكور في قصيدة أخرى .

التضمين[2] : تعليق البيت بما بعده كقول النابغة :

وهم وردوا الجفار[3] على تميــم وهم أصحاب يوم عكاظ إنــي

شهدت لهم مواطــن صادقــات شهدن لهم بحسن الظــن منــي

والتضمين مغتفر للمولدين .

الإقواء[4] : اختلاف المجرى [أي حركة الروي المطلق] بكســر وضــم كقول دريد بن الصمة :

نظرت إليــه والرمــاح تتوشــه كوقع الصياصي في النسيج الممدد

فأرهبت عنه القوم حتى تبــددوا وحتى علاني حالك اللون أســود

والإقواء غير جائز للمولدين .

الأصراف[5] : اختلاف المجرى بفتح وغيره، فمع الضمّ كقوله :

---

١ – وفي رواية في البيت الأول : لايجري بها الجاري . وعليها فلا إيطــاء . ومعنــى البيتين أنه يضع في أرض مظلمة منيعة لايسير بها العير لصلابتــها وخشــونتها. وفــي البيت الثاني وصف جيش النعمان بأنه لا يخفض صوته خوفاً إن حل بمكان ويشــهرون نيرانهم حتى إن من أهتدى بها لايضل الطريق .

٢ – سمي تضميناً لأن الشاعر ضمن البيت الثاني معنى البيت الأول لأنه لا يتم إلا بالثاني.

٣ – اسم ماء لبني تميم .

٤ – مأخوذ من أقوى الربع إذا تغير وخلا عن سكانه لأن الروي تغير وخلا عن حركته الأولى.

٥ – مأخوذ من قولهم : صرفت الشيء أي أبعدته عن طريقه فسمى اختلاف المجرى بــه لأن الشاعر صرف حرف الروي عن حركة حرف الروي الأول.

أريتك إن منعت كلام يحيى أتمنعني علَى يحيى البكاء؟
ففي طرفي على يحيى سهاد وفي قلبي على يحيى البلاء

ومثال الفتح مع الكسر قوله :

ألم ترني رددت على ابن ليلى منيحتَه فعجلت الأداء
وقلت لشاته لما أتتنا رماك الله من شاة بداء

ومثال الكسر مع الفتح قول سحيم الرياحي :

عذرت البزل إن هي خاطرتني فما بالي وبالُ أبن اللبونِ؟
وماذا تبغي الشعراء مني وقد جاوزت حد الأربعينَ

وهذا غير جائز للمولدين أيضاً .

الأكفاء[1] : اختلاف الروي بحروف متقاربة المخارج، كما أنشد أبو عبيدة لأمرأة من خثعم :

ليت سماكيا يحار ربابه يقاد إلى أهل الغضا بزمام
فيشرب منه جحوش[2] ويشيمه بعيني قطامي أغر يماني

والميم والنون متقاربان في المخرج ، وهو غير جائز للمولدين. قال أبو عمرو عن الأكفاء : وهو غلط من العرب ولايجوز ذلك لغيرهم لأنه غلط ، والغلط لايجعل أصلاً في العربية وإنما يغلطون إذا تقاربت مخارج الحروف.

الإجازة[3] : اختلاف الروي بحروف متباعدة المخارج كقوله :

ألا هل ترى إن لم تكن أم مالك بملكِ يدي أن الكفاء قليلُ

---

١ – مأخوذ من كفأت الأناء إذا قلبته، سمي بدلان الشاعر قلب الروي عن طريقه المألوف .

٢ – الجحوش بفتح الواو : الصبي قبل أن يشتد.

٣ – مأخوذ من قولهم : جاز المكان إذا تعداه، سمي به التجاوز حرف الروي عن موضعه .

رأى من خليليه جفـــاء وغلظـــة إذا قام يبتاع القلـــوص ذميـــمُ

واللام والميم متباعدان في المخرج . وهذا غير جائز للمولديـــن أيضـــاً . فالأكفاء والأقواء والإجازة والإصراف لايجوز للمولدين استعمالها، والإيطـــاء والتضمين والسناد [الآتي] بأقسامه يجوز للمولدين استعماله كما يؤخـــذ مـــن شرح شيخ الإسلام على الخزرجية .

السناد[1] : اختلاف ما يراعى قبل الروي من الحروف والحركات ، وهـــو خمسة أنواع :

[١] : سناد الردف، وهو ردف أحد البيتين دون الأخر كقوله :

إذا كنت فـــي حاجـــة مرســـلا فأرســـل حكيمـــاً ولا توصـــه

وإن بـــاب أمـــر عليك التـــوى فشـــاور لبـــيبـــا ولا تـــعصه

والشاهد كون البيت الأول مردوفاً بالواو قبـــل الصـــادر والثـــاني غـــير مردوف . وإما الهاء فيهما فهي وصل .

[٢] : سناد التأسيس، وهو تأسيس أحدهما دون الآخر كقول العجاج مـــن مشطور الرجز : يادار سلمى يا اسلمي ثم اسلمي

ثم قال : فخندِف هامة هذا العالم

[٣] : سناد الإشباع ، اختلاف حركة الدخيل كقوله :

وهم طردوا منها بلياً فـــأصبحت بليّ بواد مـــن تهامـــة غـــائرِ[2]

وهم منعوها من قضاعـــة كلـــها ومن مضر الحمراء عند التغـــاور

[٤] : سناد الحذو ، اختلاف حركة ما قبل الردف كقوله :

---

١ – مأخوذة من قولهم : خرج بنوفلان متساندين ، إذا جاءوا فرقاً لايقودهم رئيس واحد فهم مختلفون غير متفقين وذلك لأن قوافي القصيدة المشتملة على السناد لم تتفق الاتفـــاق بالمألوف في انتظام القوافي.

٢ – بلي بباء مفتوحة فلاحة فلام مكسورة فياء مشددة : اسم قبيلة.

لقد ألــج الخبــاء علــى جــوارٍ كأن عيونـــهن عيــون عيــنِ
كأنـــي بيـــن خافيتـــي عـــقاب تــريد حمــامة في يوم غيــن[1]

[٥] : سناد التوجيه، اختلاف حركة ما قبل الروي المقيد كقول رؤبة بـــن العجاج من مشطور الرجز :

وقاتم الأعماق خاوي المخـــترقْ مشتبه الإعلام لمـــاع الخفَــق
ألف شتى ليس بالراعي الحمـــق شذابة عنها شذا الربع السـحُق[2]

تمرين : بيّن ما في الأبيات الآتية من عيوب القوافي :

قال ابن مقبل :

أو كاهتــزاز رديني تــداولُـــه أيدي التجار فزادوا متنه لينـــا

ثم قال :

نازع ألبــابــها لبي بمقتصَـــر من الأحاديث حتى زدتني لينــا
زعم البوارح أن رحلتنـــا غــداً وبذاك خبرنا الغراب الأســودُ
لا مرحبــا بغــد ولا أهــلا بــه إن كان تفــريق الأحبة في غـدِ النابغة
أأن زم أجمـــال وفــارق جــيرة وصاح غراب البين أنت حزيــن؟
تنادوا بأعلى سحرة وتجـــاوبت هــوادر في حافــتهم وصهيـــل

فســعد وســـائلهمُ والربـــابْ وسائل هـــوازن عنـــا إذا مـــا
لقــينــاهم كيف نعــلــوهـــم بواتــر يــفرين بيــضا وهامــا

---

١ – الغين : الغيم .

٢ – ضمير ألف يعود إلى حمار الوحش المذكور قبل هذا البيت، وحاصل المعنـــى أنـــه ألف وجمع حميرا متفرقة وليس كالراعي الأحمق الذي يضيعها وهو يقطع عنها شـــذا أي أذى الحمير البعيدة.

وقال عدي بن زيد :

ففاجأها وقـــد جمعـــت جموعـــا على أبواب حصـــــن مصلتينـــا

فـــقددت الأديـــم لـــراهشـــــيه وألـــفى قـــولها زوراً ومينـــــا

وقال الفضل بن العباس اللهبي :

عبد شمس أبي فإن كنت غضبـى فاملأي وجهك الجميل خموشـــا

نحن كنـــا ســـكانها من قريـــش وبـــنا ســـميت قريـــش قريشـــاً

ولحسان بن ثابت :

لابأس بالقوم من طول ومن قصـــر جسم البغال وأحلام العصـــــافيرِ

كأنـــهم قصب جـــوف أســـافـــله مثـــقب نـــفخت فيه الأعـــلصيرُ

إلى روح النبي(١)

سلام على روح سَمَت في الورى قدْرا ... وقامت بأعمال فأدهشت الدهرا
محت ظُلمة الإشراك واستبدلت بها ... ضياء الهدى بالرفق والنَصح والذكرى
أجل إنها روح رَقَت وتقدّسَت ... وبزّت بسامي مجدها الأنجمَ الزُّهرا
أجل إنها روح النبي محمد ... أجلّ الورى قدراً وأعلاهم فخراً
سلام عليها بل وألفُ تحية ... مدى الدهر لا تنفكُّ تُتلى لها تَتْرى

* * * * * * *

أمولاي قد شيَّدتَ أرقى حضارة ... وأطْلَعْتَ للأكوان من أُفْقها بدراً
وفي عصرك السامي انْجلت مدنيّة ... فخرّت لها روما ودان لها كسرى
وقمت وحيداً في العوالم داعياً ... إلى الله قوماً قد نسوا العقل والفكرا
دعوْت ولكن قاوموك بسيفهم ... وآذوك فاستعملْتَ في أمرك الصبرا
ثَبُتَّ إلى أن فزت فيما ترومُه ... وأطْلَعْت من بعد الظلام لنا الفجرا

* * * * * * *

١ – مجلة الحقائق ، المجلد الثاني الجزء الثامن ، دمشق ١٩١١ .

أمولاي هل من نظرة كي ترى بـها أُغيلمة[1] قد وُسِّدوا النهي والامـرا
فطاشوا وقاموا يَخبطون ومـا دروْا بأن عليـهم مـن جنايتـهم وِزرا
وإن قام يشكو مصلح من فِعالـهم يسومونه خسفاً ويولونـه عُسـرا
على شرْعك العالي اعتدوا وتمـردوا وفي سيء الأفعال قد جَهَروا جهْراً
وما ضرّهم أن يصلحوا ويسـددوا ولكنمـا أفواهـهم مُلئـت عـهرا

* * * * * * *

أمولاي عطفاً وانظر اليوم حالنـا فإنا على الضرّاء لا نُحسن الصبرا
لقـد هاجمتنـا أمـة همجيـة[2] وصالت على الأطفال توسعهم ضُرّاً
أغارت علينا اليوم في عقر دارنـا وقد قتلت من أهلنـا أنفسـاً كُـثراً
حنـانيك إن الـذلّ جـاوز حـدُّه وصرنا نود الموت وهو بنا أحـرى
أمـولاي إنـا أمـة أنـت ليثُـها وهل تسكتُ الآساد إن عاينت ضيراً

* * * * * * *

أمولاي جَـدَّ المسـلمون بلـهوهم كـأن بهم عن كل صالحة وَقْـراً[3]
تداعت عليهم أمة الغرب وارتـأت بأن تأخذ البلدان من كفّهم قَسْـرا
أترضى بـأن نبقـى أذلاء بعدمـا بنيت لنا عزاً منيعاً عـلا الزّهـرا
أجل إن هذا بعـضُ مـا نسـتحقّه ولكنما الأطفال هل تعرف النكـرا
فرحماك بالأطفال واشفَع بنا عسـى بجاهك يا مولاي نغتنـم النصـرا

---

١ - المراد بالأغيلمة جمعية الاتحاد والترقي ، التي كانت قابضة علـى زمـام السـلطة ،وهي أشد الناس كرهاً للعرب ومن مواد برامجها تتريك جميع العناصر القاطنين البـلاد العثمانية .

٢ - ا لمرا د بها أمة لطليان التي هاجمت ولاية طرابلـس الغـرب وبنغـازي وفعلـت المنكرات .

٣ - وقرا : صمماً (ب) .

فتاة الروملي[1]

شاهدت ربّـة خِـدْر ذاتَ أسـمال ... تجري وتعثُرُ في جلبابـها البـالي
تبكي بحزن فتـهتز القلـوب لـها ... رباه كن عَوْن أيتـامي وأطفـالي
هناك أمسكت قلبي أن يطير وهـل ... قلبي جديدٌ فـأغدو قبـل تسـآل
ناديت يا أخت ما هذا البكاء ومـا ... أسبابه؟ أنبئينـي صحـة الحـال
فبادرت ونشيج الشَّـجْو يحبسـها ... وكفكفت دمعها الجـاري بتَـهطال
يا عم قد هجمت يوماً على بلـدي ... أوشابُ صرْب لئام نسـلُ أنـذال
أشباه وحش أغاروا يفتكـون بنـا ... سـلباً ونـهباً لأرواح وأمـوال
فـهبّ بَعْلـي وإخوانـي مُدافِعَـة ... عن الحقيقة، إذ عرض الفتى غـالي
فباء بَعْلي جريحاً حـاملاً لأخـي ... وقال هاتي فقيـد العـم والخـال
كيما أقبّلـه قبـل الممـات، فمـا ... أحلاه إن كان دون العرض والمـال
فرُحْت أجلِب أيتام الجريح عسـى ... يسلو وليس عن الأوطان بالسـالي
فعدت أحمل طفلاً فـي يـدي وأجـرّ ... الآخريـن كـأفراخ وأشـبال
لما انتـهيت إليـه كـان منتـهياً ... من الحياة : فهاجت حالُـه حـالي
أرجعت أطفاله باكين من ألم الفـراق ... يمشـون فـي بـؤس وإذلال
رباه إن أوروبـا اليـوم ظالمـة ... فجازِ يـا ربّ ظُلامـاً لأطفـالي
ماذا أقول لعصر النور إذ عملـت ... بنوها أعـمالها في عصرها الخـالي
فاحفظ لتاريخ عصر النور مافعلت ... وحوشُ بلقانه مـن سوء أفعـال

****

---

١ – كتبت في حمص ، وألقيت على مسرح تمثيل رواية (وفاء العرب) بالمدرسة العلمية ، إثر هجوم حكومات البلقان على الدولة العثمانية ، جريـدة المفيـد ، بـيروت ، ٢٥ جمادى الأول ١٣٣١ هـ .

يا قوم لاتعتبوا يومـــا علـــى أحـــد ... العتب أجدر في من غُـــرّ بـــالآل
نحن الجناةُ تركنا الجد وانســـلخت ... عنـــا كرائـــم أخـــلاق وأعمـــال
كأنه لم يكـــن عِـــزٌ ولا عَمَـــرت ... أسلافنا دور مجد صرحُها عـــالي
لهفي على المُلك قد دكّت معاقلـــه ... أبكـــي عليـــه بإرنـــان وأعـــوال
يا قوم إن حياة المُلك فـــي خطـــر ... فـــأنقذوا أمـــة عمّـــت بـــأهوال
تداركوا أمةمن قبل أن تصل الروح الـــ ... تَّراقـــي بـــلا بُـــطء ، وإهمـــال
ياقوم: إني أرى بين الرماد وميضاً ... نـــاره ســـوف تذكـــو أيّ إشـــعال
بُعثت علينا من الآفـــات أعظمُـــها ... لو قاربت جبلاً دكَّته فـــي الحـــال
لمـــاذا القعـــود وبيـــت الله يندبنـــا ... إلى القيام وصوت الصحـــب والآل

****

يا أمة لعبت أيدي الزمـــان بـــها ... ومزقتـــها يـــدا خِـــبّ ومحتـــال
أين الجماعات تسعى في تقدمنـــا؟ ... أين التعاون في بـــذل لأمـــوال؟
أين الأساطيل تمحو سُبَّة علقـــت ... بنـــا وتقْطـــع أطماعـــاً لمغتـــال
أين المدافع تحمي حرمة هتكـــت ... منـــا وتحيـــي تعِلاّتـــي وآمـــالي

****

يا آل يعربَ قد كاد العـــدو لنـــا ... وما بنا غـــيرُ أصـــوات وأقـــوال
لماذا الجمود وأغلال العدو علـــى ... رقابنـــا أثقلتنـــا أي إثقـــال
هل استطبْنا حياة الذل في دعَـــةٍ ... لا خير في دعـــة تدعـــو لإذلال
سكوتكم يا رجال الشرق أطمعـــهم ... فيكم فخُفّـــوا بإيضـــاع وإرقـــال
وكان ما كان مما ســـطّرت لـــهم ... يد التواريخ في مَقْـــت وإخجـــال

****

يا قوم جودوا بمال كي نرى لكـم ... عِزاً منيعـاً فمـا أنتـم بِبُخّـال
لاخير في المال إن حُمّ القضاء غداً ... والعـزُّ خـير بـإملاق وإقـلال
ياصاحب المال ليس الجود يُفْقِر أو ... إقدامُ من يبتغي الحسـنى بِقَتّـال

دعوا التحزب فيما بينكم وصِلـوا ... أواصر الحب في حل وترحـال
إن التفرق مدعاة الخـراب لغـد ... ساء الطريق الذي يدعو لإضـلال
يا قوم إن لم ندع هذا الشقاق فقـد ... ضاعت ثمالةُ أوطـان وأطـلال

يا آل عدنان هبوا مـن رقـادكم ... هبوا ولا تسـمعوا تفنيـد عُـذّال
وأرجعوا شرفاً ضاعت معالمـه ... فالمجد مـابين عسّـال وفصّـال
وحركوا طَرْفَ عزْم للحيـاة ولا ... تَثْنُوا العزيمة من إرعـاد جُـهّال

****

في سبيل النهضة العربية والقائمين بها[1]

إليكم بني العرب الكـــرام تحيـــة ... يرددها من فـــي هواكـــم تيتمـــا
عصى عاذليه فـــي ســـبيل وداد ... وراح يعد الحب فرضـــاً محتمـــا
إذا ما أتيت الشعر من غير بـــابكم ... لأنظمه عـــاد الـــيراع فأحجمـــا
يسيل يراعي إن نطقت بذكـــرى ... ويحلو بياني إن فتحت بكـــم فمـــا

فمني بني قومي خذوا الشعر خالصـاً ... يحـــرك أشـــجاناً ويبعـــث نومـــا
أيا أيها العرب الكـــرام بلادكـــم ... حقيق بأن يرثى عليـــها وترحمـــا
بلاد عليها القلب يدمـــى تحزُنـــاً ... لما في رُباها الجهل بات مخيّمـــا
بـــلاد غزانـــا ماؤهـــا وترابـــها ... فعار علينـــا أن تضيـــع وتظلمـــا
أرى الدار إن لم تحْيَ بالعرب ميتـة ... أرى الجو إن لم يصفَ بالعرب أقتمـــا
هو الحب كم أضنى فصبراً لحكمـــه ... حديث الهوى ليس الحديث المرجّما

ألا يا بني قومي عليكم وجـــائب ... فكونوا عليـــها حـــافظين وقوّمـــا
فما كل يـــوم تُـــتركون لرأيكـــم ... ولا يُنقضُ الأمر الذي كان أُبرمـــا
وما فـــرص الأيـــام إلا قلائـــل ... كبرق أضاء الليل لمحاً وأظلمـــا
ومن لم يراقب ربه فـــي بـــلاده ... يعش حيـــاة الـــذل رَذْلاً مُذَمّمـــا
ومن هاب أسباب العلا عاش سـافلاً ... وحق عليه أن يمـــوت ويرجمـــا
ومن رام أن يحيى يهيئ ســـبيلها ... وينشئ لكي يرقى إلى الجو سُـلّما
ومن ذاق طعم العز والمجد والعـــلا ... أبى العيش إلا أن يكون مكرّمـــا

---

١ – جريدة حلب ، ٣ نيسان ١٩١٩ .

أيا قومنا رفقاً وكونـــوا بجمعكـــم ... يداً في سبيل المجد كـــي نتقدمـــا
وطوفوا جميعاً حول مـــن قـام حاميـاً ... حقوقكم من أن تُـــهان وتُـــهضما
هو الليث أبدى عزمة مضريـــة ... ورأياً ســـديداً واجتـــهاداً مقوّمـــاً
فليس بشرع الله والعقـــل والعـــلا ... ولاشرع موسى والمسيح بـــن مريمـــا
تَطلُّبُ عز شـــامخ تحـــت رايـــة ... لغير (الحسين) تنتمي أيّ منتمـــى
وليس لمجد العرب عز ورفعـــة ... إذا لم يكن باسم الحســـين مُعلّمـــا
وكل اعتلاء في حمايـــة طـــامع ... يُعَـــدّ هوانـــاً لايُطـــاق محرّمـــا
وإن بناء العرب إن يقُـــمْ علـــى ... أساس قويـــم عُـــدَّ بيتـــاً مـــهدَّماً
وإن حياة المرء في الأســـر ذلّـــةٌ ... وموت الفتى بالعز أحلى وأنعمـــا

تحية البلاد العربية [1]

بلاد العـــرب للعـــرب ... بـــلا شـــك ولا ريـــبِ
أفدّيها بروحـــــي مـــن ... رزايا الدهر والنُـــوبِ

سلام من فتى العـــرب ... لمكّـــة مـــهبطِ الكُتـــبِ
وطيبـــة مبلـــغِ الأرب ... ومَجلى الغمّ والكُـــرَبِ

ســـــلام الله بغـــــدادْ ... مقرّ الســـادة الأمجـــادْ
برَحْبِك شادت الأجـــدادْ ... بيـــوتَ العلـــم والأدبِ

سلام من فتى قد هـــام ... بحبك يا بـــلاد الشـــام
ومن لِحِماكِ سوءاً رام ... بـــلاهُ الله بـــــالعطبِ

سلام من فتـــى حلـــب ... لنسل الســـادة النجـــبِ
مليكِ العُرْب ذي الحسب ... (حسينٍ) منقذِ العـــربِ

« نزيل الشهباء »

---

١ - جريدة حلب ، ٧ نيسان ١٩١٩ .

عتاب في نسيب [1]

نفـرت والظبـا لـهن نفـــار ... وتجنّـت بـالصدّ عنـي نـوار
تركـت قلـب صبّـها مسـتهاماً ... مذ علا وجهها الصبيح اغـبرار
فاعجبـا للوفـاء منـي إليـها ... كيف حبل الوفـاء منـي مُغَـار
ولكـم فنّـدَ العـذول عليـها ... وأطـال اللـوّامُ فيـها وجـاروا
وأروني منـها السـهى وأُريـهم ... بـدر تـمّ مـن دونـه الأقمـار

****

ياخليليّ مركبُ الحـب صعـبٌ ... وحـزونٌ مـا دونـه وخَبـار
حفـه قـادة الوشـاية كيمـا ... يتجلـى بـالحب عنـي ازورار
يـا وشـاة رويدكـم إن قلبـي ... قلب مـن لا تهولـه الأخطـار
يـا وشـاة إنـي طليـح بحبـي ... غير أنّ الـهوان بـالحب عـار
فنـوارُ مـهما تجنّـب وجـافت ... فهي طِرف يقـال منـه العَثـار
وهي من نبعـة زكَـت وفـروع ... طيبـات أصولُـها والنجـار

****

محـن أحدقـت بنـا وخطـوبٌ ... خشـعت مـن وقعـها الأبصـار
أضرم العرب نار حرب ضـروس [12] ... إن عقبى الحروب يـأتي البـوار
يالـها جُـذوة أثـار لظاهـا ... مبغضو العرب أهلَ خبثٍ شِـرار
يـا لقومـي أليـس فينـا رشـيد ... يصلـح الأمـر سـيد مغـوار

---

١ - المقتبس ، دمشق ، ٢٢ آذار ١٩٢٥.

٢ - حرب نجد والحجاز .

قد أضر الشقاق واستحكم العُـــدو ... وان فينـــا واســتفحل الإضــرار
شــمت الكاشــحون هــلاّ أفقنـــا ... من سبات أمـــا اســتفاق النــهار
انظروا ما وراءكـــم مــن أســودٍ ... ضاربــاتٍ لــها عــلاً واقتـــدار
إن أعداءكــم تصــول عليكـــــم ... بســلاح منــه العقــول تحـــــار
اجمعوا أمركـــم وكونــوا جميعــاً ... إن هــذا الخــلاف فيــه الدمـــار

****

خدمة العرب مبدأي ليس يثنينـــي ... واش أويَطَّبينـــــي[1] النضـــــار
واحتفاظي بـــــه احتفــاظ جليــل ... وهو ذخري إن تَنْفُــسُ الأذخــار
وإذا رحـــت أو غــدوت فـــإني ... أخدم العرب والعلى حيث ساروا
ويراعي – لاغير – وقفٌ عليــها ... أبْعَــدُ القــول عنّــي الإهـــذار
فهمُ القصـــد إن أُشَــبِّب بســلمى ... وهــمُ عنــدي الحبيــب نُـــوارُ
أنـــا أمضـــي لطينـــي وإلـــهي ... عــالمٌ مــا تُكِنُّـــهُ الأســـرار

****

[1] - يَطَّبيني : يوضع الغضار (الـراب) في مفرق الرأس، كما يوضع الطيب، والمقصود هنا : الموت (ب) .

١٨٨٧ * الأستاذ الشيخ محمد سعيد زهور عدي * ١٩٨١

* .مرجع اللغة العربية ومن أوائل أساتذتها في حماة . * تخرج على يديه عدد كبير من رجالات حماة منهم الشيخ محمد الحامد الذي قال عنه .

* (كان أستاذنا)الشيخ محمد سعيد يعلمنا الوطنية مع اللغة العربية * .له عدة مؤلفات وعدد كبير من المقالات في الشؤون الفكرية والادبية والاجتماعية .

صور الصف التاسع الإعدادي عام ١٩١٨ مع عدد من الطلاب

إلى روح الوالد الشيخ الأستاذ محمد سعيد زهور عدي...

سلام على روح سمت في العلا قدرا *** وغابت كقرص الشمس إذ يلثم البحرا
تنكبت الدنيا إلى المجد تارة *** وحينا تخطتها إلى الخلد والذكرى
وأوسعت الوديان علما وحكمة *** ففاضت بها الوديان واتسعت نهرا
وعلمت الأجيال روحا ومسلكا *** وأشعلت الأنوار فانبعثت فجرا
خرجت إلى الدنيا بهمة فارس *** ونبل كريم القوم يلتمس الأجرا
ملأت سماء الحب بالعطف والدا *** وعلمتنا الإيمان والعزم والصبرا
إذا ما ذكرت اليوم همسا وخلسة *** بكت نائحات الضاد من دمعها جمرا
ومن للقوافي بعد موتك حارسا *** ومن يمنع الأغراب أن يدخلوا الشعرا*
وذنبك إن أذنبت أنك باسط *** برؤياك للآتي لتستبق العصرا
وحولك أنظار قصار كليلة *** يشد خطاها الليل تستنكر الفكرا
بذلت لنور العلم نور بصائر *** ومن يطلب الحسناء لا يحسب المهرا*
وما كنت فينا رب بيت ووالد *** فذاك لعمري من خصائلك الصغرى
لقد كنت فينا الروح والرمز والهدى *** وأورثت فينا العلم والشعر والفخرا
وأورثت فينا أن نحب بلادنا *** وأن الهوى للعرب والنخل والصحرا
وأورثت فينا حب أشرف سيد *** به ازدان ذكر العرب وارتفعت قدرا
تواضعت للأهلين من دون غاية *** وجدت لهم بالعلم مصطبرا دهرا
وذلك كنز عند ربي ادخرته *** وحاشاه ربي أن يضيع لك الأجرا*
سقا الله في أطراف أطيب بلدة *** ترابا تباهى أن يكون لك القبرا

*إشارة لكتابه في نقد الشعر.
*إشارة إلى إنذار طبي العيون له بالتقليل من القراءة وجوابه له بقوله العلم هو نور عيني.
*إشارة إلى أبياته التي أوصاها للكتابة على قبره.

الابن المهندس معقل زهور عدي – الشارقة ٢٠١٤/٠٨/١٣م